منشورات جامعة النجف الدينية

١

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الاول

تصدى لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلانتر

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ — ١٩٦٣

منشورات جامعة النجف الدينية

١

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الاول

تصدى لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلانتر

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ — ١٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة المؤلف

١١٢٨ - ١٢٠٩

هو الشيخ الجليل المولى (محمد مهدى بن أبى ذر النراقى) أحد أعلام المجتهدين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الهجرة، ومن أصحاب التأليفات القيمة . ويكاد أن يعد فى الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين .

وهو عصامى لا يُعرف عن والده (ابى ذر) إلا أنه كان موظفاً فى الدولة الايرانية بوظيفة صغيرة فى قرية (نراق)، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره فى طيات التأريخ كملايين البشر من أمثاله ، ولا يعلم ما اذا كان لشيخنا النراقى اخوة ، ولكن له ولد نابه الذكر ، هو المولى احمد النراقى المتوفى ١٢٤٤ ، صاحب (مستند الشيعة) المشهور فى الفقه ، وصاحب التأليفات الثمينة ، أحد أقطاب العلماء فى القرن الثالث عشر . وكفاه فخراً أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصارى المتوفى ١٢٨١ .

ولعل النراقى الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذيوع صيته، لما وطىء عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التأليف . كما حذا حذوه فى تأليفاته . فان الأب المكرم ألف فى الفقه (معتمد الشيعة) ، والابن الجليل ألف مستندها . وذاك ألف فى الأخلاق (جامع السعادات) - هذا الكتاب

الذى نقدمه ـ وهذا ألف (معراج السعادة) فى الفارسية . وذاك ألف (مشكلات العلوم) وهذا ألف (الخزائن) . . . وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج .

مولده ووفاته

ولد الشيخ المترجم له ـ رحمه الله تعالى ـ فى (نراق) كعراق (١) ، وهى قرية من قرى كاشان بايران ، تبعدعنها عشرة فراسخ . وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدم الذكر . ولم يذكر التأريخ سنة ولادته ، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التأريخية ، فانه تلمذ ـ فى أول نشأته على ما يظهر ـ على الشيخ المحقق الحكيم المولى اسماعيل الخاجوئى ثلاثين سنة،مع العلم أن استاذه هذا توفى عام ١١٧٣ ،فتكون أول تلمذته عليه عام١١٤٣ على أقل تقدير ، إذا فرضنا أنه لازمه الى حين وفاته . ولنفرض على أقرب تقدير أنه قد حضر عليه وهو فى سن ١٥ عاماً ، وعليه فتكون ولادته عام ١٢٢٨ ، أو قبل ذلك .

أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ فى النجف الأشرف ، ودفن فيها ، فيكون قد بقى بعد وفاة استاذه الوحيد البهبهانى سنة واحدة ، ويكون عمره ٨١ عاماً على الأقل .

وفى (رياض الجنة) المخطوط ، تأليف السيد حسن الزنوزى المعاصر للمترجم له ـ حسب نقل الاستاذ حسن النراقى ـ : ان عمره كان ٦٣ سنة ، فتكون ولادته سنة ١١٤٦ هـ . وهذا لا يتفق ابداً مع ما هو معروف فى تأريخه : انه تلمذ على المولى اسماعيل الخاجوئى ثلاثين سنة ، لأنه يكون عمره على حسب هذا التأريخ حين وفاة استاذه ٢٧ سنة فقط .

(١) وفى أعيان الشيعة ـ ج ١٠ ص ٢٥٠ ـ :انها بفتح النون .

نشأته العلمية واساتذته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم: خامل الذكر، فقير الحال، منزوياً فى مدرسته، لا يعرف من حاله إلا أنه طالب مهاجر، ولا يتصل به إلا أقرانه فى دروسه، الذين لا يهمهم من شأنه إلا أنه طالب كسائر الطلاب، يتردد فى حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلا بزته الرثة التى ألفوا منظرها فى آلاف طلاب العلم، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس.

وبطبيعة الحال لا يسجل له التاريخ شيئاً فى هذه النشأة، وكذلك كل طالب علم لا يسجل حتى اسمه مالم يبلغ درجة يرجع اليه الطلاب فى تدريس، أو الناس فى تقليد، أو تكون له مؤلفات تشتهر. ومن هنا تبتدىء معرفة حياة الرجل العالم، وتظهر آثاره ويلمع اسمه.

ومع ذلك، فانا نعرف عن شيخنا: ان أسبق أساتذته وأكثرهم حضوراً عنده هو المولى اسماعيل الخاجوئى المتقدم الذكر. وهذا الاستاذ كان مقره فى اصفهان، وفيها توفى ودفن؛ والظاهر أنه لم ينتقل عنها حتى فى الكارثة التأريخية المفجعة التى أصابتها من الأفغانيين الذين انتهكوها بما لم يحدث التأريخ عن مثلها، وذلك سنة ١١٣٤. فتكون نشأة شيخنا المترجم له العلمية فى مبدأ تحصيله فى اصفهان على هذا الشيخ الجليل. والظاهر أنه عليه قرأ الفلسفة، لأن هذا الشيخ من اساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهى تلمذتهم فى ذلك العصر الى المولى صدر الدين الشيرازى صاحب الاسفار. وحكى ان من تلاميذه المولى محراب، الإلهى المعروف، الذى طورد لقوله بوحدة الوجود، ولما جاء الى إحدى العتبات المقدسة متخفياً. وجد فى الحرم شيخاً ناسكا يسبح بلعن ملا صدرا وملا محراب، ولما سأله عن السبب فى لعنهما قال:

لأنهما يقولان (بوحدة واجب الوجود) . فقال له ساخراً : إنهما حقاً يستحقان منك اللعن !

ودرس أيضاً شيخنا المترجم له - والظاهر أن ذلك فى اصفهان ايضاً - على العالمين الكبيرين : الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان ، والشيخ محمد مهدى الهرندى . وهما من اساتذة الفلسفة على ما يظهر .

ولاشك أنه انتقل الى كربلا والنجف ، فدرس على الأعلام الثلاثة : الوحيد البهبهانى الآنى ذكره - وهو آخر اساتذته وأعظمهم ، وتخريجه كان على يديه - والفقيه العالم صاحب الحدائق الشيخ يوسف البحرانى المتوفى ١١٨٦ . والمحقق الجليل الشيخ مهدى الفتونى المتوفى ١١٨٣ .

فجملة اساتذته سبعة ، سماهم ولده فى بعض اجازاته على ما نقل عنه بـ (الكواكب السبعة) . وهم خيرة علماء ذلك العصر ، وعلى رأسهم الآقا الوحيد استاذ الاساتذة .

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل فى كربلا ، رجع الى بلاده واستقام فى كاشان . وهناك أسس له مركزاً علمياً تشد اليه الرحال ، بعد أن كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء ، واستمرت بعده على ذلك مركزاً من مراكز العلم فى ايران ، وليس لدينا ما يشير الى تأريخ انتقاله الى كاشان .

ورجع الى العراق ، وتوفى فى النجف الأشرف ودفن فيها . والظاهر ان مجيئه هذا - وكان معه ولده - بعد استاذه الوحيد ، جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفى . أما ولده فقد بقى بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء .

عصره

يعضى القرن الثانى عشر للهجرة على العتبات المقدسة فى العراق ، بل على

اكثر المدن الشيعية فى ايران التى فيها مركز الدراسة الدينية العالية - كاصفهان وشيراز وخراسان - وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الدينى : الأولى : النزعة الصوفية التى جرّت الى مغالاة فرقة الكشفية . والثانية : النزعة الأخبارية .

وهذه الأخيرة خاصة ظهرت فى ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسى ، وتدعو الى نفسها بصراحة لا هوادة فيها ، حتى أن الطالب الدينى فى مدينة كربلا خاصة أصبح يجاهر بتطرفه ويغالى ، فلا يحمل مؤلفات العلماء الأصوليين إلا بمنديل ، خشية أن تنجس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف . وكربلا يومئذ اكبر مركز علمى للبلاد الشيعية .

وفى الحقيقة أن هذا القرن يمر والروح العلمية فاترة الى حد بعيد ، حتى أنه بعد الشيخ المجلسى صاحب البحار المتوفى فى أول هذا القرن عام ١١١٠ ، لم تجد واحداً من الفقهاء الأصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل فى الطبقة الأولى ، أو تكون له الرئاسة العامة ، إلا من ظهر فى أواخر القرن ، كالشيخ الفتونى الجليل فى النجف المتوفى ١١٨٣ ، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهانى فى كربلا المتوفى ١٢٠٨ ، الذى تم على يديه تحول العلم الى ناحية جديدة من التحقيق .

وهذا الفتور العلمى ، وطغيان نزعة التصوف من جهة ، ونزعة الأخبارية من جهة أخرى فى هذا القرن بالخصوص ، مما يدعو الى التفكير والعجب . وليس بايدينا من المصادر ما يكفى للجزم بأسباب ذلك . وأغلب الظن أن أهم الأسباب التى نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسى والاجتماعى اللذان آلت اليهما البلاد الإسلامية فى ذلك القرن، من نحو التفكك واختلال الأمن فى جميع أطراف البلاد ، والحروب الطاحنة بين الامراء والدول ،

لا سيما بين الحكومتين الايرانية والعثمانية وبين الايرانية والافغانية ، تلك الحروب التي اصطبغت على الاكثر بصبغة مذهبية . وهذا كله مما يسبب البلبلة في الافكار والاتجاهات ، وضعف الروح العامة المعنوية .

فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية والسلطات الزمنية . ويدعو ذلك عادة الى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة ، واليأس من الاصلاح . فتنشأ هنا نزعة التصوف ، وتتخذ يومئذ صرحاً علمياً على انقاض الفلسفة الاشراقية الإسلامية المطاردة المكبوتة ، التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء ، كالمولى صدر الدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠ واضرابه واتباعه ، مع المغالاة في أفكارها . وساند طريقة التصوف مبدئياً أن السلطة الزمنية في ايران - وهي (سلطة الصفويين) - قامت على أساس الدعوة الى التصوف ، وظلت تؤيدها وتمدها سراً .

ومن جهة اخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو ، فينكر على الناس أن يركنوا الى العقل وتفكيره ، ويلتجأ الى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الأخبار الواردة في الكتب الموثوق بها في كل شيء ، والجمود على ظواهرها . ثم يدعو الغلو بهؤلاء الى ادعاء أن كل تلك الأخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف . ثم يشتد بهم الغلو ، فيقولون بعدم جواز الأخذ بظواهر القرآن وحده ، من دون الرجوع الى الأخبار الواردة . ثم ضربوا بعد ذلك علم الأصول عرض الجدار ، بادعاء أن مبانيه كلها عقلية لا تستند الى الاخبار ، والعقل أبداً لا يجوز الركون اليه في كل شيء ، ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد . وهكذا تنشأ فكرة الأخبارية الحديثة التي أول من دعا اليها أو غالى في الدعوة اليها المولى أمين الدين الاسترابادي المتوفى ١٠٣٣ . ثم يظهر آخر شخص لهذه النزعة له مكانته

العلمية المحترمة فى الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره . وهذا الثانى - وإن كان اكثر اعتدالا من الأول واضرابه - كاد أن يتم على يديه تحول الاتجاه الفكرى بين طلاب العلم فى كربلا الى اعتناق فكرة الأخبارية هذه .

وعندما وصلت هذه الفكرة الاخبارية الى اوجها ، ظهر فى كربلاء علم الأعلام الشيخ الوحيد الآقا البهبهانى، الذى قيل عنه بحق : مجدد المذهب على رأس المائة الثالثة عشرة . فان هذا العالم الجليل كان لبقاً مفوهاً ومجاهداً خبيراً ، فقد شن على الأخبارية هجوماً عنيفاً بمؤلفاته ، وبمحاجاته الشفوية الحادة مع علمائها - وقد نقل فى بعض فوائده الحائرية ورسائله نماذج منها - وبدروسه القيمة التى كان يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الأصول الحديث ، وخروجه عن جموده الذى ألفه عدة قرون ، واتجه التفكير العلمى الى ناحية جديدة غير مألوفة .

فانكمشت فى عصره النزعة الاخبارية على نفسها، ولم تستطع أن تثبت امام قوة حجته . وتخرّج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الامة ، كبحر العلوم، وكاشف الغطاء، والمحقق القمى، والشيخ النراقى -المترجم له- واشباههم.

فيبرز شيخنا المترجم له فى عنفوان المعركة الاخبارية والأصولية ، وساحتها كربلا ، وفى عنفوان معركة الدعوة الى التصوف ، وساحتها اصفهان على الاكثر ، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين ، بل أحد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه، وساعده على ذلك انه -رحمه الله- كان متفنناً فى دراسة العلوم ، ولم يقتصر على الفقه والاصول ومقدماتهما ، فقد شارك العلوم الرياضية، كالهندسة والحساب والهيئة ، وله مؤلفات فيها سيأتى ذكرها . كما درس الفلسفة ، ويظهر أثر تضلعه فى الفلسفة فى كتابه هذا (جامع السعادات) ، لا سيما فى الباب الاول ، وفى تقسيمه لابواب الكتاب

وفصوله على أساس علمي متقن برّز فيه على كتب الاخلاق السابقة عليه من هذه الناحية . وسيأتي بيان ذلك .

كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بأمرين :

(الأول) طغيان التصوف من جهة ، وطغيان التفكك الأخلاقي عند العامة من جهة أخرى ، وأنهما هما اللذان ألجآه الى أن يرشد الناس الى الاعتدال في السلوك الأخلاقي المستقى من منابعه الشرعية . فانه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادىء الفلسفة الاشراقية . حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف ، وجعل آراءه ودعوته الى الأخلاق على أساس الذوق الإسلامي الذي يتمثل في الأحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت ـ عليهم السلام ـ ، فهو في وقت واحد هادم وبان ، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (احياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الروح الصوفية ، وهي غايته المثلى .

و(الثاني) من الأمرين حسن اختيار صاحب الترجمة ، فانه لم يسبقه احد من علماء الإمامية ـ بعد خريت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١ ، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ ـ الى تأليف كتاب كامل في الأخلاق مبني على أساس علمي فلسفي موجود بين ايدينا .

شخصية المترجم له واخلاقه

إن أعاظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفواً ومصادفة ، من دون قوة كامنة في شخصيتهم أو ملكة راسخة في نفوسهم ، هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس . وما كلمة الحظ في هذا الباب إلا تعبير مبهم عن تلك القوة التي أودعها الله تعالى في شخص النابغة . وقد تكون تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها ، بل على الاكثر هي كذلك ، فيندفع العبقري الى تلك القمة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوة

الكامنة اندفاعاً لا شعورياً ، وان كانت اعماله الجزئية التى يقوم بها هى شعورية بمحض اختياره .

وتلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له فى صبره وقوة إرادته وتفانيه فى طلب العلم ، ثم عزة نفسه ، وان كانت هذه الفاظاً عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس ، ويصح التعبير بها بلا كذب ولا خداع ، إلا أن الدرجة الخاصة من الصبر والارادة والحب والعزة ونحوها التى بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللغة عن التعبير عنها بخصوصها إلا بهذه الالفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التى يختص بها صاحبنا من هذه الامور فى ثلاث حوادث منقولة عنه :

(الأولى) - فيما ينقل انه كان فى ايام التحصيل فى غاية الفقر والفاقة - والفقر دائماً شيمة العلماء ، بل هو من أول شروط النبوغ فى العلم ، وهو الذى يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيق - فكان صاحبنا قد تشتد به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذى لا يتجاوز فى عصره عن ان يكون من زيت أوشمع ، فيدعوه حرصه على العلم الى الدخول فى بيوت مراحيض المدرسة، ليطالع على سراجها ، ولكنه تأبى عزته ان يدع غيره يشعر بما هو فيه ، فيوهم الداخلين - بالتنحنح - انه جالس للحاجة الخاصة . وتتجلى فى هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة إرادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلا للنوابغ الافذاذ.

(الحادثة الثانية) - ان أحد الكسبة الذى كان حانوته فى طريق المدرسة بكاشان التى كان يسكنها هـــذا الطالب النراقى ، ان هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب انه رث الثياب ، وكان معجباً به ، اذ كان يشترى منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب ، فرأى ان يكسيه تقرباً الى الله ، فهيأ له ملبوساً يليق بشأنه، وقدمه له عندما اجتاز عليه ، فقبله

بالحاح . ولكن هذا الطالب الأبى فى اليوم الثانى رجع الى رفيقه الكاسب وارجع له هذا الملبوس قائلاً : انى لما لبسته لاحظت على نفسى ضعة لا اطيقها ، لاسيما حينما اجتاز عليك ، فلم اجد نفسى تتحمل هذا الشعور المؤلم ، والقاه عليه ومضى معتزاً بكرامته .

(الحادثة الثالثة) - فيما ينقل عنه أيضاً - وهى أهم من الأولى والثانية - انه كان لا يفض الكتب الواردة اليه ، بل يطرحها تحت فراشه مختومة ، لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم . والصبر على هذا الامر يتطلب قوة ارادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر . ويتفق ان يقتل والده (ابو ذر) المقيم فى نراق وطنه الاصلى ، وهو يومئذ فى اصفهان ، يحضر على استاذه الجليل المولى اسماعيل الخاجوئى ، فكتبوا اليه من هناك بالنبأ ليحضر الى نراق ، لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤن اخرى ، ولكنه على عادته لم يفض هذا الكتاب ، ولم يعلم بكل ما جرى . ولما طالت المدة على من فى نراق ، كتبوا له مرة اخرى ، ولكن لم يجبهم ايضاً . ولما ايئسوا منه كتبوا بالواقعة الى استاذه المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيء . والاستاذ فى دوره - على عادة الناس - خشى أن يفاجئه بالنبأ ، وعندما حضر مجلس درسه أظهر له - تمهيداً لاخباره - الحزن والكآبة ، ثم ذكر له : ان والده مجروح ، ويرجح له الذهاب الى بلاده . ولكن هذا الولد الصلب القوى الشكيمة لم تلن قناته ، ولم يزد أن دعا لوالده بالعافية ، طالباً من استاذه أن يعفيه من الذهاب . وعندئذ اضطر الاستاذ الى ان يصرح له بالواقع ، ولكن الولد ايضاً لم يعبأ بالامر ، واصر على البقاء لتحصيل العلم . إلا ان الاستاذ هذه المرة لم يجد بدأ من أن يفرض عليه السفر ، فسافر امتثالا لامره المطاع ، ولم يمكث فى نراق اكثر من ثلاثة ايام ، على بعد الشقة وزيادة المشقة ، ثم رجع الى دار هجرته .

وهذه الحادثة لها مغزاها العميق فى فهم نفسية هذا العالم الآلهى ، وتدل على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة فى سبيل طلب العلم .

مؤلفاته

لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة، تدلّ على قابلية فى التأليف وصبر على البحث والتتبع ، وعلى علم غزير. ونحن نعدّ منها ما وصل بحثنا اليه، واكثر اعتمادنا فى تعدادها وبعض اوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور فى مصادر هذه الطبعة :

(فى الفقه) :

١ - (لوامع الأحكام فى فقه شريعة الإسلام): وهو كتاب استدلالى مبسوط ، وقد خرج منه كتاب الطهارة فى مجلدين يقرب من (٣٠) الف بيت .

٢ - (معتمد الشيعة فى احكام الشريعة) : هو أتم استدلالا واخصر تعبيراً من كتاب اللوامع السالف الذكر ، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضاء . قال فى الروضات عن الكتابين : « ينقل عنهما ولده المحقق فى المستند والعوائد كثيراً » .

٣ - (التحفة الرضوية فى المسائل الدينية) : فى الطهارة والصلاة ، فارسى ، يقرب من (١٠) آلاف بيت .

٤ - (أنيس التجار): فى المعاملات، فارسى، يقرب من(٨) آلاف بيت .

٥ - (أنيس الحجاج) : فى مسائل الحج والزيارات ، فارسى ، يقرب من (٤) آلاف بيت .

٦ - (المناسك المكية): فى مسائل الحج أيضاً ، يقرب من ألف بيت.

٧ - (رسالة صلاة الجمعة) : ذكرها وما قبلها حفيده (الاستاذ حسن النراق) فى رسالته لنا .

(فى أصول الفقه) :

٨ - (تجريد الأصول) : مشتمل على جميع مسائل الأصول مع اختصاره ، يقرب من (٣) آلاف بيت . قال عنه فى الروضات : « شرحه ولده فى مجلدات غفيرة جمة » .

٩ - (أنيس المجتهدين) : توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامة بالنجف الاشرف (برقم ٤٠٨ - سجل المخطوطات) ، تقع فى ٤١١ صفحة ، بخط محمد حسين بن على نق البزاز ، فرغ منها بتأريخ ٣ صفر من سنة ١١٨١. وفى تقدير رياض الجنة يقرب من (١٠) آلاف بيت.

١٠ - (جامعة الأصول) : يقرب من (٥) آلاف بيت .

١١ - (رسالة فى الاجماع) : يقرب من (٣) آلاف بيت .

(فى الحكمة والكلام) :

١٢ - (جامع الأفكار): فى الآلهيات ، يقرب من (٣٠) الف بيت، قد فرغ من تأليفه سنة ١١٩٣ ، وعليه فليس هو من اوائل مؤلفاته ، كما قال عنه صاحب (رياض الجنة) ، وستجد راموزاً للصفحتين الأولى والاخيرة منه بخط المؤلف ، منقولتين عن النسخة التى هى بحوزة أحد احفاده (الاستاذ حسن النراقى) . والذى يجلب الانتباه فى الصفحة الاخيرة ما ذكره من الحوادث المروعة فى الوباء وغيره التى وقعت فى تلك الفترة .

١٣ - (قرة العيون) : فى احكام الوجود والماهية ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

١٤ - (اللمعات العرشية) : فى حكمة الاشراق ، يقرب من (٢٥) الف بيت .

١٥ - (اللمعة) : وهو مختصر اللمعات ، يقرب من ألفى بيت .

١٦ - (الكلمات الوجيزة) : وهو مختصر اللمعة ، يقرب من ثمانمائة بيت.

١٧ - (أنيس الحكماء) : في المعقول ، وهو من اواخر تأليفاته ، لم يتم . احتوى على نبذ من الأمور العامة والطبيعيات ، يقرب من (٤) آلاف بيت .

١٨ - (أنيس الموحدين) : في أصول الدين ، فارسي ، يقرب من (٤) آلاف بيت .

١٩ - (شرح الشفا) : في الآلهيات ، النسخة الأصلية بخط المؤلف موجودة عند أحد احفاده (الاستاذ حسن النراقي) .

٢٠ - (الشهاب الثاقب) : في الامامة ، في رد رسالة الفاضل البخاري ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

(في الرياضيات) :

٢١ - (المستقصى) : في علوم الهيئة ، خرج منه مجلدان الى مبحث اسناد الحركات ، يقرب من (٤٠) ألف بيت، قال عنه في رياض الجنة: «لم يعمل ابسط وادق منه في علم الهيئة ،ولقد طبق فيه اكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية ، لم يتم » .

٢٢ - (المحصل) : كتاب مختصر في علم الهيئة ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

٢٣ - (توضيح الأشكال): في شرح تحرير اقليدس الصورى في الهندسة، وقد شرحه الى المقالة السابعة ، فارسي ، يقرب من (١٦) ألف بيت .

٢٤ - (شرح تحرير اكرثاذوسنيوس) يقرب من (٣) آلاف بيت .

٢٥ - (رسالة في علم عقود الانامل) : فارسية ، تقرب من الف بيت .

٢٦ - (رسالة في الحساب) : ذكرها في روضات الجنات .

(فى الاخلاق والمواعظ) :

٢٧ - (جامع السعادات) : هـــذا المطبوع بثلاثة اجزاء - حسب تقسيمنا له - قال عنه فى رياض الجنة : « يقرب من (٢٥) الف بيت » . وقد طبع فى ايران على الحجر سنة ١٣١٢ بجزءين ، وسيأتى وصفه ، وقد تقدم شىء من وصفه . وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الاشرف .

٢٨ - (جامع المواعظ) : فى الوعظ ، يقرب من (٤٠) الف بيت ، لم يتم .

(فى المتفرقات) :

٢٩ - (محرق القلوب) : فى مصائب آل البيت ، فارسى ، يقرب من (١٨) الف بيت ، قال عنه فى روضات الجنات : « طريف الاسلوب » .

٣٠ - (مشكلات العلوم) : فى المسائل المشكلة من علوم شتى ، مطبوع على الحجر بايران ، يشبه بعض الشىء كشكول البهائى . وقد نسج على منواله ولده المحقق فى كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بايران .

٣١ - (رسالة نخبة البيان) : ذكرها حفيده (الاستاذ حسن النراقى) .

٣٢ - (معراج السماء) : ذكره أيضاً حفيده المذكور .

جامع السعادات وعلم الأخلاق

لا شك ان القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم ، وليس كل من كان عالماً استطاع التأليف .

والتأليف فى حد ذاته من أبرز الخدمات التى يؤديها العالم للناس فى حياته ، ومن اعظم الحظوظ للانسانية ، وبسببه استطاعت ان تتقدم على مرور الاجيال . ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظاً للانسانية.

واذا أردنا ان نضع المؤلفات فى رفوف حسب قيمتها ، فانما فى فترات متقطعة تظهر مؤلفات من النوابغ يصح ان نضعها فى الرف الأعلى ، ويصدق عليها بحق انها مما ينفع الناس ، فتمكث فى الأرض ، وتفرض نفسها للخلود والبقاء اذا سلمت من عوادى الدهر الغاشمة . ومن سوء الحظ ان الفراغ لا يزال كثيراً فى هذا الرف الأعلى .

ومن بين الفترات لابد ان تبرز فى كل علم من المؤلفات هى من حقها أن توضع فى الرف الثانى أو ما دونه . وحظها ان تنسج على منوال غيرها لتحييها وتهيء انتهاء الفترة لظهور الاثر الخالد مما يوضع فى الرف الاعلى . وهذه غير الغثاء الذى يذهب جفاء ، ومن حقه ان يلقى فى سلة المهملات . وما اكثر هذا النوع الرخيص ، لا سيما فى عصرنا الحاضر الذى سهلت له الطباعة الاسفاف .

ويجب ألا نغالى فى مؤلفات شيخنا النراقى فنضعها فى الرف الاعلى ، ولكن (جامع السعادات) الذى نقدمه ، هو بالخصوص من الآثار الخالدة ، وان لم يكن موضعه هذا الرف الاعلى كسائر الكتب الاخلاقية فى الدورة الإسلامية . ولا ندرى السر فى ذلك ، ألأن الفترة بعد لم تنته لعلم الاخلاق بخصوصه كيما يظهر الاثر الخالد المنتظر الذى سيكون فى الرف الأعلى ،أم لأن

هذا العلم ليس له تلك الفترات ، بل كله فى فترة مستديمة ليأس العلماء الاخلاقيين من التأثير على الناس بمجرد التأليف ؟!

وهذا الثانى هو الأقرب إلى الواقع . والحق مع الاخلاقيين فى يأسهم ، فان الاخلاق لا تكتسب بالتعلم وقراءة الكتب ، وانما هى صفات وملكات لا تحصل للانسان إلا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة ، لا سيما فى أيام الطفولة وفى السن المبكرة قبل ان يفرض فى الانسان ان يكون أهلا للقراءة ، ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة فى النفس أو تنميتها لكانت كتب الاخلاق من أثمن ما خلق الله . ولأغنى البشرية كتاب واحد يفى بذكر الاخلاق الفاضلة ، بل لا كتفينا بالقرآن الكريم وحده ، أو بنهج البلاغة بعده الذى تريد خطبه ومواعظه ان تصهر الناس فى بوتقتها الملتهبة لتخرجهم ابريزاً صافياً كصاحبها ، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل ان تنصهر بهذا اللهب تخبو جذوتها وتزيد جموداً على مساوئها .

وليس هذا الرأى عن الكتب الاخلاقية فيه شيء من المغالاة على ما اعتقد ، إلا انى مع ذلك لا اظلم بعض زمرة صالحة من أهل الفتوة وارباب القلوب الحية ، إذ نجدهم يتأثرون بالكلمة الاخلاقية الموجهة اليهم ممن يعول على قوله ، ويتتبعون باخلاص مجهودات المؤلفين فى الاخلاق ، ليترسموا خطاهم فيهذبوا انفسهم .

ومن هنا نجد السبيل الى إنصاف الاخلاقيين وإعطاء مؤلفاتهم حقها من التقدير ، لنعتقد انهم لم يعملوا عملا باطلا لانفع فيه ، بل الحق ان له قيمته العظيمة ، وكفى أن يتأثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة . وهذا التأثر على قلته له قيمة معنوية لاتوازن بشيء فى الدنيا ، بل سير الحياة وتقدمها يتوقف مبدئيا على هذا التأثر ، وان كان محدوداً . وما التقدم الاجتماعى الذى

يحصل فى امة فى بعض الفترات من الزمن إلا نتيجة من نتائج هذا التأثر المحدود .

ومع ذلك ، فان تأثير الدعوة الاخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتى من مجرد شحن الكتاب بالنظريات الاخلاقية المجردة . بل لروحية المؤلف أعظم الاثر فى اجتذاب قلوب الفتيان الكرام الى الخير . ومن هنا اشترطوا فى الواعظ ان يكون متعظاً .

وعلى هذا الاساس ينبغى أن توضع كتب الاخلاق فى رفوفها . فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المبادىء العلمية ـ فى نظر ارباب القلوب ـ تلك الاهمية الاخلاقية التى تعلق عليها ، ولا تقاس بالاثر الاخلاقى الذى يحصل من روحية المؤلف ومقدار تأثره هو باقواله ، وما كانت شهرة (مجموعة ورام) ، وماكانت اهميتها إلا لأنها ناشئة من قلب صادق ، ذلك قلب الأمير الزاهد الآلهى (الشيخ ورام ابن ابى فراس المالكى الاشترى) ، وليس فيها صفة علمية أو فنية تقضى بهذا الاهتمام . ومن العجيب أن قلب الرجل الاخلاقى يبرز ظاهراً على قلمه فى مؤلفاته ، فتلمسه فى ثنايا كلماته . وبالعكس ذلك الذى لا قلب له ، فانك لا تقرأ منه إلا كلاماً جافاً لا روح فيه ، مهما بلغت قيمته فى حساب النظريات الفلسفية .

وفى نظرى ان قيمة (جامع السعادات) فى الروح المؤمنة التى تقرأها فى ثناياه أكثر بكثير من قيمته العلمية . وانى لأتحدى قارىء هذا الكتاب اذا كان مستعداً للخير أن يخرج منه غير متأثر بدعوته ، وهذا هو السر فى اقبال الناس عليه وفى شهرته ، على انه لا يزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التى لا نجد فيها هذا الذوق والروحانية . والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف ، وما كان عليه من خلق عال وايمان صادق .

وانى لأؤمن ايمانا لا يقبل الشك : ان انتشار هذا الكتاب بين الناس

في هذا العصر سيكون له اثره المحسوس في توجيه امتنا نحو الخير ، بعد ان نفدت طبعته الأولى وعزت نسخته ، ولا سيما ان خطباء المنابر ـ فيما اعتقد ـ ستكون لهم الحصة الوافرة في التأثر به ونقل تأثرهم الى سواد الامة الذين هم المعول عليهم في نهضتنا الاخلاقية المقبلة .

وهذا ما دفعني ـ والله هو الشاهد علي ـ الى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه ، ليخرج بهذه الحلة ، وان كانت ظروفي الخاصة كادت أن تحول دون التفرغ له ، لو لا اني توكلت على الله تعالى ووطنت نفسي على تجاهلها واهمال كثير مما يجب العناية به ، والحمد لله على توفيقه .

النواحي الفنية في الكتاب

من أهم ما يؤاخذ به كتابنا هذا ، اعتماده على المراسيل في الاحاديث ، وتسجيل كل ما يرى امامه من المنقولات : غثها وسمينها ، من دون اشارة الى التمييز ولا الى المصادر ، حتى نقل كثيراً عن احياء العلوم ، وتعمد النقل عن مثل جامع الاخبار ومصباح الشريعة ، اللذين يشهد اسلوبهما على وضع اكثر ما فيهما . وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها . وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد أياما ، كما قد يذهب البحث سدى . وما كان يهمنا من الرجوع الى المصادر إلا تصحيح المنقولات لا إثبات مصادرها ، فلذلك لا نشير في الحاشية الى المصدر إلا اذا وجدنا اختلافا في نصه في النسخ ، فنقول : صححناه على كذا مصدر . وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بالجميل ، فنذكر الاستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرم بالشكر لما اعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات .

والذي يهوّن الخطب في هذه المؤاخذة ـ على أن لها قيمتها الفنية ـ

انها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الأخلاق الإسلامية ، بل هذا ديدنها . وكأن همّ اصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة ، فاذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة فى نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذى يتضمنها صحيحاً مقبولا فى عرف أهل الحديث، فاذا قال المحدث: « قال النبي والإمام كذا » يعنى بذلك أن هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به ، وإلا فيقول « روى عنه كذا » أو ما يشبه ذلك ، أما الاخلاقى فلا يعنى بذلك القول إلا أنه مروى عنه بأى طريق كان .

ولعل لهذا التسامح عذراً مقبولا فى مذهبهم على ما قدمنا ،لو لم تكن فيه إساءة الى أمانة النقل فى أهم تراث اسلامى دينى ، فى حين كان من الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث ، على ان فى الثابت الصحيح عن آل البيت - عليهم السلام - ما فيه الكفاية للالمام بنواحي الأخلاق المطلوبة ، وما فى (الكافى) كاف وحده فى هذا الباب . وكنا نتمنى - اثناء التصحيح - على صاحب كتابنا هذا ألا يتبع هذه العادة عند الاخلاقيين ، فيزيد على فائدته الاخلاقية فائدة اخرى فى تحقيق الاحاديث الصحيحة .

أما اسلوب الكتاب الادبى ،فهو يمثل إلى حد ما عصره الذى ضعفت فيه اللغة الى حد كبير ، بالرغم على ان الفلاسفة الاشراقيين اشتهروا فى تلك العصور بحسن البيان وقوة الاسلوب ، لا سيما فى العصر السابق على عصر المؤلف ، كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١ ، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره ، حتى كان يسمى الأول : امير البيان ، ولعل الثانى احق بهذا اللقب . غير ان صاحبنا لا يحسب فى عداد الفلاسفة وإن ارتشف من منهلهم . على أنه كان يقتبس كثيراً نص عبارات غيره استراحة اليها . وهذه سنة مستساغة عند المؤلفين الاخلاقيين ، وكأن كتبهم يحدونها مشاعة بين

الجميع ، أولأن همهم اداء الفكرة كما كان عذرهم فى مراسيل الاحاديث .

وبهذه المناسبة نقول : إنا وجدنا اثناء تصحيح الكتاب كثيراً من الالفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوغاً من اللغة العربية ، ككلمة (القادسة) و (الهلاكة) ، ففضلنا أن نبقيها على ما وجدناها ، حرصاً على امانة النقل ، واهملنا التنبيه عليها ، ومثل كلمة (سيما) فضلنا أن نصححها ونضع كلمة (لا) بين قوسين اشارة الى زيادتها منا .

وإذا كانت امانة النقل هى العذر لنا فى ذلك ، فهى التى تقضى علينا ان نصرح أن عناوين الكتاب على الاكثر هى من وضعنا لامن وضع المؤلف .

وأما اسلوبه العلمى ، فقد بناه مؤلفه من اوله الى آخره على نظرية الوسط والأطراف فى الاخلاق، تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية . وقد بحث عنها المؤلف فى (الجزء الاول ص ٥٩) . وليس من حقنا ان نناقشها ، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده ، فان شأنه فى الاعتماد على هذه النظرية الاساسية شأن سائر كتب الاخلاق الإسلامية العلمية .

ولكن الذى امتاز به كتابنا ـ بعد أن بحث مؤلفه بحثاً فلسفياً متوسطاً عن النفس وقواها ، والخير والسعادة ، والفضائل والرذائل ، فى البابين الاول والثانى ، كما صنع اسلافه ـ أن جعل اساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث : العاقلة والشهوية والغضبية ، معللا ذلك بأن « جميع الفضائل والرذائل لا تخرج عن التعلق بالقوى الثلاث » (١ / ٦٦) . وذكر لكل قوة ما يتعلق بها من اجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمة الى الاخرى ، ثم ذكر انواعها ، واستقصى ذكر الانواع ، مطبقاً على كل نوع نظرية الوسط والاطراف ، فجاء فى استقصائه وإلحاقه كل فضيلة ورذيلة بالقوة التى تتعلق بها ، بما لم يجىء به غيره ولم يسبقه اليه أحد فيما نعلم ، وهو نفسه ادعى ذلك

فقال : « ان احصاء الفضائل والرذائل وضبطها ، وادخال البعض فى البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له علماء الاخلاق » (١ / ٧١) .

وهذه أهم ناحية فنية فى الكتاب ، وفتح جديد فى تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة ، لو اتفق لغيره ان يترسم خطاه ، ويتم مافتحه من هذا الباب من التحقيق ، لتقدم على يديه علم الاخلاق تقدماً كبيراً . وعلى اساس تحقيقه هذا اسقط فضيلة العدالة من حسابه ، فلم يجعلها جنساً مقابلا لاجناس الفضائل الثلاث الاخرى ، وهى الحكمة والعفة والشجاعة ، باعتبار ان العدالة جامعة لجميع الكمالات باسرها ، لا انها فى مقابلها . وقد فصل هذا الرأى فى الباب الثانى ، ولا أظن احداً يقره عليه ، ولا يثبت امام النقد . ولكن هذه المقدمة تضيق عن مثل هذه الأبحاث الدقيقة ، كما تضيق عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلفات الاخلاقية الاخرى . وقصدنا أن هذا التقسيم من المؤلف ، وارجاع الفضائل والرذائل الى اسبابها ، وجعل مواضيع الابحاث هى تلك القوى ، واحصاء انواع الاخلاق بنوعيها ولوازمها ، كل ذلك مستجد ، وهى طريقة علمية امتاز بها الكتاب .

تصحيح الكتاب ومراجعه

وعدت الأخ الفاضل الألمعى السيد محمد كلانتر ، ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحاً وتعليقاً -جزاه الله خير ما يجزى العاملون - : على الاشتراك معه واعانته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه ايضا عند الطبع ، إذا توفق لتهيئة ما يلزم لطبعه ، وذلك قبل سنتين . وشاء التوفيق أن يحقق هذه الأمنية ، فلم أجد للتخلى عن الوفاء بالوعد سبيلا مهما كلفنى الأمر .

ويعجبنى من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق فى سبيل نشره ، باعتباره أحد الكتب التى يجب احياؤها فى هذا العصر . وهذا منه أحد شواهدى على تأثر الفتيان الكرام الابرار بهذا السفر الأخلاقى. وقد شاهدت صبره لأول مرة فى ايران فى صيف العام الماضى ، لما اشترك هو والعلامة الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة ، فى قسم من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتى ذكرها فى المراجع رقم ٢ الى حد ص ١٧٦ من الجزء الأول من هذا المطبوع ، فاودعا فى التعليقة آراءهما القيمة فى تحقيقه وتصحيحه . ولئن عدنا فى التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع ، فانا اعتمدنا كثيراً على تلك التحقيقات القيمة الماضية .

ولا ننسى أن نذكر أن النسخة المطبوعة فى ايران على الحجر ، فيها من التحريف والتصحيف ما يذهب بالاطمئنان اليها ، ويشوه المقصود والمعنى . ومن الغريب أن نجد التحريف حتى فى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. أما تذكير المؤنث وتأنيث المذكر ، وتشويه الاملاء والتبويب ، فهذه امور حدّث عنها ولا حرج . ويكفى أن تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا ، لتعرف أى مجهود بذل للتصحيح والاخراج ، وتجد العناية على كل سطر منه ، بل كل كلمة .

ومن سوء الحظ ، أن النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن اكثر حظاً فى الصحة من اختها المطبوعة . وهذا مادعانا الى ان نرجع الى كتب اخرى تمتّ بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب ، كالكتب الاخلاقية وكتب الحديث . واكثر ما كان يعنينا تصحيح الاحاديث الشريفة بالرجوع الى مصادرها الذى جشمنا بحثاً مضنياً كان يستغرق اكثر أوقاتنا ، وقد نذكر احياناً فى التعليقة المصدر المرجوع اليه ، وعلى الاكثر لا نذكر المرجع إلا

عن ما يكون مخالفاً لنسخ الكتاب . ويحسن الآن أن نذكر أهم المراجع التى اعتمدنا عليها لتصحيح الكتاب ، وهى :

١ ـ النسخة من الكتاب ـ المشار اليها آنفاً ـ المطبوعة على الحجر بايران سنة ١٣١٢ .

٢ ـ النسخة المخطوطة منه التى تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محمد محسن الشهير بـ (آغا بزرگ) مؤلف الذريعة ، وقد نسخت سنة ١٢٠٨ ، ونعبر عنها فى التعليقة بـ (نسختنا الخطية) .

٣ ـ النسخة المخطوطة منه فى مكتبة سپه سالار بطهران . ولا يحضرنا الآن تأريخ نسخها ورقمها فى المكتبة . وقد قوبلت النسخة الى حد صفحة ١٧٦ من الجزء الأول .

٤ ـ النسخة المطبوعة ، التى يملكها الخطيب السيد جواد شبر ، وفيها بعض التقييدات والتصحيحات .

٥ ـ احياء العلوم ـ للشيخ ابى حامد الغزالى .

٦ ـ احياء الاحياء ـ المجلد الرابع المطبوع فى ايران على الحجر سنة ١٣٢٦ ، للشيخ المولى محسن الفيض الكاشانى .

٧ ـ نسخة اصول الكافى ـ المخطوطة سنة ١١٠٣ ، فى مكتبة منتدى النشر برقم (٤٤٦) ، وهى نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقة المقابلة على نسخ صحيحة .

٨ ـ نسخة اصول الكافى ـ المخطوطة التى تحت تصرفنا .

٩ ـ فروع الكافى ـ المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .

١٠ ـ الوسائل ـ المطبوعة سنة ١٣٢٣ ، المعروفة بطبعة عين الدولة .

١١ ـ البحار ـ المجلد ١٥ بجميع اجزائه الأربعة ، المطبوع على الحجر .

١٢ ـ كنز العمال ـ المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ .

١٣ ـ مستدرك الوسائل ـ للشيخ المحدث النورى ، المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩ .

١٤ ـ الوافى ـ للشيخ المولى محسن الفيض ، المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .

١٥ ـ سفينة البحار ـ المطبوع على الحجر بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٢ ، للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمى .

١٦ ـ جامع الاخبار ـ المطبوع بالهند على الحجر .

١٧ ـ مصباح الشريعة ـ المطبوع بالهند على الحجر .

وهذه غير المراجع التى رجعنا اليها نادراً : كمجوعة الشيخ ورام ، والحقائق للفيض ، ومجمع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحى ، ونهاية ابن الأثير ... ونحوها كثير لا فائدة فى احصائه . وهذه المراجع هى التى روجعت لتصحيح أجزاء الكتاب ، والله تعالى هو الموفق للصواب .

ويجب ألا ننسى فى الختام شكر الشيخ عبد الهادى الأسدى على جهوده التى بذلها فى تصحيح الكتاب عند الطبع ، والاشتراك فى مقابلة النسخة الأصلية وتدقيقها ، جزاه الله خير ما يجزى العاملين .

النجف الأشرف

٢٠ رجب ١٣٦٨ هـ

محمد رضا المظفر

مراجع البحث فى الترجمة :

١ ـ (روضات الجنات) : للسيد محمد باقر الخوانسارى ، المطبوع بايران على الحجر سنة ١٣١٦ .

٢ ـ (الروضة البهية) : للسيد محمد شفيع الحسينى ، المطبوع بايران على الحجر .

٣ ـ (اعيان الشيعة) : للسيد محسن الامين ـ الطبعة الأولى ـ فى ترجمة الشيخين : احمد النراقى واسماعيل الخاجوئى .

٤ ـ (مستدرك الوسائل) : ـ الجزء الثالث ـ للمحدث ميرزا حسين النورى .

٥ ـ (الذريعة) : ـ للشيخ محمد محسن الشهير بآغا بزرگ الطهرانى .

٦ ـ (الاسناد المصفى) : له ايضاً . المطبوع بالنجف الاشرف سنة ١٣٥٦ .

٧ ـ (رياض الجنة) : المخطوط ، للسيد حسن الزنوزى المعاصر للمؤلف ، ومن تلامذة الوحيد البهبهانى ، نسخة منه محفوظة بخزانة الحاج حسين آغا ملك العامة بطهران تحت رقم (٤٣٨٠) . وقد اعتمدنا عليها فى تجديد النظر فى الترجمة سنة ١٣٨٣ ، على ما نقله لنا عنها مكاتبة احد احفاد المترجم له (الاستاذ حسن النراقى) . واكثر ما اعتمدنا على هذا المصدر فى تعداد مؤلفات المترجم له .

٨ ـ (قصص العلماء) : للميرزا محمد بن سليمان التنكابنى ، المطبوع على الحجر بطهران .

ملاحظة :

في سفرتي الأخيرة إلى ايران في العام الماضي - لأمور تخص :

(جامعة النجف الدينية)

- التقيت مع الاخ الاستاذ (حسن الزاقي) - دام فضله - من احفاد المؤلف - قدس سره - ، جرى الحديث فيه حول شيخنا المؤلف وعظمته .

فأراني الأخ الزاقي نموذجاً من خطوط المؤلف الراقية ، فجذبني حسن الخط وروعته ، ولا سيما تلكم الصفحات من كتاب :

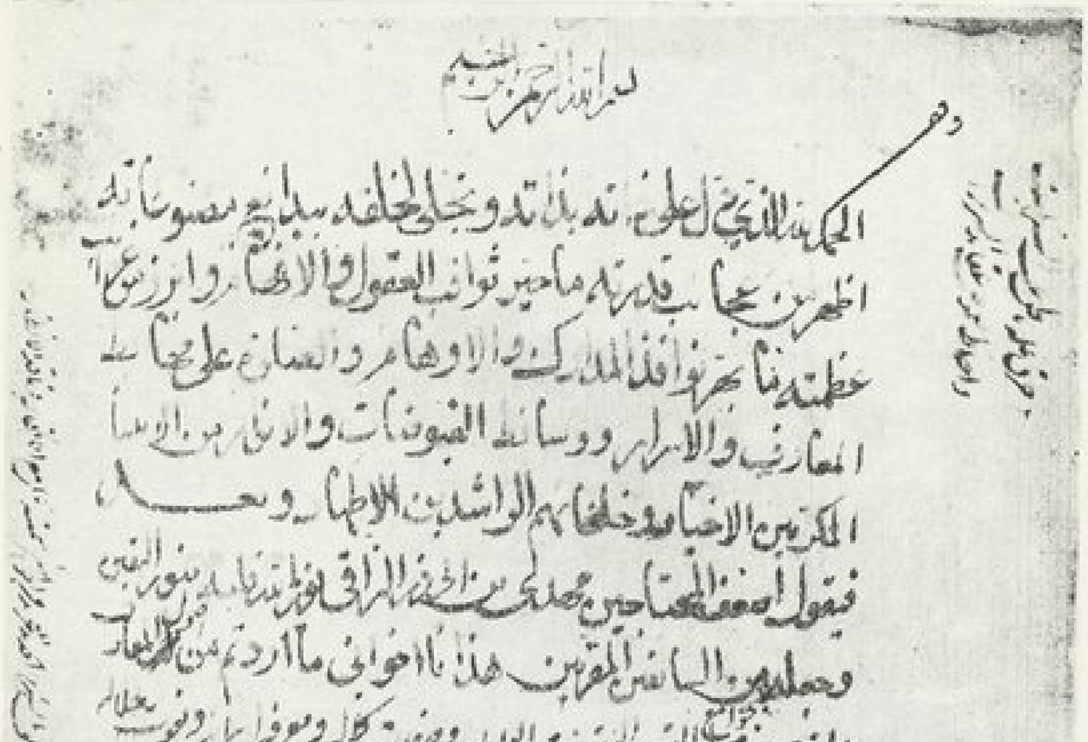
(جامع الافكار و ناقد الانظار)

ففكرت في طبع نموذج الصفحة الأولى والأخيرة من الكتاب المذكور ، تثبيتاً لعظمة ناحية اخرى من نواحي حياة المؤلف المليئة بجلائل الفنون الروائع .

وقد ابدى الاستاذ الزاقي موافقته على ذلك في إطار من التبجيل الصادق والأدب الجميل . . . مما يخص نفسيته الواسعة .

فشكراً له وتقديراً ؟

السيد محمد كلانتر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علا في ذاته وتجلى لخلقه ببدائع مصنوعاته

الظاهر بجانب قدرته ما حير ثواقب العقول والافهام وابرز من آثار

عظمته ما بهر نوافذ المدارك والاوهام والصلاة على حملة

المعارف والاسرار ووسائط الفيوضات والانوار من الانبياء

المكرمين الاخيار وخلفائهم الراشدين الاطهار وبعد

نموذج الصفحة الأولى من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف - قدس سره -

(جامع الافكار وناقد الانظار)

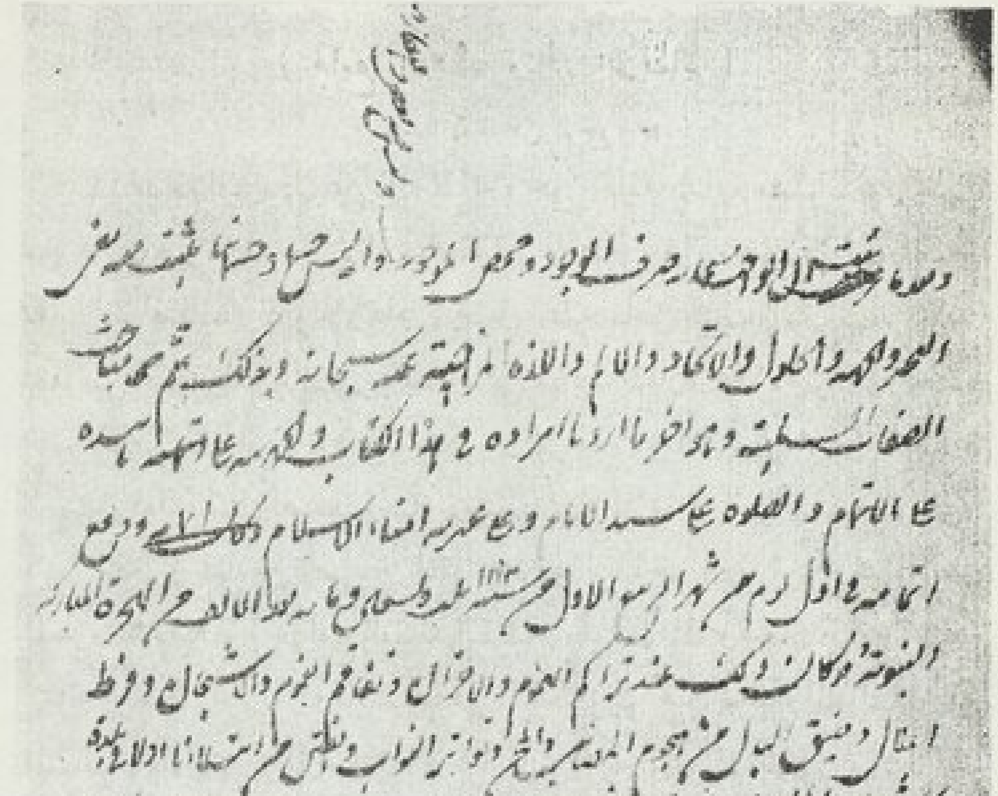
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى دل على ذاته بذاته وتجلى لخلقه ببدايع مصنوعاته ، اظهر من عجائب قدرته ما حير ثواقب العقول والافهام ، وابرز من غرائب عظمته ما بهر نوافذ المدارك والاوهام ، خرق علمه باطن غيب السترات واحاط بغموض عقائد السريرات ، والصلاة على مهابط المعارف والاسرار ووسائط الفيوضات والانوار ، من الأنبياء المكرمين الاخيار وخلفائهم الراشدين الاطهار.

وبعد فيقول اضعف المحتاجين : مهدى بن ابى ذر النراقى ـ نور الله قلبه بنور اليقين وجعله من الصادقين المقربين ـ : هذا يا اخوانى ما اردتم من اصول المعارف الحقيقية وجوامع العقائد اليقينية : من العلم بالله وصفات كماله ومعرفة اسمائه ونعوت جلاله ، ومايتلوهما من المباحث الإلٓهية العالية والمطالب الحقة المتعالية ، مما يرتقى به إلى منازل الاخيار ويعرج به الى عوالم العقول والانوار ، ويتوجه به الى شطر كعبة الملكوت ويسلك به الى صقع عالم الجبروت . وقد بعث الله السفراء لأجله ، وانعقد اجماع الامة على وجوب اخذه ، فيلزم على الكل حمله ولا يسع لاحد جهله ، واسأل الله ان يجعله خالصا لوجهه ويحرسه عن غير اهله ، ولا شتمالـه على جمع الأفكار الإلٓهية ونقدها ، سيما ما تعلق بالشرح الجديد للتجريد من الحواشى ، وسميته بـ (جامع الأفكار وناقد الانظار) ، ورتبته على مقدمات ومقالات :

المقدمة الأولى ـ فى ابطال ترجح المساوى والمرجوح وترجيحهما .

بيان الأول : ان معنى المساوات كون شيئين فى مرتبة واحدة بالنظر الى ثالث ، ومعنى المرجوحية كون الشيئين احدهما ابعد من الآخر ، والراجحية كونه اقرب منه ، فلو ترجح المساوى أو المرجوح لزم التناقض .



نموذج الصفحة الأخيرة من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف – قدس سره –

وبعد ما ثبت ان الواجب ـ سبحانه ـ صرف الوجود ومحض الموجود وليس فيه نقص ولا ممازجة ، وانه ليس جسما وجسمانيا ، ثبت معه نفي التحيز والجهة والحلول والاتحاد والألم واللذة المزاجية عنه سبحانه ، وبذلك تم مباحث الصفات السلبية ،وهو آخر ما اردنا ايراده في هذا الكتاب . والحمد لله على تأييده على الاتمام ، والصلاة على سيد الأنام وعلى عترته امناء الإسلام.

ووقع اتمامه في اول يوم من شهر ربيع الأول من سنة ١١٩٣ ـ ثلاث وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة المباركة النبوية ـ وقد كان ذلك عند تراكم الهموم والاحزان وتفاقم الغموم والأشجان ،وفرط الملال وضيق البال ، من هجوم المصائب والمحن وتواتر النوائب والفتن ،من ابتلائنا اولا في بلدة كاشان ـ حماها الله عن طوارق الحدثان ـ بالزلازل الهائلة المفزعة والرجفات المزعزعة المزعجة ، وانهدام جميع الأبنية والمساكن وجلّ البيوت والمواطن ، وهلاك كثير من الأصدقاء والأحباب وذهاب غير واحد من الأحبة والاصحاب ، ثم ابتلائنا بالأمراض الشديدة الغريبة والأسقام الوبائية العجيبة ، بعد ارتحالنا لعدم السكنى وغيره من اختلال الأمور إلى بعض القرى ، واحتراق فؤادي بذهاب بعض اولادي الذي تقر به عيني في ظلمات الأحزان والهموم ويسكن الله قلبي عند اضطرابه من هجوم الأشجان والغموم ، ثم وقوعنا في الداهية العظمى والفتنة الكبرى : اعني موت السلطان ووقوع الاضطراب والوحشة بين أهل ايران . فاحمد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء ،ونسأله ان يكون ذلك آخر الرزايا والمصائب وخاتمة البلايا والنوائب ، وان يصلح جميع امور المسلمين بمحمد وآله سادات الخلق اجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى خلق الانسان ، وجعله أفضل انواع الاكوان ، وصيره نسخة لما أوجده من عوالم الأمكان ، اظهر فيه عجائب قدرته القاهرة . وابرز فيه غرائب عظمته الباهرة . ربط به الناسوت باللاهوت ، واودع فيه حقائق الملك والملكوت ، خمّر طينته من الظلمات والنور ، وركّب فيه دواعى الخير والشرور ، عجنه من المواد المتخالفة . وجمع فيه القوى والاوصاف المتناقضة ، ثم ندبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل ، وحثه على تحسينها بعد ماسهل له السبيل ، والصلاة على نبينا الذى أوتى جوامع الحكم ، وبعث لتتميم محاسن الاخلاق والشيم ، وعلى آله مصابيح الظلم ، ومفاتيح ابواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم .

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدى بن ابى ذر النراقى) بصّره الله بعيوب نفسه ، وجعل يومه خيراً من أمسه : إنه لاريب فى ان الغاية من وضع النواميس والاديان ، وبعثة المصطفين من عظماء الانسان ، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين . وايصالهم إلى روضات العليين ،

وردعهم عن مشاركة أسراء ذل الناسوت، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت إلى مجاورة سكان صقع الملكوت ، ومرافقة قطان قدس الجبروت ، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الاخلاق ورذائلها ، والتحلي بشرائف الصفات وفضائلها . فيجب على كل عاقل ان يأخذ اهبته ، ويبذل همته فى تطهير قلبه عن اوساخ الطبيعة وارجاسها ، وتغسيل نفسه عن اقذار الجسمية وانجاسها قبل ان يتيه فى بيداء الشقاق ، ويهوى فى مهاوى الضلالة والهلاكة، ويصرف جده ويجتهد جهده فى استخلاص نفسه عن لصوص القوى الامارة مادام الاختيار بيده ، إذ لاتنفعه الندامة والحسرة فى غده .

ثم لاريب فى ان التزكية موقوفة على معرفة مهلكات الصفات ومنجياتها ، والعلم باسبابها ومعالجاتها ، وهذا هو الحكمة الحقة التى مدح الله اهلها ، ولم يرخّص لاحد جهلها، وهى الموجبة للحياة الحقيقية ، والسعادة السرمدية،والتارك لها على شفا جرف الهلكات،وربما احرقته نيران الشهوات.

وقد كان السلف من الحكماء يبالغون فى نشرها وتدوينها ، وجمعها وتبيينها ، على ما ادت اليه قوة انظارهم ، وادركوه بقرائحهم وافكارهم . ولما جاءت الشريعة النبوية ، على صادعها الف صلاة وتحية ، حثت على تحسين الاخلاق وتهذيبها ، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل فى جنبها ماقرره اساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والاديان، إلا انه لما كان ماورد منها منتشراً فى موارد مختلفة ، ومتفرقافى مواضع متعددة ، تعّسر ان يحيط به الجلّ فلابد من ضبطه فى موضع واحد ليسهل تناوله للكل، فجمعت فى هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة، مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقرّ به اعين الطالبين ، وتسر به افئدة الراغبين .

ونذكر أولا بعض المقدمات النافعة فى المطلوب ، ثم نشير الى اقسام

الاخلاق، ومبادئها من القوى ونضبطها باجناسها وانواعها و نتائجها و ثمراتها، ثم إلى المعالجة الكلية لذمائم الاخلاق والجزئية لكل خلق مذموم : مما له اسم مشهور، وما ينشأ عنه من الافعال المذمومة، وفى تلوه نذكر ضده المحمود، وما يدل على فضله عقلا و نقلا، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لازالة ضده، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور، ما يتعلق بالغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث، لأن ذلك ادخل فى ضبط الاخلاق، ومعرفة أضدادها، والعلم بمبادئها واجناسها، وهو من أهم الامور لطالبي هذا الفن .

وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن، لان غرضنا فى هذا الكتاب انما هو مجرد اصلاح النفس، وتهذيب الاخلاق، وسميته « بجامع السعادات » ورتبته على ثلاثة ابواب .

الباب الاول

فى المقدمات

انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار - تجرد النفس وبقاؤها - التذاذ النفس وتألمها - فضائل الاخلاق ورذائلها - الاخلاق الذميمة تحجب عن المعارف - حصول الملكات بتضاعف الاعمال - العمل نفس الجزاء - القول بتجسد الاعمال والملكات - المضادة بين الدنيا والآخرة - للجبلة والمزاج دخل فى جودة الملكات ورداءتها - حقيقة الخلق وماهية الملائكة - الاقوال فى تبدل الاخلاق والملكات - شرف علم الاخلاق - تعريف النفس واساميها باختلاف الاعتبارات - فى الاشارة الى اعتبار مدافعة القوى الاربع - انقهار النفس بتسخير القوة العالية - اختلاف الصفات يوجب اختلاف النفوس - ائتلاف حقيقة الانسان من الجهات المتقابلة - حقيقة الخير والسعادة - والجمع بين الاقوال المختلفة فيها - شرائط حصول السعادة - غاية ما يمكن الوصول اليه من السعادة - تقسيم اللذات والآلام - اللذة فى الحقيقة هى العقلية دون الحسية - ايقاظ فيه موعظة ونصيحة - التنبيه على ان الفائت لايتدارك .

فصل

(انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار)

اعلم ان الانسان منقسم إلى سر وعلن وروح وبدن ولكل منهما منافيات وملائمات ، وآلام ولذات ، ومهلكات ومنجيات .

ومنافيات البدن وآلامه هى الامراض الجسمانية وملائماته هى الصحة واللذات الجسمانية . والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الامراض ومعالجاتها هو علم الطب . ومنافيات الروح وآلامه هى رذائل الاخلاق التى تهلكه وتشقيه ، وصحته رجوعه إلى فضائلها التى تسعده وتنجيه وتوصله إلى مجاورة أهل الله ومقربيه . والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الأخلاق)

ثم ان البدن مادى فان، والروح مجرد باق، فان اتصف بشرائف الصفات كان فى البهجة والسعادة أبداً ، وان اتصف برذائلها كان فى العذاب والشقاوة مخلداً ، ولابد لنا من الاشارة إلى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيباً للطالبين على السعى فى تزكيته وحفظه عن الشقاوة الأبدية .

فصل

(فى تجرد النفس وبقائها)

لا ريب فى تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن . أما الأول (والمراد به عدم كونها جسما وجسمانية) فيدل عليه وجوه :

(منها) ان كل جسم لا يقبل صوراً واشكالا كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريان مثله، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات والمعقولات من دون ان تزول الأولى بورود الأخرى ، بل كلما قبلت صورة

ازدادت قوتها على قبول الاخرى ، ولذلك تزيد القوة على ادراك الاشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر ، فثبت عدم كونها جسما .

و(منها) ان حصول الابعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بان يصير طويلا عريضاً عميقاً وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بان يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالادراك من غير ان تصير كذلك، وايضاً حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له ، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء .

و(منها) ان النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الامور الالهية والمعارف الحقيقية ، ولا تميل إلى اللذات الجسمية والخيالية والوهمية ، بل تحنّ أبداً إلى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب،وهذا أوضح دليل على أنها غيرهما ، إذ لا ريب في ان ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور بادراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية ، وبالمناجاة والعبادات والمواظبة على الأذكار في الخلوات مع صفاء النيات لا مدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما ، إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية ، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدري ان لها بدناً فكأنها منخلعة عنه ، فهذا يدل على انها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه ، إذ التذاذهما منحصر بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة .

و(منها) ان النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلا لها، ولاريب في ان المادي يكون محلا للمجرد اذ كل مادي ذو وضع قابل للانقسام ،وكون المحل ذا وضع قابل للانقسام يستلزم ان يكون حاله أيضاً كذلك كما ثبت في محله ، والمجرد لا يمكن كذلك وإلا خرج عن حقيقته ، فالنفس لا تكون

مادية واذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة .

و(منها) ان القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس الظاهرة اذ ما لم يدرك الشىء بها لم تتمكن الحواس الباطنة ان تدركه وهذا وجدانى وضرورى . والنفس قد تدرك مالا طريق لشىء من الحواس إلى ادراكه كالأمور المجردة والمعانى البسيطة الكلية ، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التى بين المحسوسات . والضرورة العقلية قاضية بانه لا مدخلية لشىء من الحواس فى إدراك شىء من ذلك .

وأيضاً تحكم بانه لا واسطة بين النقيضين ، وهذا الحكم غير ماخوذ من مبادىء حسية اذ لو كان مأخوذاً منها لم يكن قياساً أولياً ، فمثله مأخوذ من المبادىء الشريفة العالية التى تبنى عليها القياسات الصحيحة .

وأيضاً هى حاكمة على الحس فى صدقه وكذبه وقد تخطّئه فى أفعاله وتردّ عليه أحكامه كتخطئته للبصر فيما يراه أصغر مما هو عليه فى الواقع أو بالعكس، وفيما يراه مستديراً وهو مربع ،أو مكسوراً وهو صحيح،أو معوجا وهو مستقيم،أو منكوساً وهو منتصب،أو مختلفا فى وضعه الواقعى. وفى رؤيته للاشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق ، وكتخطئته للسمع فيما يدركه فى المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى ، وللذوق فى ادراكه الحلو مراً ومثله ، كذا الحال فى الشم واللمس ، ولا ريب فى ان تخطئة النفس الحواس فى هذه الادراكات وحكمها بما هو المطابق الواقع انما يكون مسبوقا بالعلم الذى لا يكون مأخوذاً من الحس ، لأن الحاكم على الشىء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذى هو مناط الحكم مأخوذاً عنه .

ومما يؤكد ذلك انها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها . ومعلوم ان هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادىء أخر .

و(منها) انا نشاهد ان البدن وقواه يضعفان فى افعالها وآثارهما، والنفس تقوى فى ادراكاتها وصفاتها ، كما فى سن الكهولة ، أو يكونان قويين فى الافعال مع كونها ضعيفة فيها كما فى سن الشباب ، فلو كانت جسما أو جسمانية لكانت تابعة لهما فى الضعف والقوة .

(فان قلت) الادراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أو اختلاله كما نشاهد فى المشايخ والمرضى وتجردها ينافى ذلك .

(قلنا) الضعف أو الاختلال انما يحدث فى الادراك والافعال المتعلقة بالقوى الجسمية، واما مايحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها يحصل فيه اختلال وضعف، يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى.

وأما الثانى أعنى بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها ان المجرد لا يتطرق اليه الفساد لانه حقيقة والحقيقة لا تبيد كما صرح به المعلم الأول وغيره ، ووجهه ظاهر .

فصل

(بيان تلذذ النفس وتألمها)

اذا عرفت تجرد النفس وبقاءها أبداً ، فاعلم انها اما ملتذة متنعمة دائما أو معذبة متألمة كذلك . والتذاذها يتوقف على كمالها الذى يخصها ، ولما كانت لها قوتان النظرية والعملية ، فكمال القوة النظرية الاحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والأطلاع على الجزئيات غير المتناهية بادراك كلياتها . والترقى منه إلى معرفة المطلوب الحقيقى وغاية الكل حتى يصل إلى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان . وهذا الكمال هو الحكمة النظرية .

وكمال القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالأخلاق المرضية ثم الترقي منه الى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه . وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها .

وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة ، فلا يتم أحدهما بدون الآخر ، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالماً صغيراً مشابهاً للعالم الكبير ، وهو الإنسان التام الكامل الذي تلألأ قلبه بانوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود .

فصل

(في فضائل الأخلاق ورذائلها)

فضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة الى السعادة الأبدية ، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية . فالتخلي عن الثانية والتحلي بالأولى من أهم الواجبات والوصول الى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات ، فيجب على كل عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق التي هي الأوساط (١) المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطراف ، ولو قصّر أدركته الهلاكة الأبدية ، إذ كما ان الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق لم يخرج الى الدنيا سوياً سميعاً بصيراً ناطقاً ، كذلك من خرج عن طاعة نبي الأحكام المتوسط في الخلق لم يخرج الى عالم الآخرة كذلك .

---

(١) اشارة الى ان الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دعى الشارع الى تحصيل الوسط بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (خير الامور اوسطها) وسيأتي شرح المعنى من الوسط والطرفين .

وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (١) .

ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية ، كما ان المرآة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها ، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له افاضة الصحة ، والثوب ما لم يُنقَّ عن الأوساخ لم يقبل لوناً من الألوان ، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء ، وطلب الرياسة والعلى وإرادة السوء للأقران والشركاء ، وطلب الشهرة فى البلاد وفى العباد ، وأى فائدة فى تزيين الظواهر مع اهمال البواطن .

وَمَثَلُ من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كبئر الحش (٢) ظاهرها جص وباطنها نتن ، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فأخذ يجز رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت ، فان الأخلاق المذمومة فى القلب هى مغارس المعاصى فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة ، أو كمريض به جرب وقد أُمِرَ بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولا ما يزيد فى المادة فلا يزال يطلى الظاهر والجرب يتفجر من المادة التى فى الباطن .

---

(١) الاسراء الآية ٧٢ .

(٢) الحش بالفتح أو الضم ثم التشديد والفتح اكثر من الضم : المخرج وموضع الحاجة واصله من الحش بمعنى البستان ، لانهم كانوا يتغوطون فى البساتين ، فلما اتخذوا الكنف اطلقوا عليها الاسم مجازاً ، فالمراد هنا من بئر الحش خزانة الكنيف .

ثم إذا تخلت عن مساوئ الأخلاق وتحلت بمعاليها على الترتيب العلمى استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب ، ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب ، فترتسم فيها صور الموجودات على ما هى عليها ، على سبيل الكلية ، أى بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع إحاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية ، لعدم تناهيها ، وان علمت فى ضمن الكليات لعدم خروجها عنها . وحينئذ يصير (١) موجوداً تاماً ابدى الوجود سرمدى البقاء ، فائزاً بالرتبة العليا ، والسعادة القصوى ، قابلا للخلافة الإلهية ، والرئاسة المعنويه ، فيصل الى اللذات الحقيقية ، والإبتهاجات العقلية التى ما رأتها عيون الاعيان ، ولم تتصورها عوالى الأذهان .

فصل

(الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف)

الأخلاق المذمومة هى الحجب المانعة عن المعارف الإلهية ، والنفحات القدسية إذ هى بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحال اتضاحا ، كيف والقلوب كالأوانى فاذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وانسه ، والى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « لولا ان الشياطين يحرمون الى قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات والأرض » ، فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الأول (٢) وتلألأ فيها حقائقه

(١) تذكير الضمير باعتبار ارادة الانسان لانه صاحب النفس بل هو هى .

(٢) المراد من الحق الأول هو الله تبارك وتعالى فـكما ان الحق صفة له كذلك الأول فهو صفة بعد صفة .

كما أشار اليه النبي صلى الله عليه وآله : « ان لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » ، فان التعرض لها إنما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الردية (١) فكل اقبال على طاعة واعراض عن سيئة يوجب جلاء ونوراً للقلب يستعد به لافاضة علم يقيني ، ولذا قال سبحانه :

(وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهدِيَنهم سُبُلَنا) (٢)

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » فالقلب اذا صفى عن الكدورات الطبيعية بالكلية يظهر له من المزايا الإلهية والافاضات الرحمانية ما لا يمكن لاعاظم العلماء كما قال سيد الرسل : « إن لى مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل » .

وكل سالك الى الله إنما يعرف من الألطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداده ، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدّق به إيماناً بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدّق بوجودهما ولا نعرف حقيقتها كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمميز من العوام حال العلماء والعلماء حال الأنبياء والأولياء .

فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية مبذولة على الكل غير مضنون بها على أحد ، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية ، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لا يمكن أن يتجلى فيها شيء من الحقائق ، فلا تحجب الأنوار العلمية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك ، بل الإحتجاب إنما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك .

---

(١) المراد من النفحات هى الافاضات المعنوية لا النسمات كما وردت بالمعنى الثاني فى بعض الأخبار .

(٢) العنكبوت الآية : ٦٩ .

ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي النوراني الذي لا يقبل الشك وله غاية الظهور والإنجلاء لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقة الربانية ، وهو المراد بقوله ﷺ : « إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء » والیه أشار مولانا أمير المؤمنين ﷺ بقوله : « ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه » (الى أن قال) : « قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى من الهموم إلا هما واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح ابواب الهدى ومغاليق ابواب الردى ، قد ابصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره ، وقطع غماره (١) ، واستمسك من العرى باوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » وفي كلام آخر له ﷺ « قد أحيى قلبه وأمات نفسه ، حتى دَقّ جليله (٢) ولطف غليظه ، وبرق له لامع كثير البرق ، فابان له الطريق وسلك به السبيل ، وتدافعته الأبواب الى باب السلامة ودار الاقامة ، وتثبت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه » .

وقال ﷺ في وصف الراسخين من العلماء : « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى » وبالجملة ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة إذ

---

(١) غمرة الشيء شدته ومزدحمة جمعه غمرات وغمار وغمر ومنه غمرات الموت أي مكارهه وشدائده .

(٢) الجليل : الكبير في الحجم .

العلم الحقيق عبادة القلب وقربة السر ، وكما لا تصح الصلاة التى هى عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التى هى رذائل الأخلاق وخبائث الصفات ، كيف وفيضان انوار العلوم على القلوب انما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب » ، فاذا كان بيت القلب مشحوناً بالصفات الخبيثة التى هى كلاب نابحة لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة المشرك ، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن ، انما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله عليه وآله وسلم « بنى الدين على النظافة » يتناول زوال النجاستين . وما ورد من أن الطهور نصف الايمان المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق ، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات .

وبما ذكر ظهر ان العلم الذى يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية ، من دون تصقيل لجوهر النفس ، لا يخلو عن الكدرة والظلمة ، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقى الذى يحصل للنفوس الصافية ، فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا انهم على حقيقة اليقين فى معرفة الله سبحانه خلاف الواقع ، لان اليقين الحقيقى يلزمه « روح » (١) ونور وبهجة وسرور ، وعدم الالتفات الى ما سوى الله ، والاستغراق فى ابحر عظمة الله ، وليس شىء من ذلك حاصلا لهم . فما ظنوه يقيناً إما تصديق مشوب بالشبهة ، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء ، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات .

---

(١) هذه الكلمة غير موجودة فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية أخرى

والسر فى ذلك ان منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين فى مقامه ، فكلما تزداد النفس تجرداً تزداد ايماناً ويقيناً ، ولا ريب فى انه ما لم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذى هو مناط حقيقة اليقين فلا بد من المجاهدة العظيمة فى التزكية والتحلية حتى تنفتح ابواب الهداية وتتضح سبل المعرفة كما قال سبحانه :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (١).

فصل

(ان العمل نفس الجزاء)

كل نفس فى بدء الخلقة خالية عن الملكات باسرها ، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الافاعيل والآثار الخاصة به (٢) بيان ذلك أن كل قول أو فعل ما دام وجوده فى الأكوان الحسية لاحظ له من الثبات لان الدنيا دار التجدد والزوال ، ولكنه يحصل منه أثر فى النفس ، فاذا تكرر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة مثاله الحرارة التى تحدث فى الفحم فانها ضعيفة أولا واذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت ، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها ، وكذلك الأحوال النفسانية اذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصوراً باطنة تكون مبادىء الآثار المختصة بها ، فالنفوس الانسانية فى أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة ، واذا استحكمت فيها الأخلاق تعسر قبولها لاضدادها ، ولذلك

---

(١) العنكبوت الآية : ٦٩ .

(٢) هكذا وجدت فى النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والاصح « بها » وان كانت الكلمة غير موجودة فى نسخة خطية اخرى

سهل تعليم الأطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكل صورة وصفة ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها .

ثم لا خلاف فى أن هذه الملكات وافعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والأخيار ، وان كانت ردية كانت مقتضية للالم والعذاب ومصاحبة الشياطين والاشرار ، وإنما الخلاف فى كيفية ايجابها للثواب أو العذاب ، فمن قال ان الجزاء مغاير للعمل قال ان كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد فى الشريعة .

ومن قال ان العمل نفس الجزاء قال ان الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة فى عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها ، إذ كل شئ يظهر فى كل عالم بصورة خاصة ، فان العلم فى عالم اليقظة امر عرضى يدرك بالعقل أو الوهم وفى عالم النوم يظهر بصورة اللبن ، فالظاهر فى العالمين شئ واحد وهو العلم لكنه تجلى فى كل عالم بصورة ، والسرور يظهر فى عالم النوم بصورة البكاء ، ومنه يظهر انه قد يسرك فى عالم ما يسوءك فى عالم آخر ، فاللذات الجسمانية التى تسرك فى هذا العالم تظهر فى دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك ، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك فى عالم الآخرة مع كونها مؤذية فى هذا العالم .

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك ان كانت من فضائل الأخلاق أو فواضل الأعمال واسم الشيطان ان كانت من اضدادها وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالها ، وعلى الثانية اسم الحيات والعقارب واشباهها ، ولا فرق بين الاطلاقين فى المعنى . وإنما الاختلاف فى الاسم .

وهذا المذهب يرجع الى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفرحة أو صورة موحشة معذبة ، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة : منها: ما روى اصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : يا قيس ، إن مع العز ذلا ومع الحياة موتاً ومع الدنيا آخرة ، وان لكل شئ رقيباً وعلى كل شئ حسيباً ، وان لكل أجل كتاباً ، وانه لابد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت ، فان كان كريماً أكرمك ، وان كان لئيما ألأمك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه ، فلا تجعله إلا صالحاً : فانه إن صلح أنست به وان فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك ، . ومنها: ما استفاض من قولهم عليهم السلام ، ان من فعل كذا خلق الله تعالى ملكا يستغفر له الى يوم القيامة ، . ومنها: ما ورد ، ان الجنة قيعان وغراسها سبحان الله ، : ومنها ما روى ، ان الكافر خاق من ذنب المؤمن ، ومنها: قولهم ، المرء مرهون بعمله ، . ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ، الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة انما يجرى فى بطنه نار جهنم ، ويدل عليه قوله سبحانه :

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ) (١) .

وربما كان فى قوله تعالى :

(ولا تُجزَوْنَ إلا ما كُنْتُمْ تَعمَلونَ) (٢) وقوله تعالى :

(إنَّما تُجزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعمَلونَ) (٣) .

إشارة اليه حيث قال عز وجل (ما كنتم) ولم يقل بما كنتم .

(١) التوبة الآية : ٤٩

(٢) يس الآية : ٥٤

(٣) الطور الآيه : ١٦

وقال : فيثاغورس الحكيم ، ستعارض لك فى أفعالك وأقوالك وأفكارك (١) وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية ، فان كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك فى حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك ، وان كانت الحركة عقلية صارت ملكا تلتذ بمنادمته فى دنياك وتهتدى به فى أخراك الى جوار الله وكرامته ، انتهى .

وهذه الكلمات صريحة فى أن مواد الأشخاص الأخروية هى التصورات الباطنية والنيات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصور روحانية وجودها وجود إدراكى ، والانسان اذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرته الى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة ، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت الى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه :

(وإذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) (٢) وقوله تعالى : (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ اليومَ حَدِيدٌ) (٣) صار ادراكه فملأ وعلمه عيناً وسره عياناً ، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله ، ويرى نتائج انظاره وأفعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته ، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته ، ويدرك حقيقة قوله سبحانه :

وَكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً ﴿ اقرأ كِتابَكَ كَفى بِنفسِكَ

(١) هكذا وجدنا العبارة فى النسخة الخطية والمطبوعة ولا يخفى ما فيها من الاجمال .
(٢) التكوير الآية ١٠   (٣) ق الآية ٢٢

اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) (١) .

فمن كان فى غفلة عن أحوال نفسه ومضيعاً لساعات يومه وأمسه يقول :

(ما لِهٰذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إلّا أحصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحداً) (٢) (يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أمَداً بَعيداً) (٣) .

وقد أيد هذا المذهب أعنى صيرورة الملكات صوراً روحانية باقية أبد الدهر موجبة للجبهة والالتذاذ والتوحش والتألم ، بانه لو لم تكن تلك الملكات والنيات باقية ابداً لم يكون للخلود فى الجنة أو النار وجه صحيح ، إذ لو كان المقتضى للثواب أو العذاب نفس العمل والقول ، وهما زائلان لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل ، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية فى زمان قصير ، فاذاً منشأ الخلود هو الثبات فى النيات والرسوخ فى الملكات ، ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره فى صحيفة نفسه أو فى صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبداً كما قال سبحانه :

(في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بأيْدي سَفَرَةٍ) (٤) .

والسر فيه أن الأمر الذى يبقى مع النفس الى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها فى دار التكليف يبقى معها أبداً ولا يرتفع عنها أصلا لعدم

(١) الاسراء الآية ١٣ – ١٤　　(٢) الكهف الآية ٤٩
(٣) آل عمران الآية ٣٠　　(٤) عبس الآية ١٣ – ١٥

تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقته عن عالم التكليف .

ثم الظاهر ان هذا المذهب ـ عند من قال به من أهل الشرائع ـ بيان لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع اذعانه بالجنة والنار الجسمانيين ، إذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنات والقصور والغلمان والحور والنار والجحيم والزقوم والضريع وساير ما ورد فى الشريعة القادسةمن امور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين .

﴿ تنبيه ﴾ الدنيا والآخرة متضادتان ، وكل ما يقرب العبد الى احداهما يبعد عن الأخرى وبالعكس ، كما دلت عليه البراهين الحكمية والشواهد الذوقية والأدلة السمعية ، فكل ملكة أو حركة أو قول أو فعل يقرب العبد الى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور ، وبالعكس ، فأسوأ الناس حالا من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء العاقبة وأفنى عمره فى طلب الدنيا واصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع ، ورئاسة أو جمع المال من غير تصور لما يصل اليه من فائدته ، كما هو عادة اكثر ابناء الدنيا ، ولم يعرف غير هذه الامور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال الصالحة المقربة الى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده فى الدنيا ، ولا يرجو بعدالموت ثواب عمل ، ولا جزاء فعل ، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون ويؤمله المتقون من الخير الدائم ، واللذات المخالفة لهذه اللذات الفانية التى يشارك فيها السباع والبهائم ، فاذا أدركه الموت مات على حسرة وندامة آيساً من رحمة الله قائلا :

(يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطتُ في جَنْبِ اللهِ) (١) .

أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة .

---

(١) الزمر الآية ٥٦ .

فصل

تأثير المزاج على الأخلاق

للمزاج مدخلية تامة في الصفات : فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعد لبعض الأخلاق ، وبعضها مقتض لخلافه ، فانا نقطع بان بعض الأشخاص بحسب جبلته ، ولو خلى عن الأسباب الخارجية ، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بادنى سبب ، ويضحك بادنى تعجب ، وبعضهم بخلاف ذلك . وقد يكون اعتدال القوى فطرياً بحيث يبلغ الانسان كامل العقل ، فاضل الأخلاق غالبة قوته العاقلة على قوتى الغضب والشهوة ، كما فى الأنبياء والأئمة عليهم السلام . وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردى الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة ، كما فى بعض الناس.

إلا أن الحق - كما يأتى - امكان زوالها بالمعالجات المقررة فى علم الأخلاق ، فيجب السعي فى إزالة نقائصها وتحصيل فضائلها . وعجباً لأقوام يبالغون فى اعادة الصحة الجسمانية الفانية ، ولا يجتهدون فى تحصيل الصحة الروحانية الباقية ، يطيعون قول الطبيب المجوسى فى شرب الأشياء الكريهة ومزاولة الأعمال القبيحة ، لأجل صحة زائلة ، ولا يطيعون امر الطبيب الإلهى لتحصيل السعادة الدائمة .

وبقاء النفس على النقصان إما لعدم صرفها الى طلب المقصود لملابسة العوائق والموانع ، أو مزاولة النقيض لتمكن موجبة ، أو لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة ، أو لضعف القوة العاقلة ، فان لم تدركها العناية الإلهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذى خلق لأجله ، الى ان تدركها الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية ، نعوذ بالله من ذلك ، وإن ادركته

الرحمة الأزلية ، فيصرف همه فى ازالة النقائص ، واكتساب الفضائل ، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من الكمال الى فوقها ، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال ، ويتشرف بجوار الرب ، المتعال ويصل الى السرور الحقيق ، الذى لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والى قرة الاعين التى يشير اليها فى قوله سبحانه :

(فلا تَعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهُم مِن قُرَّةِ أعيُنٍ) (١) .

فصل

تأثير التربية على الأخلاق

الخلق عبارة عن « ملكة للنفس مقتضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج الى فكر وروية ، والملكة : كيفية نفسانية بطيئة الزوال . وبالقيد الاخير خرج الحال لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال ، وسبب وجود الخلق إما المزاج كما مر ، أو العادة بان يفعل فعلا بالروية ، أو التكلف ويصبر عليه الى أن يصير ملكة له (٢) ويصدر عنه بسهولة وان كان مخالفاً لمقتضى المزاج .

واختلف الأوائل فى امكان ازالة الأخلاق وعدمه ، وثالث الأقوال أن بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غير طبيعي حاصل من اسباب خارجة يمكن زواله . ورجح المتأخرون الأول وقالوا : ليس شيء من الأخلاق طبيعياً ولا مخالفاً للطبيعة ، بل النفس بالنظر الى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفي التضاد ، إما بسهولة ان كان موافقاً للمزاج ، أو بعسر ان كان مخالفاً له ،

---

(١) السجدة الآية ١٧ .

(٢) ما بين القوس فى الموضع غير موجود فى نسختنا الخطية لكنه موجود فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة .

فاختلاف الناس فى الأخلاق لاختلافهم فى الاختيار والمزاولة لاسباب خارجة .

﴿ حجة القول الأول ﴾ أن كل خُلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبيعياً فينتج لا شيء من الخُلق بطبيعى والكبرى بديهية ، والصغرى وجدانية ، فانا نجد أن الشرير يصير بمصاحبته الخيّر خيراً ، والخيّر بمجالسته الشرير شريراً . ونرى أن التأديب « فى السياسات » (١) ، فيه أثر عظيم فى زوال الأخلاق ، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت الشرائع والديانات ، ولما قال الله سبحانه : (قد أفلح من زكاها) (٢) ، ولما قال النبى صلى الله عليه وآله : حسنوا اخلاقكم ، ولما قال : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ورد : بمنع كلية الصغرى فانا نشاهد ان بعض الأخلاق فى بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظريه ، كالحدس والتحفظ ، وجودة الذهن ، وحسن التعقل ، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة ، فانه لا ينجح سعيهم فى التبديل مع مبالغتهم فى المجاهدة .

وما قيل : من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود : بان هذا اللزوم إذا لم يكن شىء من الأخلاق قابلا للتغيير ، وأما مع قبول بعضها أو اكثرها له فلا يلزم شىء مما ذكر ، ولو كان عدم قبول بعض الأخلاق للتغيير موجباً لبطلان علم الشرائع والأخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضياً لبطلان علم الطب ، مع انا نعلم بديهة ان بعض الأمراض لا يقبل العلاج .

(١) ما بين القوس فى الموضعين غير موجود فى نسختنا الخطية لكنه موجود فى نسخة خطيه اخرى وفى المطبوعة .
(٢) الشمس الآية : ٩

(وحجة القول الثانى) ان الأخلاق باسرها تابعة للمزاج ، والمزاج لا يتبدل ، واختلاف مزاج شخص واحد فى مراتب سنة لا ينافى ذلك ، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج ، وأيدّ ذلك بقوله ﷺ :

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام) وبقوله ﷺ : (اذا سمعتم ان جبلا زال عن مكانه فصدقوه، واذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه، فانه سيعود الى ما جُبِل عليه).

و (الجواب) ان توابع المزاج من المقتضيات التى يمكن زوالها لا من اللوازم التى يمتنع انفكاكها ،لما ثبت فى الحكمة من أن النفوس الانسانية متفقة فى الحقيقة ، وفى بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والأحوال كما هو شأن العقل الهيولانى . ثم ما يحصل لها منهما أما من مقتضيات الاختيار والعادة أو استعدادات الأبدان والأمزجة ، والمقتضى ما يمكن زواله كالبرودة للماء ،لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجية للأربعة. والخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه . والثانى مع عدم ثبوته عندما يدل على خلاف مطلوبهم ، لان قوله : (سيعود الى ما جبل عليه) يفيد امكان ازالة الخلق بالأسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرهما ، وبعد إزالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التى تزول ببعض الأسباب وتعود بعد زوال السبب ، فلو دام على حفظ الأسباب وابقائها لم يحصل العود أصلا .

وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل . يعنى قبول بعض الأخلاق بل اكثرها بالنسبة الى الاكثر التبديل للحس والعيان، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ولامكان تغير خلق البهائم ، إذ ينتقل الصيد من التوحش الى الأنس والفرس من الجماح الى الانقياد والكلب من الهراشة الى التأدب ، فكيف لا يمكن فى حق الانسان ، وعدم قبول بعضها بالنسبة الى

البعض له ، للمشاهدة والتجربة . وهذا البعض مما لا يكون متعلق التكليف كالأخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها.
والتصفح يعطى اختلاف الأشخاص والأخلاق فى الازالة والاتصاف بالضد بالامكان والتعذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة ، ولذا لو تصفحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين فى جميع الأخلاق ، كما لا تجد اثنين متماثلين فى الصورة . ويشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وآله : « اعملوا فكل ميسّر لما خلق له » .

وقال ارسطاطاليس : « يمكن صيرورة الاشرار اخياراً بالتأديب إلا أن هذا ليس كلياً ، فانه ربما أثر فى بعضهم بالزوال وفى بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلا » .

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلا واماطتهما بالكلية فان ذلك محال لانهما مخلوقتان لفائدة ضرورية فى الجبلة ، إذ لو انقطع الغضب عن الانسان بالكلية لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار ، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته ، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل ، بل المراد ردهما من الافراط والتفريط الى الوسط فالمطلوب فى صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور ، والاتصاف بحسن الحمية ، وهو ان يحصل إذا استحسن حصوله شرعاً وعقلا ، ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك . وكذا الحال فى صفة الشهوة .

ولا ريب فى أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا وجدت فيه قوة الكمال الى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد ، فكما أن النواة يمكن أن تصير نخلا بالتربية ، لوجود قوة النخلية فيه ، وتوقف فعليتها على شرط التربية التى بيد العبد ، فكذلك يمكن تعديل قوتى الغضب

والشهوة بالرياضة والمجاهدة ، لوجود قوة التعديل فيهما ، وتوقف فعليتهما على شرط ارتبط باختيار العبد أعنى الرياضة والمجاهدة . وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية ، كما لا يمكن لنا اعدام شئ من الموجودات . ولا ايجاد شئ من المعدومات .

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة الى الأشخاص والأخلاق ، ولذا ترى ان التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسات والتأديب ، فيمكن ان لا يرتفع مذموم ُخلق بمرتبة من التأديب ، ويرتفع بمرتبة منه فوقها ، والأسهل قبول لكل ُخلق الأطفال لخلو نفوسهم عن الأضداد المانعة من القبول ، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة ، وصونهم عن ارتكاب الأعمال القبيحة ، حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل ، وارتكاب الفضائل ، والمؤدب الأول هو الناموس الإلهى ، والثانى أولو الأذهان القويمة من أهل المعارف الحقة ، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا ، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانياً .

فصل

شرف علم الاخلاق لشرف موضوعه وغايته

لما عرفت أن الحياة الحقيقية للانسان تتوقف على تهذيب الأخلاق الممكن بالمعالجات المقررة فى هذه الصناعة ، تعرف انها أشرف العلوم وانفعها لان شرف كل علم انما هو بشرف موضوعه أو غايته ، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الانسان واصلاحه على جلود البهائم ، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التى هى حقيقه الانسان ولبّه ، وهو أشرف الأنواع الكونية كما برهن عليه فى العلوم العقلية ، وغايته اكمال

وإيصاله من أول افق الانسان الى آخره ، ولكونه ذا عرض عريض متصلا أوله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة ، لا يكاد أن يوجد التفاوت الذى بين اشخاص هذا النوع فى افراد سائر الأنواع ، فان فيه أخس الموجودات ومنه اشرف الكائنات كما قيل :

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عُدَّ الف بواحد

وبالفارسية :

اى نقد أصل وفرع ندانم چه گوهرى كز آسمان بلندتر واز خاك كمترى

والى ذلك التفاوت يشير قول سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « إنى وزنت بأمتى فرجحت بهم ، ولا ريب فى أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف فى الأخلاق والصفات ، لاشتراك الكل فى الجسمية ولواحقها .

وهذا العلم هو الباعث للوصول الى أعلى مراتبها ، وبه تتم الانسانية ، ويعرج من حضيض البهيمية الى ذرى الرتب الملكية ، وأى صناعة أشرف مما يوصل أخس الموجودات الى أشرفها ، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه ، ويسمونه بالاكسير الأعظم ، وكان أول تعاليمهم ، ويبالغون فى تدوينه وتعليمه ، والبحث عن اجماله وتفصيله ، ويعتقدون ان المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم .

وكما أن البدن الذى ليس بالنقى كلما غذوته فقد زدته شراً ، فكذلك النفس التى ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فساداً . ولذا ترى اكثر المتشبهين بزى العلماء اسوأ حالاً من العوام مائلين عن وظائف الايمان والاسلام ، إما لشدة حرصهم على جمع المال ، غافلين عن حقيقة المآل ، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب ، ظناً منهم انه ترويج للدين والمذهب ، أو لوقوعهم فى الضلالة والحيرة لكثرة الشك والشبهة ،

أو لشوقهم الى المراء والجدال فى اندية الرجال ، اظهاراً لتفوقهم على الأقران والأمثال ، أو لاطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر العلماء وأعاظم الحكماء ، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة ، ظناً منهم أنه مقتضى قواعد الحكمة ، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية ، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال ، ولم يتفطنوا قول نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم : « قصم ظهرى رجلان ، عالم متهتك ، وجاهل متنسك » ولم يتذكروا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « البلاهة أدنى الى الاخلاص من فطانة بتراء » وكل ذلك ليس إلا لعدم سعيهم فى تهذيب الأخلاق وتحسينها وعدم الامتثال لقوله سبحانه :

وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا(١) .

فصل

(النفس واسماؤها وقواها الأربع)

ما عرفت من تجرد النفس انما هو التجرد فى الذات دون الفعل لافتقارها فعلا الى الجسم والآلة ، فحدّها أنها جوهر ملكوتى يستخدم البدن فى حاجاته ، وهو حقيقة الانسان وذاته ، والأعضاء والقوى آلاته التى يتوقف فعله عليها ، وله اسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمى (روحاً) لتوقف حياة البدن عليه و (عقلا) لادراكه المعقولات و (قلباً) لتقلبه فى الخواطر ، وقد تستعمل هذه الألفاظ فى معان اخرى تعرف بالقرائن

وله قوى أربع : قوة عقلية ملكية ، وقوة غضبية سبعية ، وقوة شهوية بهيمية ، وقوة وهمية شيطانية . و (الأولى) شأنها إدراك حقائق

(١) البقرة الآية ١٢٩ .

الأمور ، والتمييز بين الخيرات والشرور ، والأمر بالأفعال الجميلة ، والنهى عن الصفات الذميمة و (الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء ، والتوثب على الناس بانواع الأذى . و (الثالثة) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية البهائم من عبودية الفرج والبطن ، والحرص على الجماع والأكل . و (الرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل ، والتوصل الى الأغراض بالتلبيس والخدع .

والفائدة فى وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذى هو آلة تحصيل كمال النفس ، وفى وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية ، ويقهرهما عند انغمارهما فى الخداع والشهوات ، واصرارهما عليهما ، لانهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة ، بخلاف الغضبية فانهما تطيعانها و تتأدبان بتأديبها بسهولة .

ولذا قال افلاطون فى صفة السبعية والبهيمية : « أما هذه أى السبعية فهى بمنزلة الذهب فى اللين والانعطاف ، وأما تلك أى البهيمة فهى بمنزلة الحديد فى الكثافة والامتناع ، وقال ايضاً : « ما أصعب أن يصير الخائض فى الشهوات فاضلا ، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية فى إيثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة ، والحمية حتى يقهرهما ، فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فان لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما ، وحينئذ لا يرجى صلاحه ، وإلا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله ، فان سبل الخيرات مفتوحة ، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (١) .

والفائدة فى القوة الوهمية إدراك المعانى الجزئية ، واستنباط الحيل

---

(١) العنكبوت الآية : ٦٩ .

والدقائق التى يتوصل بها الى المقاصد الصحيحة .

وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة ، ومباينة للقوى الثلاث الأُوَل ، وشأن الاولى ادراك المعانى الجزئية ، وشأن الثانية إدراك الصور ، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما . وكل من مدركاتها إما مطابق للواقع ، أو مخترع من عند انفسها من غير تحقق له فى نفس الأمر ايضاً ، واما من مقتضيات العقل والشريعة ، ومن الوسائل الى المقاصد الصحيحة ، أو من دواعى الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة ، وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكمالا ، وان كان وجودها على الثانى شراً وفساداً . والحال فى جميع القوى كذلك .

هذا وقيل : ما ورد فى القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء ، اشارة الى القوى الثلاث اعنى العاقلة والسبعية والبهيمية .

والحق انها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها ، فاذاغلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر ، وصارت منقادة لها مقهورة منها ، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت « مطمئنة » ، لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهى ، وميلها الى ملائماتها التى تقتضى جبلتها ، واذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع ، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصى حصلت للنفس لوم وندامة سميت « لوامة » . واذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت « امارة بالسوء » لانه لما اضمحلت قوتها العاقلة واذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة ، فكأنما هى الآمرة بالسوء .

ثم مَثلُ اجتماع هذه القوى فى الانسان كمثل اجتماع ملك ، أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان فى مربط واحد . وكان بينها منازعة ، وأيها صار غالباً كان الحكم له ، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته ، فكان

إهاب الانسان وعاء اجتمع فيه هذه الاربع ، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة ، والكلب هو القوة الغضبية ، فان الكلب ليس كلباً ومذموماً للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية اعنى الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح ، والقوة الغضبية موجبة لذلك ، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة ، وان اطلق عليه اسم الانسان مجازاً ، والخنزير هو القوة الشهوية ، والشيطان هو القوة الوهمية ، والتقريب فيهما كما ذكر ، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها الى أن يغلب أحداها ، فالغضبية تدعوه الى الظلم والإيذاء ، والعداوة والبغضاء ، والبهيمية تدعوه الى المنكر والفواحش ، والحرص على المآكل والمناكح ، والشيطانية تهيّج غضب السبعية وشهوة البهيمية ، وتزيد (١) فعلهما ، وتغرى احداهما بالاخرى ، والعقل شأنه ان يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها ، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها ، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ، ونورانيته الباهرة ، فان غلب على الكل بجعلها مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل إلا باشارته جرى الكل على المنهج الوسط ، وظهر العدل فى مملكة البدن ، وان لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلايزال الكلب فى العقر والإيذاء ، والخنزير فى المنكر والفحشاء ، والشيطان فى استنباط الحيل ، وتدقيق الفكر فى وجوه المكر والخدع ، ليرضى الكلب ويشبع الخنزير ، فلا يزال فى عبادة كلب عقور ، أو خنزير هلوع أو شيطان عنود ، فتدركه الهلاكة الأبدية ، والشقاوة السرمدية ، إن لم تغثه العناية الإلهية ، والرحمة الأزلية .

وقد يمثل اجتماع هذه القوى فى الانسان براكب بهيمة طالب للصيد

(١) وفى نسختنا الخطية هكذا « تزين » .

يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق ، فالراكب هو العقل ، والبهيمة هى الشهوة ، والكلب هو الغضب ، والعين هو القوة الوهمية التى هى من جواسيس الشيطان ، فان كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده ، وان كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد ، واقتحامه فى موارد الهلكات ، وان كان الكل تحت نهى العين وامره ، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم الى أيدى السارقين .

وكذلك لو كانت القوى باسرها تحت اشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين الكل ، وصار الجميع كالواحد . لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلا منها فى المواضع اللائقة والأوقات المناسبة ، فيصدر عن كل منها ما خُلق لأجله ، على ما ينبغى من القدر والوقت والكيفية ، فتصلح النفس وقواها .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (١) .

ولولم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى ، ويتزايد ذلك الى أن يؤدى الى اختلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوباً فتهلك النفس وقواها .

وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها (٢) .

﴿ تتميم ﴾ لما تبين أن للنفس اربع قوى متخالفة ، ولها قوى آخر ايضاً كما تبين فى العلم الطبيعى ، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل فى النفس اختلاف عظيم ، والاختلاف فى النفوس انما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة . إذ هى فى بدو فطرتها خالية عن

(١) الشمس الآية ٩ (٢) الشمس الآية ١٠

جميع الأخلاق والملكات ، وليس لها فعلية ، بل هى محض القوة ، ولذا ليس لها قوام بذاتها وإنما تتقوم بالبدن ، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والأخلاق ، وترتسم بالصور والأعمال الى أن تتقوم بها ، وتصل الى ما خلقت لأجله .

ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب أحداها لم تدخل النفس فى عالمه (١) الذى تخصه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة الى أن يغلب احداها فتظهر فى النفس آثاره ويدخل فى عالمه الخاص .

ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة ، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من افق السباع ، والشهوية من عالم البهائم ، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس اما ملكاً أو شيطاناً أو كلباً أو خنزيراً ، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرمان العقل ظهر فى مملكة النفس احكامه وآثاره ، وانتظمت احوالها ، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها .

ثم المنشأ للتنازع والتجرد والبقاء فى نفس الانسانية انما هو قوتها العقلية لأن التدافع انما بينها وبين سائر القوى ، فليس فى نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجاذب وان اختلفت فى غلبة ما فيها من القوى ، فان الغلبة فى الشياطين للواهمة ، وفى السباع للغضب ، وفى البهائم للشهوة ، وأما الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع . فالجامع لعوالم الكل هو الانسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة ، ولذلك صار مظهراً للأسماء المتقابلة الإلهية ، وقابلا للخلافة الربانية ، وقائماً بعمارة عالمى الصورة والمعنى .

---

(١) فى نسختنا الخطية هكذا « فى عالمه التى تخصها » .

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الاشراقات العلمية ، وتوابعها من اللذات العقلية ، إلا انه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها والأجسام الفلكية وان كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة ، والكيفيات المتباينة ، وليس لها سير فى المدارج المتخالفة ، والمراتب المتفاوتة ، ولا تقلّب فى أطوار النقص والكمال ، ولا تحوّل فى جميع التقاليب والأحوال ، بخلاف الانسان فانه محيط بجميع المراتب المختلفة ، وسائر فى الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية والملكية ، وله الترقى عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن افق الملائكة ، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت ، والمعجون المركب من عالمى الأمر والخلق ، قال امير المؤمنين ﷺ « إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب ، وخص الحيوانات بهما دونه وشرّف الانسان باعطاء الجميع ، فان انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لوصوله الى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم » .

وصل

قد ظهر بما ذكر أن الانسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة ، وذو جنبة جسمانية يشابه بها السباع والأنعام ، فبالجزء الجسمانى أقيم فى هذا العالم الحسى مدة قصيرة ، وبالجزء الروحانى ينتقل الى العالم العلوى ، ويقيم فيه أبداً فى مصاحبة الأرواح القدسية ، بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة ، حتى يغلب الجزء الروحانى على الجسمانى ، وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة ، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم

بحقائق الأشياء والانس بالله تعالى والحب له والتحلي بفضائل الصفات . وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الإلهي ويزيد ذلك بحسب دفع العلائق الجسمية ، حتى اذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها ، وازيلت عنه استار العوائق الهيولانية برمتها ، خلي عن جميع الآلام والحسرات ، وكان ابداً مسروراً بذاته ، مغتبطاً بحاله ، مبتهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الأزل ، ولا يُسرّ إلا بتلك اللذات ، ولا يغتبط إلا بها ، ولا يهش إلا باظهار الحكمة الحقة بين أهلها ، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه ، ولا يبالي بمفارقة الدنيا وما فيها ، ويرى جسمه وما له وجميع خيرات الدنيا وبالاً وكلاً عليه إلا ما هو ضروري يحتاج اليه بدنه الذي يفتقر اليه في تحصيل كماله ، ويحن أبداً الى مصاحبة الذوات النورية ، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه ، ولا يتعرض إلا لما يقربه اليه ، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية ، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت الى شيء يعوقه عن سعادته ، ولا يحزن على فقد محبوب ، ولا فوت مطلوب ، واذا صفي من الأمور الطبيعية بالكلية زالت عنه العوارض النفسانية ، والخواطر الشيطانية بأسرها . وفني عنه إرادته المتعلقة بالأمور الخارجة . وحينئذ يمتلي من المعارف الإلهية ، والشوق الإلهي والبهجة الإلهية ، والشعار الإلهي ، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه ، بل يكون علمه بها أشد إشراقاً وظهوراً من علمه بها . واذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول الى المرتبة القصوى ، ومجاورة الملأ الأعلى ، فيصل الى ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويفوز بما اشير اليه في الكتاب الإلهي بقوله :

فَلا تَعلَمُ نَفسٌ ما أُخفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أعيُنٍ (١) .

فصل

الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها

اعلم ان الغاية فى تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول الى الخير والسعادة . والسلف من الحكماء قالوا : إن ﴿ الخير ﴾ على قسمين مطلق ومضاف ، والمطلق هو المقصود من ايجاد الكل ، إذ الكل يتشوقه وهو غاية الغايات ، والمضاف ما يتوصل به الى المطلق . و ﴿ السعادة ﴾ هو وصول كل شخص بحركته الإرادية النفسانية الى كماله الكامن فى جبلته . وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة أن الخير لا يختلف بالنسبة الى الأشخاص والسعادة تختلف بالقياس اليهم .

ثم الظاهر من كلام ارسطاطاليس أن الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معداً لتحصيلها كالتعلم والصحة ، أو نافعاً فيه كالمكنة والثروة

وأما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة الى النفوس فقط ، وقالوا ليس للبدن فيها حظ ، فحصروها فى الأخلاق الفاضلة ، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الانسان هى النفس الناطقة والبدن آلة لها ، فلا يكون ما يعد كمالا له سعادة للانسان . وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة الى الشخص حيث التركيب ، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه ، لأن كل ما يلائم جزءاً من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة اليه ، مع انه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والبخت المسعود ، وغير ذلك مما لا يرجع الى النفس ، ولذا قسموا السعادة الى ما يتعلق بالبدن من

(١) السجدة الآية : ١٧ .

حيث هو كالصحة واعتدال المزاج ، والى ما يتوصل به الى افشاء العوارف ، ومثله بما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الأعوان ، والى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة ، والى ما يتعلق بانجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل ، والى ما يرجع الى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية . وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة ، وبقدر النقصان فيها تنقص. قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة ، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عبادة من المواهب العالية ، والاشراقات العلمية ، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر .

ثم الأقدمون لذهابهم الى نفى السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن ، وملوثة بالكدورات الطبيعية ، والشواغل المادية ، بل حصولها موقوف عنها ، لأن السعادة المطلقة لا تحصيل لها ما لم تصر مشرقة بالاشراقات العقلية ، ومضيئة بالأنوار الإلهية ، بحيث يطلق عليها اسم التام ، وذلك موقوف على تخلصها التام عن الظلمة الهيولانية ، والقصورات المادية .

واما المعلم الأول واتباعه فقالوا إن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضاً ، لبداهة حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها ، واشتغل بتكميل غيره . وما أقبح أن يقال مثله ناقص واذا مات يصير تاماً ، فالسعادة لها مراتب ، ويحصل للنفس الترقى فى مدارجها بالمجاهدة الى أن تصل الى أقصاها وحينئذ يحصل تمامها وإن كان قبل المفارقة ، وتكون باقية بعدها ايضاً .

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الاسلام قالوا ان السعادة فى الأحياء لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن ، وأذناها ان تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل ، إلا أن الشوق الى الثانية ، والحرص على

اكتسابها يكون أغلب ، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما فى الثانية أكثر ، إلا انه قد يقع الالتفات الى هذا العالم وتنظيم أمورة بالعرض . . .

وأما فى الأموات فيختص بما يتعلق بالنفس فقص لاستغنائهم عن الامور البدنية ، فتختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة ، والعلوم الحقـــة اليقينية ، والوصول الى مشاهدة جمال الأبد ، ومعاينة جلال السرمد . وقالوا إن الاولى لشوبها بالزخارف الحسية ، والكدورات الطبيعية ناقصة كدرة ، وأما الثانية فلخلوها عنها تامة صافية ، لأن المتصف بها يكون أبداً مستنيراً بالأنوار الإلهية ، مستضيئاً بالأضواء العقلية ، مستهتراً (١) بذكر الله وانسه، مستغرقاً فى بحر عظمته وقدسه ، وليس له التفات الى ما سوى ذلك ، ولا يتصور له تحسر على فقد لذة أو محبوب ، ولا شوق الى طلب شيء مرغوب ، ولا رغبة الى أمر من الامور ، ولا رهبة من وقوع محذور ، بل يكون منصرفاً بجزئه العقلى مقصوراً همه على الامور الإلهية من دون التفات الى غيرها

وهذا القول ترجيح لطريقه المعلم الأول من حيث اثبات سعادة للبدن، ولطريقة الأقدمين من حيث نفى حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن . وهو ﴿ الحق المختار ﴾ عندنا ، إذ لا ريب فى كون ما هو وصلة الى السعادة المطلقة سعادة اضافية . . ومعلوم أن غرض القائل يكون متعلقات الأبدان كالصحة والمال والأعوان سعادة انها سعادة إذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقاً ، إذ لا يقول عاقل إن الصحة الجسمية ، والحطام الدنيوى سعادة ، ولو جعلت وسيلة الى اكتساب سخط الله وعقابه ، وحاجبة عن الوصول الى دار كرامته وثوابه . وكذا لا ريب فى أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة فى سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلى ، ولا تنكشف

(١) مستهتراً به على بناء اسم المفعول أى مولع به لا يتحدث بغيره .

لها الحقائق كما هى عليه انكشافا تاماً ، ولا تصل الى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية . ولو حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون فى آن واحد ويمر كالبرق الخاطف .

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع أن حقيقة الخير والسعادة ليست إلا المعارف الحقة ، والأخلاق الطيبة ، والأمر وإن كان كذلك من حيث ان حقيقتهما ما يكون مطلوباً لذاته ، وباقياً مع النفس أبداً وهما كذلك ، إلا انه لا ريب فى ان ما يترتب عليهما من حب الله وانسه ، والابتهاجات العقلانية ، واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الإعتبار ، وان لم ينفك عنهما ، ومطلوبيته لذاته أشد وأقوى ، فهو باسم الخير والسعادة أولى وأحرى ، وإن كان الجميع خيراً وسعادة . وبذلك يحصل الجمع بين أقوال أرباب النظر والاستدلال ، وأصحاب الكشف والحال ، واخوان الظاهر من أهل المقال ، حيث ذهبت (الفرقة الاولى) الى ان حقيقة السعادة هو العقل والعلم ، و (الثانية) الى انها العشق ، و (الثالثة) الى انها الزهد ، وترك الدنيا .

فصل

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائما

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً ، فلا تحصل باصلاحها بعضاً دون بعض ، ووقتاً دون وقت ، كما ان الصحة الجسمية ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن لا تحصل إلا باصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف فى جميع الأوقات ، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الأحوال والأزمان ، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن ، ولا شكره بورود النوائب والمحن ، ولا يقينه

بكثرة الشبهات ، ولا رضاه بأعظم النكبات ، ولا احسانه بالاساءة ، ولا صداقة بالعداوة . وبالجملة لا يحصل التفاوت فى حاله ، ولو ورد عليه ما ورد على ايوب النبي ﷺ أو على برناس الحكيم ، لشهامة ذاته ، ورسوخ أخلاقه وصفاته ، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة ، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة . بل السعيد الواقعى لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية ، متعال عن تأثير الكواكب والاجرام الأثيرية فلا يتأثر عن سعدها ونحسها ، ولا ينفعل عن قمرها وشمسها . أهل التسبيح والتقديس لا يبالون بالتثليث والتسديس ، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الاقتدار على التصرف فى مواد الكائنات ، ولو فى الأفلاك وما فيها ، كما حصل لفخل الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهما وآلهما من شق القمر وردّ الشمس .

وقد ظهر مما ذكر ان من يجزع بورود المصائب الدنيوية ، ويضطرب من الكدورات الطبيعية ، ويدخل نفسه فى معرض شماتة الأعداء وترحم الأحباء ، خارج عن زمرة السعداء ، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته ، وعدم نيله بعد الى الابتهاجات التي تدفع عن النفس امثال ذلك .

ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهراً بالسعداء لكان فى الباطن متألماً مضطرباً ، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية انما هو صيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهراً وباطناً . بلغنا الله وجميع الطالبين الى هذا المقام الشريف .

وصل

غاية السعادة التشبه بالمبدأ

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الانسان فى صفاته

بالمبدأ : بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلا ، لا لغرض آخر من جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة خيراً محضاً ، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية ، والأقذار الحيوانية . ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية ، والخواطر النفسانية ، ويمتلىء من الأنوار الإلهية . والمعارف الحقيقية ، ويتيقن بالحقائق الحقة الواقعية ، ويصير عقلا محضاً بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الأولية ، بل يصير ظهورها أشد ، وانكشافها أتم ، وحينئذ يكون له اسوة حسنة بالله سبحانه ، في صدور الأفعال وتصير إلهية أي شبيهة بأفعال الله سبحانه في أنه لصرافة حسنه يقتضي الحسن ، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي ، فتكون ذاته غاية فعله ، وفعله غرضه بعينه ، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فانما يصدر لأجل ذاته ، وذات الفعل وان ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثاني وبالعرض . قالوا واذا بلغ الانسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهية ، واللذة الحقيقية الذاتية ، فيشمئز طبعه من اللذات الحسية الحيوانية ، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم انها لذّة ذاتية . والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودثورها وكونها دفع ألم وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل .

فصل

بازاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم

لمّا عرفت أن القوى في الانسان اربع : قوة نظرية عقلية ، وقوة وهمية خيالية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة بهيمية شهوية - فاعلم انه بازاء كل واحدة منها لذة وألم ، لأن اللذة ادراك الملائم ، والألم ادراك غير الملائم ،

فلكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعه الذى خلق لأجله ، وألم هو ادراكه خلاف مقتضى طبعه :

﴿ فغريزة العقل ﴾ لمّا خلقت لمعرفة حقائق الأمور ، فلذتها فى المعرفة والعلم ، وألمها فى الجهل ، و ﴿ غريزة الغضب ﴾ لمّا خلقت للتشفى والانتقام فلذتها فى الغلبة التى يقتضيها طبعها وألمها فى عدمها ، و ﴿ غريزة الشهوة ﴾ لمّا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به قوام البدن ، فلذتها فى نيل الغذاء ، وألمها فى عدم نيله ، وهكذا فى غيرها . فاللذات والآلام أيضاً على أربعة أقسام : العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية .

فاللذة العقلية كالانبساط (١) الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وادراك الذوات المجردة النورية ، والألم العقلى كالانقباض الحاصل من الجهل . واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من ادراك الصور والمعانى الجزئية الملائمة ، والألم الخيالى كأدراك غير الملائمة منها . واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات ، والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية . واللذة البهيمية هى المدركة من الأكل والجماع وأمثالها ، والألم البهيمى ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد وأشباهها . وهذه اللذات والآلام تصل الى النفس وهى الملتذة والمتألمة حقيقة إلا أن كلاً منها يصل اليها بواسطة القوة التى تتعلق بها . والفرق بين الكل ظاهر .

وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما فى الترتب على التخيل .

ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وإن توقف على التخيل إلا أن

(١) وفى النسخة المخطوطة عندنا « الابتهاج » .

المتأثر بالإلتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس ، ففى هذا النوع من اللذة والألم تتأثر الغضبية لم تتأثر النفس .

وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالمتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثر منهما الى النفس من دون توسط القوة الغضبية .

ومما يوضح الفرق أن الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلا فى الخارج ، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما .

ثم أقوى اللذات هى العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال ، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة ، وهى فى مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة ، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية ، وتتضعف بضعفها الى أن تنتفى بالمرة ، ويظهر قبحها عند العقل ، وأما العقلية فهى فى البداية منتفية ، لأن إدراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالأخلاق المرضية ، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها ، وتتزايد بتزايد القوة العقلية ، الى أن ينتهى الى أقصى المراتب ، ولا يكون لها نقص ولا زوال .

والعجب ممن ظن انحصار اللذة فى الحسية وجعلها غاية كمال الانسان وسعادته القصوى . والمتشرعون منهم قصّروا اللذات الآخرة على الجنة والحور والغلمان وأمثالها ، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهها ، وجعلوا الوصول الى الاولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم ، وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الأُجراء والعبيد تركوا قليل المشتبهات ليصلوا الى كثيرها . وليت شعرى أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقى والقرب من الله سبحانه ! ولا أدرى أن الباكى خوفاً من النار وشوقاً الى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعد من أهل التقرب الى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة ! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية ،

ولا لذة المعرفة بالله وحبّه وانسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين (١) عليه السلام «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً فى جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك».

وبالجملة لا ريب فى أن الانسان فى اللذة الجسمية يشارك الخنافس والديدان والهمج من الحيوان ، وإنما يشابه الملائكة فى البصيرة الباطنة والأخلاق الفاضلة . وكيف يرتضى العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة .

والعجب من هؤلاء الجماعة (٢) مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعدون أنفسهم أشقياء بالنسبة اليه ، ويذعنون أنه أقرب الناس الى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم بتنزهه عن الشهوات الطبيعية ، وقد إتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلين بلزوم النقص فيه لولاه ، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول .

والسر فيه أنهم وإن ذهبوا الى هذا الرأى الفاسد إلا أنه لما كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة ، وإن كانت ضعيفة ، فيرى ما هو كمال حقيق لجوهرها كمالا ، ويحكم بنورانيتها الذاتية ، على كون ما هو فضيلة فى الواقع فضيلة ، وما هو رذيلة فى نفس الأمر رذيلة ، فيضطرهم الى إكرام أهل التنزه عن الشهوات ، والاستهانة بالمكبين عليها .

ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية أن أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها ويستحيون عن إظهارها ، وإذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم ، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع ، مع أن الجميل على الاطلاق يحسن

(١) المعنى به هو أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام .
(٢) المراد هم الذين حصروا اللذات فى الحسية والكلام كله فى هذا الرأى .

إذاعته ، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به ، هذا مع أن البديهة حاكمة بأن هذه اللذات ليست لذات حقيقية ، بل هي دفع آلام حادثة للبدن (١) فان ما يتخيل لذة عند الأكل والجماع إنما هو راحة من ألم الجوع ولذع المنى ولذا لا يلتذ الشبعان من الأكل ، ومعلوم أن الراحة من الألم ليس كمالا وخيراً ، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالا وخيراً أبداً .

إيقاظ

فيه موعظة ونصيحة

لما عرفت أن الانسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة ، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث ، أعني السبعية والبهيمية والشيطانية ، يشارك السباع والبهائم والشياطين - فاعلم أن من غلبت عليه إحدى اللذات الأربع كانت مشاركته لما ينسب اليه أكثر حتى إذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو .

فانظر يا حبيبي أين تضع نفسك ، فان الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك الى الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية ، كنت واحداً من البهائم . وإن كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جلُّ ميلك الى المناصب والرياسات الردية ، وإيذاء الناس بالضرب والشتم ، وباقي الحركات السبعية ، نزلت منزلة السباع . وإن كانت لقوتك

---

(١) الحق أن كل لذة بدنية ونفسية إنما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلب الاشباع ، حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لاشباع غريزة حب الاستطلاع ، الا أن طالب العلم لا يصل الى حد الاشباع ابداً ، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « منهومان لا يشبعان طالب علم ، وطالب مال » وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالها فانها تصل الى حد الاشباع فتكتفي

الشيطانية حتى يكون غالب سعيك فى استنباط وجوه المكر والحيل للوصول الى مقتضيات قوتى الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت فى حزب الأبالسة . وإن كانت لقوتك العقلية حتى يكون جدّك مقصوراً على على ، أخذ ، (١) المعارف الإلهية واقتفاء (٢) الفضائل الخلقية عرجت الى افق الملائكة القادسية . فمن كان عاقلا غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جلّ همه فى تحصيل السعادة العلمية والعملية ، وإزالة النقائص الكامنة فى نفسه ، وليقتصر على الأمور الشهوانية ، واللذات الجسمانية بقدر الضرورة ، بأن يكتفى من الغذاء بما يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته ، ولا يكون قصده منه الالتذاذ ، بل سدّ الضرورة ودفع الالم ، ولا يضيع وقته فى تحصيل أزيد من ذلك ، فان تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته ، ولا يوجب مهانته وذلته ، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة ، ويدفع الحر والبرد ، فان تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدى الى حقارته ، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته ، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه ، ويبقى نسله ، وإن تعدى فبقدر ما لا يخرجه عن السنة ، وليحذر عن الانهماك فى مقتضيات قوّتى الشهوة والغضب ، لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية . فالله الله فى نفوسكم معاشر الاخوان ادركوها قبل أن تغرقوا فى بحار المهالك ، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك ، وبادروا الى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة ، والعادات المفسدة ، فان إزالة الرذائل بعد استحكامها فى غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الأثر ، والغلبة على النفس الأمّارة بعد ضعف الهرم فى غاية الاشكال ، إلا أنه فى أى حال لا ينبغى أن تيأسوا من روح الله ، فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة ،

(١) لم توجد فى نسختنا الخطية ولكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة .
(٢) فى نسختنا الخطية هكذا « واقتناء » .

فانه خير من التمادى فى الباطل ، فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته :

ولقد قال الشيخ (١) الفاضل احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو الاستاذ فى علم الأخلاق . واقدم الاسلاميين فى تدوينه : « إنى تنبهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة ، فتوجهت الى فطام نفسى عن رذائل الملكات ، وجاهدت جهاداً عظيما حتى وفقنى الله لاستخلاصها عما يهلكها ، فلا ييأس أحد من رحمة الله ، فان النجاة لكل طالب مرجوة ، وأبواب الإفاضة أبداً مفتوحة ، فبادروا إخوانى الى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤساً ، والعقل مقهوراً . فيفسد جوهركم ، وتمسخ حقيقتكم ، ويدرككم الانتكاس فى الخُلق الذى هو خروج عن افق الانسان ، ودخول فى زمرة البهائم والسباع والشياطين ، نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العصمة من الخسران الذى لا نهاية له . وقد شبّه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء ، فرماها فى نار مضطرمة فيحرقها ، حتى تصير

(٢) هو الحكيم الأعظم والفيلسوف الاكبر « ابو على احمد بن محمد » بن يعقوب ابن مسكويه الخازن « الرازي » الأصل والاصفهانى المسكن والخاتمة كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء معاصراً للشيخ أبي على بن سينا صحب الوزير المهلبي فى أيام شبابه وكان من خاصته الى أن اتصل بصحبة « عضد الدولة » البويهى فصار من كبار ندمائه ورسله الى نظرائه ثم اختص بالوزير « ابن العميد » وابنه « أبى الفتح » له مؤلفات كثيرة بعضها فى الحكمة ومنه كتاب « الفوز الاكبر » وكتاب « الفوز الاصغر » « وجاويدان خرد » بالفارسية فى الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها فى التأريخ ومنه « تجارب الامم » وبعضها فى الأخلاق ومنه كتاب « الطهارة » المشهور وهو الذى قصده « المصنف ره » هنا لأنه أول كتاب صنف فى علم الأخلاق ، وقد مدحه استاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الخواجة « نصير الدين الطوسى » قدس سره بأبيات . وكان (ره) من علمائنا الامامية قدس الله أسرارهم وقبره (باصفهان) على باب (درب جناد) وقد اشتهر ان السيد (الداماد) الذي كان من أعاظم علمائنا وأكابر حكمائنا كان كلما اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة (الترجمة عن الكنى والألقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي) قدس سره مع تصرف يسير منا) .

كاساً (١) لا منفعه فيها .

﴿ تتميم ﴾ ولا تظن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل ما يعتريها من الكدرة الحاصلة من معصية من المعاصي يمكن تداركه ، فان ذلك محال ، إذ غاية الأمر أن تتبع تلك المعصية بحسنة تمحى آثارها ، وتعيد النفس الى ما كانت عليه قبل تلك المعصية ، فلا تزداد بتلك الحسنة إشراقاً وسعادة ، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب وبهجته ، وحصلت له درجة فى الجنة ، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها فى مجرد عود القلب الى ما كان عليه قبلها ، وهذا نقصان لا حيلة لجبره ، ومثال ذلك أن المرآة التى تدنست بالخبث والصدأ إذا مسحت بالمصقلة وإن زال به هذا الخبث ، إلا أنه لا تزيد به جلاء وصفاء ، بخلاف ما إذا لم تتدنس أصلا ، فان التصقيل يزيدها صفاء وجلاء ، والى ما ذكر أشار النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً » .

(١) الكلس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باحراقها .

الباب الثـــاني

(فى بيان أقسام الأخلاق و تفصيل القول فيها)

وفيه فصول

أجناس الفضائل الأربعة والأقوال فى حقيقة العدالة ـ حقيقة العدالة انقياد العقل العملى للعقل النظرى ولوازم الأقول فى العدالة ـ العقل النظرى هو المدرك للفضائل والرذائل ـ دفع اشكال فى تقسيم الحكمة ـ تحقيق الوسط والأطراف ـ أجناس الرذائل وأنواعها ـ الفرق بين الفضيلة والرذيلة ـ العدالة أشرف الفضائل ـ اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان ـ لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة ـ التكميل الصناعى لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعى .

فصل

(أجناس الفضائل الأربع والأقوال فى حقيقة العدالة)

قد تبين فى العلم الطبيعى أن للنفس الناطقة قوّتين : « أولاهما » : قوة الادراك و « ثانيتهما » : قوة التحريك ، ولكل منهما شعبتان : (الشعبة الأولى) للاولى العقل النظرى ، وهو مبدأ التأثر عن المبادىء العالية بقبول الصور العلمية ، و (الشعبة الثانية) لها العقل العملى ، وهو مبدأ تحريك البدن فى الأعمال الجزئية بالروية (١) . وهذه الشبعة من حيث تعلقها بقوتى الشهوة والغضب مبدأ « لحدوث » (٢) بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال ، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك ، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبدأ لا ستنباط الآراء والصنائع الجزئية ، ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالأعمال كحسن الصدق ، وقبح الكذب ، ونظائرهما . (الشعبة الأولى) للثانية قوة الغضب وهى مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة ، و (الشبعة الثانية) لها قوة الشهوة وهى مبدأ جلب الملائم .

ثم إذا كانت القوة الأولى غالبة على سائر القوى ولم تنفعل عنها ، بل كانت هى مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنه ، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال ، وانتظمت أمور النشأة الانسانية ، وحصل تسالم القوى الأربع وتمازجها ، فتهذب كل واحد منها ، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة ، فيحصل من تهذيب العاقلة العلم وتتبعه الحكمة ، ومن تهذيب العاملة

---

(١) إذا كان العقل العملى مبدأ لتحريك البدن فهو قوة تحريك لا قوة ادراك وفى الحقيقة أن غرضهم من العقل العملى هو ادراك ما ينبغي ان يعمل .

(٢) وفى النسخة المخطوطة عندنا « الحصول » .

العدالة ، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتتبعه الشجاعة ، ومن تهذيب الشهوية العفة وتتبعه السخاوة . وعلى هذا تكون العدالة كمالاً للقوة العملية .

﴿ بطريق آخر ﴾

قيل : إن النفس لما كانت ذات قوى أربع العاقلة والعاملة والشهوية والغضبية ، فان كانت حركاتها على وجه الاعتدال ، وكانت الثلاث الاخير مطيعة للاولى، واقتصرت من الأفعال على ما تعين لها ، حصلت أولاً فضائل ثلاث هى الحكمة والعفة والشجاعة ، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الاربع ، وانقهار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هى كمال القوى الأربع وتمامها ، وهى العدالة . وعلى هذا لا تكون العدالة كمالاً للقوة العملية فقط ، بل تكون كمالاً للقوى بأسرها .

وعلى الطريقين تكون أجناس الفضائل أربعاً : « الحكمة » وهى معرفة حقائق الموجودات على ما هى عليه والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة النظرية ، وإن كان وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية . « والعفة » هى انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية ، وتتخلص عن اسر عبودية الهوى. « والشجاعة » وهى اطاعة القوة الغضبية للعاقلة فى الإقدام على الامور الهائلة ، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحاً ، وصبرها محموداً . وتفسير هذه الفضائل الثلاث لا يتفاوت بالنظر إلى الطريقين .

وأما « العدالة » فتفسيرها على الطريق الأول هو انقياد العقل العملى للقوة العاقلة وتبعيته لها فى جميع تصرفاته ، أو ضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع الذى يحكم العقل أيضاً بوجوب اطاعته ، أو سياسة قوتى

الغضب والشهوة ، وحملها على مقتضى الحكمة ، وضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه . وإلى هذا يرجع تعريف الغزالى ، إنها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ، ويحملهما على مقتضى الحكمة ، ويضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ، إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التى للعقل العملى لا نفس القوة العملية .

وتفسيرها على الطريق الثانى هو ائتلاف جميع القوى ، واتفاقها على امتثالها للعاقلة ، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب ، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به . ولا ريب فى أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط .

اللهم إلا أن يقال إن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق ، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية ، لأن شأنها تصريف القوى فى المحال اللائقة على وجه الاعتدال ، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة .

ثم العدالة على الطريق الأول تكون أمراً بسيطاً مستلزمة للملكات الثلاث أعنى الحكمة والعفة والشجاعة ، وعلى الثانى تحتمل البساطة والتركيب على الظاهر ، وإن كانت البساطة أقرب نظراً إلى أن الاعتدال الخلقى بمنزلة الاعتدال المزاجى الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة ، وقد برهن فى أصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة .

وتفصيل الكلام فى المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملى قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى ، بحيث كانت الجميع منقادة له ، واستعمل كلاً منها على ما يقتضيه رأيه ، فان جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة ، أو نفس تدبير التصرف فى البدن وامور المنزل والبلد ،

دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملى فقط ، وان جعلت نفس الملكات كانت مركبة ، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة فى إعداد الفضائل ، لأن جميع الأقسام لا يكون قسما منها ، وليس الإئتلاف والامتزاج هيئة وحدانيـــة عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئاً على حدة ونوعاً مركباً .

ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث إلا انه على الطريق الأول تكون العدالة علة ، والملكات الثلاث معلولة ، وعلى الطريق الثانى ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها ، فهى أجزاء للعدالة أو بمنزلتها .

تكملة

العدالة انقياد العقل العملى للعقل النظرى

الحق أن حقيقة العدالة هو التفسير الأول المذكور فى الطريق الأول ، أعنى انقياد العقل العملى للقوة العاقلة ، وسائر التفاسير المذكورة فى الطريقين لازمة له ، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة للعقل العملى على قوتى الغضب والشهوة ، أو نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظرى ، وأمثال ذلك ، وعلى هذه التفاسير اللازمة للأول يلزم أن تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل ، ويتحقق معناها فى كل فضيلة حتى تكون فرداً لها .

وتحقيق المقام أن انقياد العقل العملى للعاقلة يستلزم ضبط قوتى الغضب والشهوة تحت إشارة العقل ، وسياسته إياهما ، واستعلائه عليهما . وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها . لجميع الفضائل الصادرة عن قوتى

الغضب والشهوة ، بل عن العاقلة أيضاً ، إنما تكون بتوسط العقل العملى وضبطه إياها ، إلا أن ذلك لا يوجب كونها كمالاً له حتى يعد من فضائله ، ووجهه ظاهر ، ولا كون الضبط المذكور عدالة .

فالحق أن حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة ، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه ، والفضائل الصادرة عن القوى الأُخرى بتوسط العقل العقلى إنما تندرج تحت لازم العدالة ، لا عينها . فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره الى اعتبار ما يلزمها ، ومن لم يدرجه تحتها نظره الى عدم اعتباره . وعلى هــــذا لا بأس بأن يقال إن للعدالة اطلاقين (أحدهما) العدالة بالمعنى الأخص (وثانيهما) العدالة بالمعنى الأعم .

ثم إن القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع أنواعاً ، فكما أدرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعاً ، فكذا أدرجوا تحت العدالة أيضاً أنواعاً كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها .

وأنت ـ بعد ما علمت أن العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة فى استعمال نفس العاقلة وقوتى الغضب والشهوة ـ تعلم أن الفضائل بأسرها إنما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث ، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقتها باحدى الثلاث ، وإن كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث ، إذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضى استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها اليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى . وكذا لا يقتضى استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقله اليها . ومعلوم أنه لا يترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلاً ، إذ كل فضيلة ورذيلة إما متعلق بالقوة العقلية ، أو بقوتى الغضب والشهوة بتوسط العاملة ، وليس لها فى نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى . مع أنه لوكان

الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من الفضائل اليها لزم أن تستند اليها جميع الفضائل ، فكان اللازم ادخال جميع الفضائل تحت العدالة . وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثانى كما ظهر .

وعلى هذا فيلزم من عدهم بعض الفضائل من أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص ، فالفضائل التى جعلوها أنواعاً مندرجة تحت العدالة بعضها من أنواع الشجاعة أو لوازمها ، وبعضها من أنواع العفة أو آثارها ، وإن كان للعاملة من حيث التوسط مدخلية فى حصول الجميع . فنحن لا نتابع القوم ، ونجرى على مقتضى النظر من جعل أنواع الفضائل والرذائل وأصنافها ونتائجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل العملى ، وإدخال جميعها تحت أجناسها على ما ينبغى من دون إدخال شىء منها تحت العدالة وضدها .

ثم إن الرذائل والفضائل مع مدخلية القوة العملية فيها بالاستعمال ، إما متعلقة بمجرد احدى القوى الثلاث ، أو باثنتين منها ، أو بالثلاث . ومثال المتعلق باحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة ، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية ، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية ، وأما ما يتعلق باثنتين منها أو الثلاث ، فاما أن يكون له أصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض آخر ، كحب الجاه أعنى طلب المنزلة فى القلوب : فانه إن كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم ، كان من رذائل قوة الغضب . وإن كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به الى شهوة البطن والفرج ، كان من رذائل قوة الشهوة ، وكذا الحسد أعنى تمنى زوال النعمة عن الغير : إن كان باعثه العداوة كان من رذائل القوة الغضبية . وإن كان باعثه مجرد وصول النعمة اليه كان من رذائل القوة الشهوية . أو يكون للثلاث أو الاثنتين مدخلية بالاشتراك فى نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه ، كالحسد الذى

باعثه العداوة ، وتوقع وصول النعمة اليه معاً ، وكالغرور وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، وتمييل النفس اليه بخدعة من الشيطان ، فان النفس إن كانت مائلة بالطبع الى شئ من مقتضيات الشهوة ، واعتقدت جهلا كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوتى العاقلة والشهوة ، وإن كانت مائلة الى شئ من مقتضيات قوة الغضب . واعتقدت جهلا كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوتى العاقلة والغضب ، وإن كانت مائلة الى شئ من مقتضياتهما معاً مع اعتقادها كونه خيراً لها كان من رذائل الثلاث معاً .

ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها أن يكون لكل منها تأثير فى حدوثها وايجادها ، أى يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة ، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة ، فان الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد ، بمعنى أن كلا منهما مؤثر فى ايجاده وإحداثه ، ولو لم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور . فلو كانت مدخلية قوة فى صفة بمجرد الباعثية ، أى كانت باعثة لقوة اخرى على ايجاد هذه الصفة وإحداثها ، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم يكن متعلقة بها ، ولم نعدها من رذائلها أو فضائلها ، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التى هى مباشرة لإحداثها وايجادها ، مثل الغضب الحاصل من فقد شئ من مقتضيات شهوة البطن والفرج ، وإن كان باعثه قوة الشهوة إلا انه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة فى إحداثه وايجاده ، بل الإحداث إنما هو من القوة الغضبية ، ومدخليـــة الشهوية انما هو بتحريكها وتهييجها الغضبية للإحداث والايجاد ، ولا ريب فى أن للعاقلة هذه الباعثية فى صدور اكثر

الصفات مع عدم عدها من رذائلها ، أو فضائلها ، (١) .

وإذا عرفت ذلك فاعلم أنا نذكر اولا ما يتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل ، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية منهما ، ثم ما يتعلق بالشهوية منهما ، ثم ما يتعلق بهما أو الثلاث .

وصل

العقل النظرى هو المدرك للفضائل والرذائل

اعلم أن كل واحد من العقل العملى والعقل النظرى رئيس مطلق من وجه ، أما ، الأول ، فمن حيث إن استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو الأصلح موكول اليه ، وأما ، الثانى ، فمن حيث إن السعادة القصوى وغاية الغايات أعنى التحلى بحقائق الموجودات مستندة اليه ، وأيضاً ادراك ماهو الخير والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملى فى تصرفاته .

وقيل : إن ادراك فضائل الأعمال ورذائلها من شأن العقل العملى ، كما صرّح به الشيخ فى الشفاء بقوله : « إن كمال العقل العملى استنباط الآراء الكلية فى الفضائل والرذائل من الأعمال على وجه الابتناء على المشهورات المطابقة فى الواقع للبرهان ، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية » .

والحق ان مطلق الادراك والارشاد إنما هو من العقل النظرى فهو بمنزلة المشير الناصح ، والعقل العملى بمنزلة المنفّذ الممضى لاشاراته وما ينفذ فيه الاشارة فهو قوة الغضب والشهوة .

---

(١) لم توجد فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة .

دفع الاشكال

فى تقسيم الحكمة

ان قيل : إن القوم قسموا الحكمة أولاً الى النظرية والعملية ، ثم قسموا العملية الى ثلاثة أقسام : واحد منها علم الأخلاق المشتمل على الفضائل الأربع التى احداها الحكمة ، فيلزم أن تكون الحكمه قسماً من نفسها .

قلنا : الحكمة التى هى المقسم هو العلم بأعيان الموجودات ، سواء كانت لموجودات إلهية أى واقعة بقدرة البارى سبحانه ، أو موجودات انسانية أى واقعة بقدرتنا واختيارنا ، ولما كان هذا العلم أعنى الحكمة التى هى المقسم قسماً من الموجودات بالمعنى الثانى . فلا بأس بالبحث عنه فى علم الأخلاق ، فان غاية ما يلزم أن تكون الحكمة موضوعاً لمسألة هى جزؤها بان يجعل عنواناً فيها ويحمل عليها كونها ملكة محمودة ، أو طريق اكتسابها كذا .

وبالجملة لا مانع من أن يجعل علم يبحث فيه عن احوال الموجودات موضوعاً لمسألة ، ويبحث عنه فيه باثبات صفة له لأجل انه أيضاً من الموجودات كما انه فى العلم الأعلى الذى يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها ، يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات ، ويجعل موضوعاً لمسألة من مسائله ، ولا يلزم من هذا كون الشىء جزءاً لنفسه . وأيضاً نقول كما أن الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر ، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل ، وحينئذ كما أن العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر ، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور .

وقيل : فى الجواب إن المراد من الحكمة التى هى احدى الفضائل الأربع استعمال العقل على الوجه الأصلح ، وحينئذ فلا يرد اشكال أصلا لعدم كون

الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له . وفيه أن الحكمة بهذا المعنى هى العدالة على ما تقرر ، مع أن العدالة أيضاً إحدى الفضائل الأربع .

﴿ تنبيه ﴾ قد صرح علماء الأخلاق بان صاحب الفضائل الاربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها الى الغير ، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخياً بل منفاقاً ، ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعاً بل غيوراً ، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيما بل مستبصراً .

والظاهر ان المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح ، فان من تعدى أثره يرجى نفعه ، ويخاف ضره ، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلباً للنفع ، أو دفعاً للضرر ، وأما من لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وإن بلغ فى الكمال ما بلغ .

فصل

تحقيق الوسط والأطراف

لا ريب . فى أنه بازاء كل فضيلة رذيلة هى ضدها ، ولمّا عرفت أن أجناس الفضائل أربعة فاجناس الرذائل ايضاً فى بادى النظر أربعة : الجهل ، وهو ضد الحكمة ، والجبن ، وهو ضد الشجاعة ، والشره وهو ضد العفة ، والجور ، وهو ضد العدالة . وعند التحقيق يظهر أن لكل فضيلة حداً معيناً ، والتجاوز عنه بالافراط أو التفريط يؤدى الى الرذيلة ، فالفضائل بمنزلة الأوساط ، والرذائل بمثابة الأطراف ، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد ، والأطراف غير متناهية عدداً . فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة ، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز الى المحيط ، فان المركز نقطة معينة ، مع كونه ابعد النقاط من المحيط ، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير

متناهية ، مع أن كلا منها أقرب منه من طرف اليه .

فعلى هذا يكون بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية ، لأن الوسط محدود معين ، والأطراف غير محدودة ، وتكون الفضيلة فى غاية البعد عن الرذيلة التى هى نهاية الرذائل ، ويكون كل منها أقرب منها الى النهاية (١) ، ومجرد الإنحراف عن الفضيلة من أى طرف اتفق يوجب الوقوع فى رذيلة . والثبات على الفضيلة والاستقامة فى سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم ، وارتكاب الرذيلة كالإنحراف عنه ، ولا ريب فى أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين ، وهو لا يكون إلا واحداً ، وأما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية ، فالاستقامة فى طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد ، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية ، ولذلك غلبت دواعى الشر على بواعث الخير .

ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقى صعب ، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب . لأن الاستقامة على جادة الاعتدال فى غاية الاشكال ، وهذا معنى قول الحكماء . اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصوب (٢) بعد ذلك حتى لا يخطيها أسر ، ولذلك لمّا أُمِرَ فخر الرسل بالاستقامة فى قوله تعالى :

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » (٣) .

قال شيَّبتنى سورة هود ﷺ ، إذ وجد ان الوسط الحقيقى فيما بين الأطراف الغير المتناهية المتقابلة مشكل ، والثبات عليه بعد الوجدان اشكل.

---

(١) أى ان كلا من الرذائل أقرب من الفضيلة الى النهاية .

(٢) الصواب : يقال فلان مستقيم الصوت اذا لم يزغ عن قصده يميناً وشمالا .

(١) هود الآية : ١١٢ .

وقال (المحقق الطوسى) وجماعة : « إن ماورد فى اشارات النواميس من ان الصراط المستقيم أدق من الشعر ، وأحد من السيف اشارة الى هذا المعنى، وغير خفى بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة ، وهتك لأستار السنة الكريمة ، والواجب الأذعان بظاهر ما ورد من أمور الآخرة . نعم يمكن ان يقال كما : إن الأمور الاخروية التى حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما اخبر به ، الا انها صور للأخلاق ، والصفات المكتسبة فى هذه النشأة قد ظهرت بتلك الصور فى دار العقبى بحسب المرتبة ، إذ ظهورات الأشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت ، فوراد ما يؤذى ويريح من الصور فى موطن المعاد انما هو الأخلاق والنيات المكتسبة فى هذه النشأة . وهذا المذهب مما استقر عليه آراء اساطين الحكمة والعرفان ، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من الآيات والأخبار ، واشرنا إلى حقيقة الحال فيه . وعلى هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الأخلاق ، والجحيم صورة لأطرافها ، فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل إلى الجنة التى وعدها الله المتقين ، ومن مال إلى الأطراف هنا سقط هناك فى جهنم التى احاطت بالكافرين .

ثم الوسط أما حقيقى وهو ما تكون نسبته إلى الطرفين على السواء كالأربعة بالنسبة إلى الاثنين والستة، وهذا كالمعتدل الحقيقى الذى انكر الاطباء وجوده ، أو اضافى وهو اقرب ما يمكن تحققه للنوع أو الشخص إلى الحقيقى، ويتحقق به كمالها « اللائق بحالها » (١) وان لم يصل اليه ، فالتسمية بالوسط انما هو بالنسبة الى الأطراف التى هى أبعد من الحقيقى بالاضافة اليه . وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التى اثبتها الاطباء، فان المراد منها الاعتدالات

(١) غير موجودة فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى وفى المطبوعة

التى يمكن تحققها للأنواع والأشخاص ، وهو القدر الذى يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه ،وان لم يكن اعتدالاً حقيقياً بمعنى تساوى الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها فى القوة والأقربية إلى الحقيقى بالنسبة الى سائر الاطراف سمى اضافياً .

ثم الوسط المعتبر هنا هو الاضافى لتعذر وجدان الحقيقى والثبات عليه، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والاحوال والأزمان، فربما كانت مرتبة من الوسط الاضافى فضيلة بالنظر إلى شخص أو حال أووقت، ورذيلة بالنسبة إلى غيره .

وتوضيح الكلام انه لا ريب فى ان الوسط الحقيقى فى الأخلاق لكونه فى حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه ، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة هى الوسط الحقيقى ، إلا انه لما كانت تلك الفضيلة (١) قريبة اليه ولا يمكن وجود الأقرب منها اليه له ، يحكم بكونها وسطاً اضافياً لأقربيتها اليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الاضافى له عرض ،وسطه الاعتدال الحقيقى ، وطرفاه طرفا الافراط والتفريط ، إلا انه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالاً اضافياً ، وكلما كان اقرب إلى الحقيقى كان أكمل وأقوى ، واذا خرج عنهما دخل فى الرذيلة .

لايقال :على هذا ينبغى أن يكون الاعتدال الطبي فى المزاج أيضاً كذلك أى له عرض وسطه الاعتدال الحقيقى وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبى ، حتى انه كلما اقرب إلى الحقيقى صار الطبي أقوى وأكمل. مع انه ليس الأمر كذلك، إذ القياس يقتضى الخروج عن الاعتدال الطبي ،أو ضعفه لقربه إلى الحقيقى .

، بيان ذلك ، ان الاعتدال الحقيقى فى المزاج أن تكون أجزاء العناصر

(١) هذه العبارة بتمامها لم توجد فى نسختنا الخطية .

متكافئة القوة ، والاعتدال الطبي فى نوع الانسان أو شخص من اشخاصه ان تكون الأجزاء الحارة مثلاً من عشرة إلى اثنى عشرة ، والباردة من ثمانية الى تسعة ، واليابسة من سبعة الى ثمانية ، والرطبه من ستة إلى سبعة ، فاذا كانت الأجزاء الحارة ستة ، والباردة خمسة ، واليابسة أربعة ، والرطبة ثلاثة كانت خارجة عن الاعتدال الطبي،مع صيرورته أقرب إلى الحقيق ، بل إذا فرضت تكافؤ أجزاء العناصر الاربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيق خرجت أيضاً عنه ، فلا يكون الحقيق وسط الطبي حتى انه كلما يصير اليه أقرب يكون أقوى وأكمل .

لأنا نقول نحن لا ندعي : أن الحقيق وسط الطبي بل هو أمر مغاير له، والحقيق فى طرفه الخارج، فان له طرفين: ،احدهما ، أن تصير الاجزاء أقرب فى التساوى مما كان للطبي الى أن يبلغ إلى الحقيق ، ، والثانى ، أن يصير أبعد فيه مماكان له الى غير النهاية ، إلا أن بعض مراتب الطرفين التى منها الاعتدال الحقيق غير ممكن الوقوع فتأمل .

فان قيل: ان الوسط المعتبر هنا إن كان اضافياً،لكان له عرض كعرض المزاج ، فلا يناسب وصفه بالحدة والدقة ، قلنا: كما فى عرض المزاج مرتبة هى أفضل المراتب وأقربها إلى الاعتدال الحقيق، كذلك فى عرض الوسط للملكات مرتبة هى أفضل المراتب وأقربها إلى الحقيق،وهى المطلوبة بالذات،ولاريب فى أن خصوص هذه ليس لها عرض واسعة،فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة، وأما سائر المراتب المعدودة من الوسط وان لم تكن خالية عن شوائب الإفراط والتفريط ، إلا أنه لما كان لها قرب محدود إلى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقياً على كماله اللائق به عدت من الأوساط والفضائل ، كما ان غير الأقرب إلى الاعتدال الحقيق من مراتب عرض

المزاج يعد من الاعتدال: لكون النوع أو الشخص معه باقياً محفوظاً بحيث لا يظهر خلل بين فى أفعاله وإن لم يخل عن الانحراف، ولو وصف هذه المراتب أيضاً بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه أن وجدانها والثبات عليها لا يخلو أيضاً من صعوبة.

فصل

﴿ أجناس الرذائل وأنواعها ﴾

قد ظهر مما ذكرناه بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفى الإفراط والتفريط ، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها ، لأن وظيفته بيان الأصول والقوانين الكلية ، لا أحصاء الأعداد الجزئية .

والقانون اللازم بيانه هو أن الانحراف عن الوسط إما إلى طرف الإفراط أو الى طرف التفريط ، فيكون بازاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة، ولما كانت أجناس الفضائل أربعة فتكون أجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بازاء الحكمة « الجربزة والبله » : و (الأول) فى طرف الإفراط وهو استعمال الفكر فى ما لا ينبغى أو فى الزائد عما ينبغى و (الثانى) فى طرف التفريط وهو تعطيل القوة الفكرية وعدم استعمالها فى ما ينبغى أو فى أقل منه ، والأولى أن يعبر عنهما (بالسفسطة) أى الحكمة المموهة ، و (الجهل) أى البسيط منه ، لأن حقيقة الحكمة هو العلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة ، فاذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج أموراً دقيقة غير مطابقة للواقع، والعلم بهذه الامور هو ضد الحكمة من طرف الإفراط وإذا حصلت لها بلادة لا ينتقل إلى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من

طرف التفريط (واثنان) بازاء الشجاعة « التهور والجبن » : (الأول) فى طرف الإفراط وهو الاقدام على ما ينبغى الحذر عنه ، و(الثانى) فى طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الاقــدام عليه . (واثنان) بازاء العفة وهما : « الشره والخمود » : و (الأول) فى طرف الإفراط وهو الانهماك فى اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعاً وعقلا ، و (الثانى) فى طرف التفريط وهو سكون النفس عن طلب ما هو ضرورى للبدن . (واثنان) بازاء العدالة وهما : « الظلم والانظلام » : و (الأول) فى طرف الإفراط وهو التصرف فى حقوق الناس وأموالهم بدون حق ، و(الثانى) فى طرف تفريط وهو تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدى على سبيل المذلة ، هكذا قيل .

والحق أن العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنها من لازمها ، لها طرف واحد يسمى جوراً وظلماً ، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات ، ولا يختص بالتصرف فى حقوق الناس وأموالهم بدون جهة شرعية ، لأن العدالة بهذا المعنى - كما عرفت - عبارة عن ضبط العقل العملى جميع القوى تحت إشارة العقل النظرى ، فهو جامع للكمالات بأسرها ، فالظلم الذى هو مقابله جامع للنقائص بأسرها ، إذ حقيقة الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والافعال فتمكين الظالم من ظلمه لمّا كان صفة ذميمة يكون ظلماً ، على أن من مكّن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة ، فقد ظلم نفسه ، والظلم على النفس ايضاً من أقسام الظلم . هذا هو بيان الطرفين لكل من الأجناس الأربعة للفضيلة .

ثم لكل واحد من اجناس الرذائل والفضائل انواع ولوازم من الأخلاق والأفعال ذكرها علماء الأخلاق فى كتبهم ، وقد ذكروا للعدالة ايضاً انواعاً ، وقد عرفت فيما تقدم أن تخصيص بعض الصفات بالاندراج

تحتها مما لا وجه له ، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث ، اعنى العاقلة والغضبية والشهوية ، وإن كان للقوة العملية مدخلية فى الجميع من حيث التوسط ، فنحن ندخل الجميع تحت اجناس القوى الثلاث من غير اندراج شئ منها تحت العدالة ، وقد عرفت ان بعضها متعلق بالعاقله فقط ، وبعضها بالقوة الغضبية فقط ، وبعضها بالشهوية فقط ، وبعضها بالاثنين منها أو الثلاث معاً ، فنحن نذكر ذلك فى مقامات أربعة .

ولمزيد الأحاطة نشير هنا إجمالا الى اسماء الأجناس والأنواع واللوازم التى لكل جنس ، ونذكر أولا ما يتعلق بالعاقلة ، ثم ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث أو الاثنتين منها ، ونذكر أولا الرذيلة ، ثم نشير الى ضدها من الفضيلة ان كان له اسم ، ثم فى باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الأجناس والأنواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها من الفضيلة ، ونذكر أولا جنسى الرذيلة لكل قوة ، ونذيلهما بضدهما الذى هو جنس فضيلتها ، ثم نذكر الأنواع والنتائج على النحو المذكور ، أى نذكر أولا الرذيلة باحكامها ، ومعالجاتها ، (١) ، ثم نشير الى ضدها ، وما ورد فى مدحه ترغيباً للطالبين على أخذه والاجتناب عن ضده ، ولذلك لم نتابع القوم فى التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة .

ثم بيان الأنواع واللوازم على ما ذكر أكثره القوم لا يخلو عن الاختلال إما فى التعريف والتفسير ، أو فى الفرق والتميز ، أو فى الادخال تحت ماجعلوه نوعاً له ، أو غير ذلك من وجوه الاختلال ، فنحن لا نتبعهم فى ذلك ، ونبينها ادخالا وتمييزاً وتعريفاً ما يقتضيه النظر الصحيح ، فنقول :

أما جنسا الرذيلة للقوة العقلية ، « فاولهما » (الجربزة والسفسطة) وهى

(١) هذه الكلمة موجودة فى نسختنا الخطية فقط .

من طرف الافراط ، و « ثانيهما » (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدهما (العلم والحكمة) ، واما الأنواع واللوازم المترتبة عليهما ، فمنها (الجهل المركب) وهو من باب رداءة الكيفية . ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الافراط على ما قيل ، وضد الجهل المركب ادراك ما هو الحق أو زوال العلم بأنه يعلم ، وضد الحيرة الجزم بأحد الطرفين . وبذلك يظهر ان اليقين ضد لكل منهما ، لأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع ، فمن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضداً للحيرة ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضداً للجهل المركب ، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفاؤه مع مراعاة شرائط الإستدلال ، ومنشأ الجهل المركب إعوجاج الذهن ، أو حصول الخطأ فى الاستدلال ، أو وجود مانع من افاضة الحق كعصبية ، أو تقليد أو أمثال ذلك ، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته ، أو الالتهاب الموجب للتجاوز عن المطلوب ، أو عدم الاحاطة بمقدماته ، ومنها (الشرك) وضده التوحيد . ومنها « الوساوس » النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية ، وهذا ايضاً من باب رداءة الكيفية ، وكان الظاهر ان يعد ذلك من رذائل قوتى الوهم والمتخيلة دون العاقلة ، إذ الغالب انها لا تنفك عن الاختلال فيهما ، إلا أنك قد عرفت العذر فى ذلك ، وضدها الخواطر المحمودة التى من جملتها الفكر فى بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته . ومنها (استنباط المكر والحيلة) للوصول الى مقتضيات الشهوة والغضب ، وهو من طرف الافراط .

وأما جنسا الرذائل للقوة الغضبية ، فاولهما (التهور) وثانيهما (الجبن) وقد عرفت ان ضدهما من الفضيلة (الشجاعة) . وأما الأنواع واللوازم والنتائج المترتبة عليها ، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب . وهو مذموم إلا ما كان لأجل المعصية والخيانة ،

أو من الله وعظمته . والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الأمن والطمأنينة ، والممدوح من فضائلها لكونه مقتضى العقل وضده الأمن من مكر الله ، وهو ـ أى الممدوح من الخوف ـ يلازم الرجاء وضده اليأس . ومنها (صغر النفس) أى ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن ، وضده كبر النفس أى ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان . ومن جملة التحمل التحمل على الخوض فى الأهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى (بالثبات) فهو أخص من كبر النفس ، وضده الاضطراب فى الاهوال والشدائد . ومن جملة الثبات الثبات فى الإيمان ، ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالى الامور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وضده (علو الهمة) الذى هو من لوازم كبر النفس وشجاعتها ، أى السعى فى تحصيل السعادة والكمال وطلب الامور العالية من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها . ومن أفراد علو الهمة الشهامة ، ويأتى تفسيرها . ومنها (عدم الغيرة والحمية) أى الاهمال فى محافظة ما يلزم حفظه ، وهو أيضاً من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر . ومنها (العجلة) وهو المعنى الراتب (١) فى القلب الباعث على الاقدام على الأمر بأول خاطر من دون توقف فيه ، وهو ايضاً من نتائج صغر النفس وضعفها ، وضدها الاناءة والتأنى ، و (التعسف) قريب من العجلة ، وضده أعنى (التوقف) قريب من الاناءة ، ويأتى الفرق بينهما ، والوقار يتناول التأنى والتوقف ، وهو اطمئنان النفس وسكونها عند الحركات والأفعال فى الابتداء والاثناء ، وهو من لوازم كبر النفس وشجاعتها . ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من لوازم الجبن وضعف النفس ، وربما كان من باب رداءة الكيفية ، فضده أعنى

(١) الراتب : عيش راتب : أي دائم ثابت .

حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس . ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة وهو من باب الافراط ، وضده الحلم . ومنها (الإنتقام) وهو من نتائج الغضب ، وضده العفو . ومنها (العنف) وهو أيضاً من نتائج الغضب ، وضده الرفق . ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الأخص وهو أيضاً من نتائجه ، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الأخص . ومنها (الحقد) وهوالعداوة الكامنة ، أى ارادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم ، وهو ايضاً من ثمرات الغضب . ومنها (العداوة) الظاهرة ، وضدها (النصيحة) أى ارادة الخير والصلاح ، ودفع الشر والفساد عن كل مسلم . ثم للغضب والحقد لوازم هى الضرب والفحش واللعن والطعن . ومنها (العجب) وهو استعظام النفس ، وضده انكسارها واستحقارها (١) . ومنها (الكبر) وهو التعظم الموجب لرؤية النفس فوق الغير ، وضده (التواضع) وهو ان لا يرى لنفسه مزية على الغير . ومنها (الافتخار) وهو المباهاة بما يظنه كمالا وهو من شعب الكبر . ومنها (البغى) وهو عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد وهو أيضاً من شعب الكبر . وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد اليه واطاعته ، وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة (٢) ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها . ومنها (العصبية) وهى الحماية عن نفسه وعما ينتسب اليه بالباطل والخروج عن الحق . ومنها (كتمان الحق) وضدهما الانصاف والاستقامة على الحق . ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم ابناء النوع ، وضدها الرحمة .

(١) من كلمة (منها) الى قوله و(استحقارها) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية اخرى .

(٢) من كلمة (منها) الى قوله و(الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد فى نسختنا الخطية لكنها موجودة فى نسخة خطية أخرى .

وأما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فاحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة) ، وأما الأنواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها ، فمنها (حب الدنيا) . ومنها (حب المال) وضدهما الزهد . ومنها (الغنى) وضده الفقر . ومنها (الحرص) وضده القناعة . ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس . ومنها (البخل) وضده السخاء ، وتندرج تحته وجوه الانفاقات بأسرها . ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه ، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص . ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الامانة . ومنها (أنواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهى وامثالها . ومنها (الخوض فى الباطل) . ومنها (التكلم بما لا يعنى وبالفضول) وضدهما الترك والصمت ، أو بالتكلم بما يعنى بقدر الضرورة .

واما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث ، أو باثنتين منها : فمنها (الحسد) وضده النصيحة . ومنها (الايذاء والاهانة والاحتقار) وضدها كف الأذى والاكرام والتعظيم ، والايذاء قريب من الظلم بالمعنى الأخص أو أعم منه ، وضد الظلم بالمعنى الأخص العدالة بالمعنى الأخص . ومنها (إخافة المسلم وادخال الكرب فى قلبه) وضدهما إزالة الخوف والكرب عنه . ومنها (ترك اعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم . ومنها (المداهنة) فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وضده السعى فيهما . ومنها (الهجرة والتباعد عن الاخوان) وضده التآلف والتزاور . ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة . ومنها (عقوق الوالدين) وضده البرّ اليهما . ومنها (تجسس العيوب) وضده الستر . ومنها (إفشاء السر) وضده الكتمان . ومنها (الافساد بين الناس) وضده الاصلاح بينهم . ومنها (الشماتة بمسلم) . ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدهما طيب الكلام . ومنها (السخرية والاستهزاء) وضدهما

المزاح . ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم . ومنها (الكذب) وضده الصدق ، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص ، ومما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو الصمت . ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول . ومنها (حب المدح وكراهة الذم) وضده مساواتهما . ومنها (الريا) وضده الاخلاص . ومنها (النفاق) وضده استواء السر والعلانية . ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد . ومنها (طول الأمل) وضده قصره . ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى الاعم . ومنها (الوقاحة) وضده الحياء . ومنها (الاصرار على المعصية) وضده التوبة ، وأقصى مراتبها الانابة والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة فى ضديتها للاصرار . ومنها (الغفلة) وضدها النية والارادة . ومنها (عدم الرغبة) وضده الشوق . ومنها (الكراهة) وضده الحب . ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب . ومنها (البعد) وضده الانس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة . ومنها (السخط) وضده الرضا ، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضاً ، بل هو فوق الرضا كما يأتى . ومنها (الحزن) وضده السرور . ومنها (ضعف الوثوق والاعتماد على الله) وضده التوكل . ومنها (الكفران) وضده الشكر . ومنها (الجزع والهلع) وضده الصبر . ومنها (الفسق) وهو الخروج عن طاعة الله وعبادته ، وضده الطاعة والعبادة ، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة فى الشرع)(١) من الطهارة، والصلاة ، والذكر وتلاوة القرآن ، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات. ونحن نذكر الزكاة والخمس فى وجوه الانفاق ، وما سواهما فى العبادات .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن إحصاء الفضائل والرذائل وضبطها ، وإدخال البعض فى البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له

(١) هذه العبارة بتمامها غير موجودة فى نسختنا الخطية .

علماء الأخلاق ، بل إنما تعرضوا لبعضها ، ويظهر من كلامهم فى بعض المواضع المخالفة فى الادخال .

والسر فيه أن كثيراً من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا اليه ، فالاختلاف فى الادخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات ، وقد عرفت أن ما له جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله ، ولا نخصه بواحدة منها . ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات محموداً معدوداً من الفضائل ، و ببعض الاعتبارات معدوداً من الرذائل ، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء ، فان الحب ان كان متعلقاً بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموماً معدوداً من الرذائل ، وإن كان متعلقاً بالله وأوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل ، والخوف إن كان مما لا يخاف منه عقلا كان من رذائل قوة الغضب ، وإن كان من المعاصى أو من عظمة الله كان من فضائلها ، والرجاء إن لم يكن فى موقعه كان من الرذائل ، وإن كان فى موقعه كان من الفضائل ، وقس عليها غيرها مما له الاعتبارات المختلفة .

فصل

الفرق بين الفضيلة والرذيلة

قد دريت اجمالا أن الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة ، لها آثار معلومة ، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل ، وليست بها ، فلابد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيَضلّ ويُضل ، فنقول :

قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ما هى عليه ، وهو لا ينفك عن اليقين والطمأنينة ، فمجرد أخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة ،

والآخذ بمثله ليس حكيماً ، إذ حقيقة الحكمة لا تنفك عن الاذعان القطعى واليقينى وهما مفقودان فيه ، فمثله كمثل الأطفال فى التشبه بالرجال ، أو بعض الحيوانات فى محاكاة ما للانسان من الأقوال والأفعال .

وأما فضيلة العفة ، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية للعقل ، حتى يكون تصرفها مقصوراً على أمره ونهيه ، فيقدم على ما فيه المصلحة وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه ، ولا يخالفه فى أوامره ونواهيه ، وينبغى أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونها فضيلة وكمالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها ، لا شئ آخر من دفع ضر ، أو جلب نفع ، أو اضطرار وإلجاء ، فالإعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الأزيد من جنسها ليس عفة ، كما هو شأن بعض تاركى الدنيا للدنيا ، وكذا الحال فى تركها لخمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها ، أو لحصول النفرة من كثرة تعاطيها ، أو للحذر من حدوث الأمراض والأسقام ، أو اطلاع الناس وتوبيخهم ، أو لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالى الجبال والبوادى . . الى غير ذلك .

وأما فضيلة الشجاعة ، فقد عرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه ، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كمالا وفضيلة ، فالإقدام على الامور الهائلة ، والخوض فى الحروب العظيمة ، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال ، أو للظفر بامرأة ذات جمال ، أو للحذر من السلطان ومثله ، أو للشهرة بين أبناء جنسه ، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة ، بل منشأها إما رذيلة الشره أو الجبن ، كما هو شأن عساكر الجائرين ، وقاطعى الطرق والسارقين ، فمن كان أكثر خوضاً فى الأهوال ، وأشد جرأة على الابطال

للوصول الى شيء من تلك الاغراض ، فهو أكثر جبناً وحرصاً ، لا أكثر شجاعة ونجدة . وقس على ذلك الوقوع فى المهالك والأهوال ، تعصباً عن الأقارب والاتباع ، وربما كان باعثه تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة ، فاغتر بذلك ولم يبال بالإقدام اتكالاً على العادة الجارية . ومَثَلُه مثلُ رجل ذى سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل ، فان عدم الحذر عنه ليس لشجاعته ، بل لعجز الطفل . ومن هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والإقدام ، فانه ليس صادراً عن ملكة الشجاعة ، بل عن طبيعة القوة والغلبة .

وبالجملة : الشجاع الواقعى ما كانت افعاله صادرة عن اشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة حسنة ، فربما كان الحذر عن بعض الأهوال من مقتضيات العقل فلا ينافى الشجاعة ، وربما لم يكن الخوض فى بعض الأخطار من موجباته فينافيها ، ولذا قيل عدم الفزع مع شدة الزلازل وتواتر الصواعق من علائم الجنون دون الشجاعة ، وايقاع النفس فى الهلكات بلا داع عقلى أو شرعى كتعرضه للسباع المؤذية ، أو إلقاء نفسه من المواضع الشاهقة ، أو فى البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من إمارات القحة والحماقة .

ثم الشجاع الحقيقى من كان حذره من العار والفضيحة أكثر من خوفه من الموت والهلاك ، فمن لا يبالى بذهاب شرفه ، وفضيحة أهله وحرمه ، فهو من أهل الجنون والحماقة ، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة ، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة احسن من الحياة بدونها ، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة . على أن الشجاعة فى المبادىء ربما كانت موذية ، وإنما تظهر لذتها فى العاقبة (لا) سيما اذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة ، والذب عن العقائد الحقة ، فان الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأى الصحيح إذا علم أن عمره فى معرض الزوال والدثور ، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر

الدهور ، يختار الجميل الباقى على الرذيل الفانى ، فيحامى عن دينه وشريعته ، ولا يبالى بما يحذر عنه غيره من ابناء طبيعته ، لعلمه بأن الجبان المقصر فى حماية الدين ، ومقاومة جنود الشياطين إن بقى أياماً معدودة ، فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة ، ولا ترضى نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية ، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لأصحابه : « أيها الناس إنكم إن لم تقتلوا تموتوا والذى نفس ابن ابى طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش » .

وبالجملة : كل فعل يصدر عن الشجاع فى أى وقت يكون مقتضى للعقل مناسباً لهذا الوقت واقعاً فى موقعه، وله قوة التحمل على المصائب، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب ، ولا يضطرب من شدائد الامور ، ويستخف بما يستعظمه الجمهور ، وإذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل ، وكان انتقامه مقصوراً على ما يستحسن عقلاً وشرعاً ، ولا يتعدى إلى ما لا ينبغى . وليس مطلق الانتقام مذموماً ، فربما كان فى بعض المواضع مستحسناً عند العقل والشرع ، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث فى النفس ذبولا لا يرتفع إلا بالانتقام ، وربما أدى هذا الذبول الى بعض الرذائل المهلكة .

وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة ، أو امتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة ، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب ، ولا يغلب بعضها على بعض ، ولا يقدم على شىء غير ما تقسط له العاقلة . وإنما يتم ذلك إذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لأجلها جميع الأفعال على نهج الاعتدال بسهولة ، ولا يكون له غاية فى ذلك سوى كونها فضيلة وكمالا ، فمن يتكلف أعمال العدول رياء وسمعة ، أو لجلب القلوب ، أو تحصيل الجاه والمال ليس عادلا .

وقس على ذلك جميع انواع الفضائل المندرجة تحت الأجناس المذكورة فانه بازاء كل منها رذيلة شبيهة بها . فينبغي لطالب السعادة ان يعرفها ويجتنب عنها ، مثلا السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق ، مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكمالا ، دون الأغراض الأخر ، فبذل المال لتحصيل الأزيد ، أو لدفع الضرر ، أو نيل الجاه ، أو للوصول الى شئ من اللذات الحيوانية ليس سخاءً ، وكذا بذله لغير المستحق والاسراف في انفاقه ، فان المبذّر جاهل بعظم قدر المال ، والاحتياج اليه في مواقع لولاه لأدى الى تضييع الأهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الأعمال ، وله دخل عظيم في ترويج احكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة ، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (ان الحكمة مع الثروة يقظان ، ومع الفقر نائم)(١) .
وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه ، وهذا يكون في الأغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث أوغيره مما لا يحتاج الى كد وعمل ، فان مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه ، اذ المكاسب الطيبة قليلة جداً ، وارتكابها للاحرار مشكل ، ولذا ترى أفاضل الأحرار ناقصي الحظوظ منه شاكين عن بختهم ، وأضدادهم على خلاف ذلك ، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان . وقد قال بعض الحكماء : «إن تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر الى قلة الجبل وانفاقه كاطلاقه» .

فصل

العدالة أشرف الفضائل

العدالة أشرف الفضائل وافضلها ، إذ قد عرفت أنها كل الفضائل

---

(١) كذا في النسخ ولم نعثر على مصدر لهذه الكلمة لتصحيحها .

او ما يلزمها ، كما أن الجور كل الرذائل أو ما يوجبها، لأنها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والأفعال ، ورد الزائد والناقص الى الوسط ، وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية ، بحيث يمتزج الكل وتتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث فى النفس فضيلة واحدة تقتضى حصول فعل متوسط بين افعالها المتخالفة ، وذلك كما تحصل من حصول الامتزاج والوحدة بين الاشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين افعالها المتخالفة، فجميع الفضائل مترتبة على العدالة ، ولذا قال افلاطون الإلهى : (العدالة إذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء نفسه ، ويستضىء بعضها من بعض ، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على أفضل ما يكون ، فيحصل لها غاية القرب الى مبدعها سبحانه) .

ومن خواص العدالة وفضيلتها انها أقرب الصفات الى الوحدة، وشأنها اخراج الواحد من الكثرات ، والتأليف بين المتباينات ، والتسوية بين المختلفات ، وردّ الاشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة إلى التوسط الذى هو الوحدة، فتصير المتخالفات فى هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد، وفى غيرها توجد اطراف متخالفة متكاثرة ، ولا ريب فى أن الوحدة أشرف من الكثرة ،وكلما كان الشىء أقرب اليها يكون أفضل وأكمل وأبقى وأدوم، ومن تطرق البطلان والفساد أبعد ، فالمتخالفات اذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت اكمل مما كان ، ولذا قيل : كمال كل صفة ان يقارب ضدها ، وكمال كل شخص ان يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة ، وتأثير الاشعار الموزونة والنغمات والايقاعات المتناسبة ، وجذب الصور الجميلة للنفوس ، إنما هو لوحدة التناسب ، ونسبة المساواة فى صناعة الموسيقى أو غيرها اشرف النسب لقربها إلى الوحدة ، وغيرها من النسب يرجع اليها.

وبالجملة: اختلاف الأشياء فى الكمال والنقص بحسب اختلافها فى الوحدة والكثرة ، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيق الذى هو موجد الكل ومبدؤه، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك ، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية ، فهو ظل من وحدته الحقة ، وكلما كان أقرب اليها يكون أشرف وجوداً ، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التى هى ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود، لأن تولّد المواليد من العناصر الأربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال ، وتعلق النفس الربّانية بالبدن انما هو لحصول نسبة الاعتدال ، ولذا يزول تعلقها به بزوالها ، بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت .

والتحقيق انها معنى وحدانى يختلف باختلاف محالها ، فهى فى الأجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجى ، وفى الأعضاء حسن ظاهرى ، وفى الكلام فصاحة ، وفى الملكات النفسية عدالة ، وفى الحركات غنج ودلال ، وفى النغمات ابعاد شريفة لذيذة والنفس عاشقة لهذا المعنى فى أى مظهر ظهر ، وبأى صورة تجلى ، وبأى لباس تلبس .

فانى أحبّ الحسن حيث وجدته   وللحسن فى وجه الملاح مواقع

والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الأشياء إذا لم تكن بينها مناسبة يحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجه ما،وفى هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق ، ويتعطر منها مشام اصحاب التأله والذوق ، فتعرّض لها إن كنت أهلاً لذلك .

وإذا عرفت شرف العدالة وايجابها للعمل بالمساواة، وردّ كل ناقص وزائد إلى الوسط، فاعلم: أنها إما متعلقة بالأخلاق والأفعال، أو بالكرامات

وقسمة الاموال ، أو بالمعاملات والمعاوضات ، أو بالأحكام والسياسات . والعادل فى كل واحد من هذه الأمور ما يحدث التساوى فيه برد الإفراط والتفريط إلى الوسط ، ولا ريب فى انه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط ، حتى يمكن رد الطرفين اليه ، وهذا العلم فى غاية الصعوبة ، ولا يتيسر إلا بالرجوع إلى ميزان معرف للأوساط فى جميع الاشياء ، وما هو إلا ميزان الشريعة الإلهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية، فانها هى المعرفة للأوساط فى جميع الاشياء على ما ينبغى ، والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة العملية، فالعادل بالحقيقة يجب ان يكون حكيما عالماً بالنواميس الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة .

وقد ذكر علماء الأخلاق أن العدول ثلاثة : « الأول » العادل الاكبر ، وهو الشريعة الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة . « الثانى » العادل الأوسط ، وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الإلهية والشريعة النبوية فانه خليفة الشريعة فى حفظ المساواة . « الثالث » العادل الصامت ، وهو الدينار لأنه يحفظ المساواة فى المعاملات والمعاوضات .

بيان ذلك : أن الانسان مدنى بالطبع فيحتاج بعض افراده إلى بعض آخر،ولا يتم عيشهم إلا بالتعاون ،فيحتاج الزارع إلى عمل التاجر وبالعكس، والنجار إلى عمل الصباغ وبالعكس،وهكذا فتقع بينهم معاوضات،فلا بد من حفظ المساواة بينها دفعاً للتنازع والتشاجر،ولا يمكن حفظها بالاعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك،وربما كان أدنى عمل مساوياً لعمل كثير كنظر المهندس،وتدبير صاحب الجيش،فان نظرهما فى لحظة واحدة ربما ساوى عملاً كثيراً لمن يعمل ويحارب،لحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الاعمال والأشياء المختلفة ، ليحصل الاعتدال والاستواء ، ويتبين وجه

الأخذ والاعطاء ، وتصح المشاركات والمعاملات على نهج لا يتضمن إفراطاً ولا تفريطاًقيل : وقد أشير إلى العدول الثلاثة فى الكتاب الإلهى بقوله سبحانه:

﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾(١).

فان الكتاب اشارة الى الشريعة ،والميزان إلى آلةمعرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار ، والحديد إلى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط .

هذا والمقابل للعادل ـ اعنى الجائر المبطل للتساوى أيضاً ـ إما جائر أعظم ـ وهو الخارج عن حكم الشريعة ـ ويسمى كافراً ـ أو جائر أوسط ـ وهو من لا يطيع عدول الحكام فى الأحكام ـ ويسمى طاغياً وباغياً ـ أو جائر اصغر ـ وهو من لا يقوم على حكم الدينار ، فيأخذ لنفسه أكثر من حقه ويعطى غيره أقل من حقه ـ ويسمى سارقاً وخائناً ـ .

ثم العدالة على أقسام ثلاثة :

. أحدها ، ما يجرى بين العباد وبين خالقهم سبحانه ، فانها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الامكان ، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات ومايحتاج اليه كل حى من الأرزاق والأقوات ، وهيأ لنا فى عالم آخر من البهجة والسرور ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، وما من يوم إلا ويصل الينا من نعمه وعطاياه ما تكل الألسنة عن حصره وعده ، فيجب أن يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التى لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة فى الجملة ، إذ من أعطى خيراً ولم يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر .

---

(١) الحديد : الآية : ٢٥ .

ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الأشخاص ، فان ما يؤدى به حق احسان السلطان غير ما يؤدى به حق احسان غيره ، فان مقابلة احسانه انما تكون بمثل الدعاء ونشر المحاسن ، ومقابلة احسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعى فى قضاء حوائجه وغير ذلك . والواجب سبحانه غنى عن معونتنا ومساعينا . ولا يحتاج إلى شىء من أعمالنا وأفعالنا ، ولكن يجب علينا بالنظر إلى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة فى الجملة، كمعرفته ومحبته ، وتحصيل العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ، والاجتهاد فى امتثال ما جاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة ،والسعى إلى المواقف الشريفة وغير ذلك. وان كان التوفيق لادراك ذلك كله من جملة نعمائه ، إلا أن العبد إذا أدى ما له فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات ، وترك ما تقتضى الضرورة بتمكنه على تركه من المعاصى والسيئات ، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه انه جائر مطلق ، وإن كان أصل تمكنه واختياره ، بل أصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه .

« الثانى » ما يجرى بين الناس بعضهم لبعض : من أداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة فى المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكابر والرؤساء واغاثة المظلومين والضعفاء . فهذا القسم من العدالة يقتضى ان يرضى بحقه . ولا يظلم أحداً . ويقيم كل واحد من أبناء نوعه على حقه بقدر الامكان ، لئلا يجور بعضهم بعضاً ،ويؤدى حقوق أخوانه المؤمنين بحسب استطاعته. وقد ورد فى الحديث النبوى: « إن للمؤمن على أخيه ثلاثين حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو : يغفر زلته ، ويرحم غربته ، ويستر عورته ، ويقيل عثرته ، ويقبل معذرته. ويرد غيبته ، ويديم نصيحته ، ويحفظ خلته ، ويرعى ذمته، ويعود مرضته ، ويشهد ميتته ، ويجيب دعوته ، ويقبل هديته ، ويكافىء

صلته ، ويشكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليلته ، ويقضى حاجته ، ويشفع مسألته ، ويسمت عطسته ، ويرشد ضالته ، ويرد سلامه ، ويطيب كلامه ، ويبر انعامه ، ويصدق أقسامه ، ويواليه ولا يعاديه ، وينصره ظالماً أو مظلوماً ، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه ، وأما نصرته مظلوماً فيعينه ظلمه ، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه ، ولا يسأمه ، ولا يخذله ، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه ».

« الثالث ، ما يجرى بين الاحياء وذوى حقوقهم من الاموات : من أداء ديونهم وانفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء. وقد أشار خاتم الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقسام العدالة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله » ، وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى خبر آخر : « الدين النصحية . قيل لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولعامة المؤمنين ».

ايقاظ

قد ظهر مما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط فى جميع صفاته وافعاله الباطنة والظاهرة، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط الاشياء المتخالفة ، والتثبت على مركز الاطراف المتباعدة . فكن ياحبيبى جامعاً للكمالات ، متوسطاً بين مراتب السعادات ، ومركزاً لدائرة نيل الافاضات . فكن أولا متوسطاً بين العلم والعمل جامعاً بينهما بقدر الامكان ، ولا تكتف بأحدهما حتى لا تكون واحداً من الرجلين القاصمين (١) لظهر

(١) اشارة الى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك) .

فخر الثقلين صلى الله عليه وآله وسلم . وكن في العمل متوسطاً بين حفظ الظاهر والباطن، فلا تكن في باطنك خبيثاً وظاهرك نقياً ، حتى تكون كشوهاء ملبسة بزي حوراء مدلسة بأنواع التدايسات ، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات ، بل ينبغي ان يكون ظاهرك مرآة لباطنك ، حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة . وكن في جميع ملكاتك الباطنة وافعالك الظاهرة متوسطاً بين الافراط والتفريط على مايقرع سمعك في هذا الكتاب . ثم كن في العلوم متوسطاً بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية ، فلا تكن من الذين قصروا أنظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات ، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم الى الالحاد والزندقة ، ولا من الذين صرفوا أعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحي والفرقان ، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة ، يدعون لأنفسهم الذكاء والفطانة وينسبون ورثة الانبياء إلى الجهل والبطالة . ثم كن في العقليات متوسطاً بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد أو التعصب، فتوسط بين الحكمة والكلام والاشراق والعرفان، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة، فلا تكن متكلماً صرفاً لا تعرف سوى الجدل ، ولا مشائياً محضاً اضاع الدين وأهمل ، ولا متصوفاً استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بينة وبرهان . وكن في العلوم الشرعية متوسطاً بين الأصول والفروع ، فلا تكن اخبارياً تاركاً للقواعد القطعية ، ولا أصولياً عاملاً بقياسات عامية . وقس على ذلك جميع أمورك الباطنة والظاهرة، واعمل به حتى يرشدك إلى طريق السداد ، ويوفقك لاكتساب زاد المعاد .

دفع اشكال

إن قيل : قد تلخص مما ذكر : أن الفضيلة فى جميع الاخلاق والصفات انما هو المساواة من غير زيادة ونقصان ، مع انه قد ثبت إن للتفضل محمود وهو زيادة ، فلا يدخل تحت العدالة الراجعة إلى المساواة . (قلنا) : التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع فى النقصان ، وليس الوسط فى طرفين من الأخلاق على نهج واحد ، فان الزيادة فى السخاء إذا لم يؤد إلى الاسراف احسن من النقصان عنه ، وأشبه بالمحافظة على شرائطه ، فالتفضل انما يصدر عن فضيلة العدالة ، لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها ، إذ المتفضل من يعطى المستحق أزيد مما يستحقه ، وهذه الزيادة ليست مذمومة ، بل هى العدالة مع الاحتياط فيها ، ولذا قيل : « إن المتفضل أفضل من العادل » ، والمذموم ان يعطى غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين ، لأنه انفق فيما لا ينبغى أو على مالا ينبغى ، وصاحبه لا يسمى متفضلا بل مضيعاً ، ولكون التفضل احتياطاً إنما يحسن من الرجل بالنسبة إلى صاحبه فى المعاملة التى بينهما ، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب فى ما يحكم فيه لم يسعه إلا العدل المحض ولم يجز له التفضيل.

تتميم

(اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان)

قد تلخص ان حقيقة العدالة أو لازمها ان يغلب العقل الذى هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلاً منها فيما يقتضى رأيه ، فلا يفسد نظام العالم الانسانى ، فان الواجب سبحانه لما ركب الانسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة ، فهى إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير ، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر ، وجذبه كل واحدة منها

إلى ما يقتضيه ويشتهيه ، كما هو الشأن فى كل مركب . وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها . فيجب على كل انسان ان يجاهد حتى يغلب عقله الذى هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة ، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم .

ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من اجراء احكام العدالة بين شركائه فى المنزل والبلد ، اذ العاجز عن اصلاح نفسه كيف يقدر على اصلاح غيره ، فان السراج الذى لا يضىء قريبه كيف يضىء بعيده ، فمن عدل قواه وصفاته أولا واجتنب عن الإفراط والتفريط واستقر على جادة الوسط ، كان مستعداً لسلوك هذه الطريقة بين ابناء نوعه ، وهو خليفة الله فى أرضه . وإذا كان مثله حاكماً بين الناس وكان زمام مصالحهم فى قبضة اقتداره ، لتنورت البلاد بأهلها ، وصلحت امور العباد بأسرها ، وزاد الحرث والنسل ، ودامت بركات السماء والأرض .

وغير خفى أن اشرف وجوه العدالات وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعمها هو عدالة السلطان ، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة ، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال ، ومع جور السلطان امواج الفتن متلاطمة ، وافراج المحن متراكمة ، وعوائق الزمان متزاحمة ، وبوائق(١) الحدثان متصادمة ، وطالبو الكمال كالحيارى فى الصحارى لا يجدون الى منازله سبيلا ولا الى جداوله مرشداً ودليلا ، وعرصات العلم والعمل دراسة الآثار ،

(١) البائقة : الداهية والشر . ويقال : رفعت عنك بائقة فلان أى غائلته وشره ، جمعه بوائق .

ومنازلها مظلمة الأرجاء والأقطار ، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات ، اعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لافراد الانسان . ولذا لو تصفحت في امثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد ، لم تجد من الالوف واحداً تمكن من اصلاح نفسه ويكون يومه خيراً من أمسه ، بل لا تجد ديّناً إلا وهو باك على فقد الاسلام وأهله ، ولا طالباً إلا وهو لعدم المكنة باق على جهله . ولعمري إن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من انه : « لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه » .

وبالجملة : المناط كل المناط في تحصيل الكمالات واخراج النفوس من الجهالات ، هو عدالة السلطان ، واعتناؤه باعلاء الكلمة ، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة ، ولذا ورد في الآثار : (أن السلطان إذا كان عادلا كان شريكا في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية ، وإن كان جائراً كان سهيما في معاصيهم) . وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « أقرب الناس يوم القيامة الى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم » . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . والسر أن اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل الى جميع المدن والأمصار ويبقى على مر الدهور والأعصار ، وقال بعض الأكابر : لو علمت انه يستجيب لي دعوة واحدة لخصصتها باصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه .

تنوير

(لا حاجة الى العدالة مع رابطة المحبة)

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا الى سلسلة

العدالة ، فان أهل الوداد والمحبة فى مقام الإيثار ولو كان بهم خصاصة ، فكيف يجور بعضهم على بعض . والسر ان رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة ، لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية ، والعدالة وحدة قهرية قسرية . على انها لا تنتظم بدون المحبة ، لكونها باعثة للايجاد ، كما اشير اليه فى الحديث القدسي : «كنت كنزاً مخفياً فاحببت أن اعرف» . فالمحبة هو السلطان المطلق ، والعدالة نائبها وخليفتها (١) .

وصل

(التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي)

لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي ان لا يتعدى عنه . وبيان ذلك : ان مبادىء الحركات المؤدية الى الكمالات : إما طبيعية كحركة النطفة فى الاطوار المختلفة الى بلوغ كمال الحيوانيه ، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات الى بلوغ كمال السريرية . ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها الى المبادىء العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة الى الانسان ، ولما كان كمال الثوانى ان تتشبه بالأوائل ، فينبغي ان تقتدى الصناعية فى تحريكاتها المؤدية الى كمالها بالطبيعية .

وإذ ثبت ذلك فاعلم : إن تهذيب الأخلاق لما كان أمراً صناعياً لزم ان يقتفى فى تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة فى ترتيب حصولها ، فنقول : لا ريب فى أن أول ما يحصل فى الطفل قوة طلب الغذاء ، وإذا زادت تلك القوة يبكى ويرفع صوته لأجل الغذاء ، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ

(١) ولذلك ان الشريعة الاسلامية أول ما دعت فيما دعت الى الاخوة والتآلف بين الناس ، وكثير من احكامها مثل الجماعة والجمعة والايثار والاحسان وتحريم الغيبة والنبز ونحو ذلك تستهدف إيجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والافراد ، ليستغنوا عن الأخذ بقانون العدل الصارم المر .

بعض الصور يطلب صورة الام أو الظئر (١)، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية. ونهاية هذه القوة وكمالها ان يتم ما يتعلق بالشخص من الامور الشهوية، وينبعث منه الميل الى استبقاء النوع، فيحدث ميل النكاح والوقاح. ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره. وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والاقدام على حفظ النوع، فيحدث فيه الميل الى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات. ثم تظهر فيه آثار قوة التميز وتتزايد الى ان يتمكن من تعقل الكليات.

وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل، ويكون ابتداء التكميل الصناعى، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقى على هذه الحالة، ولم يبلغ الى الكمال الحقيقى الذى خُلق الانسان لأجله، لأنه لم يخلق أحد مجبولا على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من أُيِّد من عند الله بالنفس القدسية، وإن كان بعض الناس اكثر استعداداً لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر، فلابد لجل الأنام فى تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.

فظهر مما ذكر: ان الطبيعة تولد أولاً قوّة الشهوة، ثم قوة الغضب، ثم قوة التميز، فيجب أن يقتدى به فى التكميل الصناعى، فيهذب أولا القوة الأولى ليكتسب العفة، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة، ثم الثالثة ليتحلى بالحكمة، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمى كان تحصيل الباقى له فى غاية السهولة، ومن حصله لا على الترتيب، فلا يظن ان تحصيل الباقى حينئذ متعذر بل هو ممكن، وإن كان أصعب بالنسبة الى تحصيله بالترتيب، فان عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره، كما ان الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه.

(١) يريد بها المرضعة.

فلا يترك السعي والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال ، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول الى ما هو المقصد والمطلب .

ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعي في حفظها وابقائها ، وإن لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلا وجب تحصيلها بازالة الضد . ولذا كان فن الأخلاق على قسمين : (احدهما) راجع الى حفظ الفضائل ، (وثانيهما) نافع في دفع الرذائل ، فيكون شبيهاً بعلم الطب ، من حيث انقسامه الى قسمين: (أحدهما) في حفظ الصحة ، (وثانيهما) في دفع المرض ، ولذا يسمى طباً روحانياً ، كما أن الطب المتعارف يسمى طباً جسمانياً . ومن هنا كتب جالينوس الى روح الله ﷺ : « من طبيب الأبدان الى طبيب النفوس » . فكما ان لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني علاجاً خاصاً ، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وازالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة ، كما نذكره ان شاء الله تعالى .

الباب الثالث

فى طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالها

بإزالة نقائضها المذمومة

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل ـ قانون العلاج فى الطب الروحانى ـ طريقة معرفة الأمراض النفسية ـ المعالجات الكلية لأمراض النفس ـ المعالجات الخاصة لأمراض النفس . وله أربعة مقامات :

(الأول) ما يتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج الرذائل .

(الثانى) ما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .

(الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهويه من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .

(الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها .

وفيه فصول (١) :

فصل

(الطريق لحفظ اعتدال الفضائل)

قد تقرر في الطب الجسماني أن حفظ الصحة بايراد المثل وملائم المزاج، فيجب أن يكون حفظ اعتدال الفضائل ايضاً بذلك . وايراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بامور :

﴿ منها ﴾ اختيار مصاحبة الأخيار ، والمعاشرة مع اولى الفضائل الخلقية ، واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة ، والاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوى الأخلاق السيئة ، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الأفعال ومزخرفاتهم ، فإن المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه ، فإن الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشر . والسر : أن النفس الانسانية ذات قوى بعضها يدعو الى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضي الشرور والرذائل ، وكلما حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال اليه وغلب على صاحبه الى الخير ، ولكون دواعى الشر من القوى اكثر من بواعث الخير منها ، يكون الميل الى الشر أسرع وأسهل بالنسبة الى الميل الى الخير ، ولذا قيل : إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود الى الأعالى ، وكسب الرذائل بمثابة النزول منها . والى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » .

﴿ ومنها ﴾ إعمال القوى في شرائف الصفات ، والمواظبة على الأفعال التى هى آثار فضائل الملكات ، وحمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق

(١) هذه الفصول كتمهيد للمقامات الأربعة التى تتعلق بالعلاج الخاص لذمائم الأخلاق ،

الذى يريد حفظه ، فالحافظ لملكة الجود يجب أن يواظب على انفاق المال وبذله على المستحقين ، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها الى الامساك ، والحافظ لملكة الشجاعة يجب ألا يترك الاقدام فى الأخطار والأهوال بشرط اشارة العقل ، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها . وهكذا الحال فى سائر الصفات . وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية فى حفظ الصحة البدنية .

﴿ ومنها ﴾ ان يقدم التروى على كل ما يفعله ، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة . ولو صدر عنه أحياناً خلاف مقتضاها ، فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده ، ويشق عليها عقوبة ، بعد تعييرها وتوبيخها ، كما إذا أكل ما يضره من المطاعم فليؤدبها بالصوم ، وإذا صدر عنه غضب مذموم فى واقعة فليؤدبها بايقاعها فى مثلها مع الصبر عليها ، أو فى معرض اهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤدبها بارتكاب ما يشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك . وينبغى ألا يترك الجد والسعى فى التحصيل والحفظ وان بلغ الغاية ، لأن التعطيل يؤدى الى الكسالة وهى الى انقطاع فيوضات عالم القدس ، فتنسلخ الصورة الانسانية وتحصل الهلاكة الأبدية . والسعى يوجب ازدياد تجرد النفس وصفائها والانس بالحق والألف بالصدق (١) . فيتنفر عن الكذب والباطل ، ويتصاعد فى مدارج الكمالات ومراتب السعادات ، حتى تنكشف له الاسرار الإلهية والغوامض الربانية ، ويتشبه بالروحانيات القادسة ، وينخرط فى سلك الملائكة المقدسة . ويجب ان يكون سعيه فى امور الدنيا بقدر الضرورة ، ويحرم على نفسه تحصيل الزائد ، لأنه لا شقاوة أشد من صرف الجوهر الباقى النورانى فى تحصيل الخزف الفانى الظلمانى الذى يفوت عنه وينتقل الى أعدائه من الوراث وغيرهم .

---

(١) كذا فى النسخ . والصحيح « للصدق » .

﴿ ومنها ﴾ أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعاً وتخيلا، ومن هيّجهما كمن هيّج كلباً عقوراً أو فرساً شموساً ، ثم يضطر الى تدبير الخلاص عنه . وإذا تحركتا بالطبع فليقتصر فى تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافى حفظ الصحة ، وهو القدر الذى جوزه العقل والشريعة .

﴿ ومنها ﴾ أن يستقصى فى طلب خفايا عيوب نفسه ، وإذا عثر على شىء منها اجتهد فى إزالته . ولما كانت النفس عاشقة لصفاتها وأفعالها ، فكثيراً ما يخفى عليها بعض عيوبها ، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض اصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه ، وإذا أخبره بشىء منها فليفرح وليبادر الى ازالته حتى يثق صديقه بقوله . ويعلم أن اهداء شىء من عيوبه اليه أحسن عنده من كل ما يحبه ويهواه ، وربما كان العدو فى هذا الباب انفع من الصديق ، لأن الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره ، والعدو مصر على اظهاره ، بل ربما يتجاوز الى البهتان ، فاذا أظهر الأعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر الى رفعها وقمعها .

ومما ينفع فى المقام ان يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم ، وإذا عثر على عيب منهم تأمل فى قبحه ، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحاً ويدرك غيره هذا القبح ، فليجتهد فى إزالته . وينبغى أن يحاسب نفسه فى آخر كل يوم وليلة ، ويتفحص عن جميع ما صدر من الأفعال فيهما ، فان لم يصدر عنه شىء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده ، وإن صدر عنه شىء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب ، ويجتهد فى ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله .

قانون العلاج في الطب الروحاني

﴿ تنبيه ﴾ قد تبين أن للطب الروحانى أسوة بالطب الجسمانى . والقانون فى معالجة الأمراض الجسمانية ان يعرف جنس المرض أولا ، ثم الأسباب والعلامات ، ثم يبين كيفية العلاج . والعلاج فيه إما كلى يتناول جميع الامراض ، أو جزئى يختص بمرض دون مرض ، فكذلك الحال فى الطب الروحانى . ونحن نشير الى ذلك فى فصول :

فصل

(طريق معرفة الأمراض النفسانية)

الأمراض النفسانية هى انحرافات الأخلاق عن الاعتدال . وطريق معرفتها : أنك قد عرفت ان القوى الانسانية محصورة فى أنواع ثلاثة : (احدها) قوة التمييز ، (وثانيها) قوه الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع ، (وثالثها) قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب . وانحراف كل منها إما فى الكمية أو فى الكيفية ، والانحراف فى الكمية إما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه . والانحراف فى الكيفية إنما يكون برداءتها . فامراض كل قوة إما بحسب الافراط أو التفريط ، أو بحسب رداءة الكيفية .

فالافراط فى قوة التمييز : كالجربزة والدهاء ، والتجاوز عن حد النظر ، والمبالغة فى التنقير (١) ، والتوقف فى غير موضعه للشبه الواهية ، والحكم على المجردات بقوة الوهم ، وإعمال الذهن فى ادراك ما لا يمكن دركه ، والتفريط فيه كالبلاهة ، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب ، كإجراء أحكام المحسوسات على المجردات . والرداءة كالسفسطة فى الاعتقاد ، والميل

(١) التنقير : البحث والتقبيع .

الى العلوم الغير اليقينية - كعلم الجدل والخلاف - أزيد مما يميل الى اليقينيات ، واستعمالها فى مقام اليقينيات ، والشوق الى علم الكهانة والشعبذة وأمثالها للوصول الى الشهوات الخسيسة .

وأما الافراط فى قوة الدفع : كشدة الغضب والغيظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع . وأما التفريط : كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالأطفال والنسوان فى الأخلاق والصفات . وأما الرداءة فيها : كالغيظ على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام .

وأما الإفراط فى قوة الجذب : فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر الضرورة . والتفريط فيه : فكالفتور عن تحصيل الأقوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل . أما الرداءة فيها : كشهوة الطين والميل الى مقاربة الذكور .

ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة ، فأجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية ، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر ، وبحسب الكيفية أربعة ، ويحصل من تركيبها وامتزاجها انواع واصناف لا يعد كثرة ، كما عرفت أكثرها .

فصل

(أسباب الأمراض النفسانية)

إعلم أن اسباب الانحراف فى الأخلاق ، إما نفسية حاصلة فى النفس فى بدو فطرتها ، أو حادثة من مزاولتها الأعمال الردية ، أو جسمية - وهى الأمراض الموجبة لبعض الملكات الرديّة - والسر فى ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية ، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر ، وكل

كيفية تحدث فى احدهما تسرى فى الآخر ، كما أن غضب النفس أو تعشقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه ، وتأثر البدن بالأمراض ، (لا) سيما إذا حدثت فى الأعضاء الرئيسية يوجب النقص فى ادراك النفس وفساد تخيلها . وكثيراً ما يحدث من بعض الأمراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء الظن ، ومن بعضها التهور ، ويحصل من أكثر الأمراض سوء الخلق .

فصل

(المعالجات الكلية لمرض النفس)

سبب الانحراف إن كان مرضاً جسمانياً فيجب أن يبادر الى ازالته بالمعالجات الطبية ، وإن كان نفسانياً فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية فى الطب الجسمانى . والمعالجة الكلية فيه ان يعالج المرض اولاً بالغذاء الذى هو ضد المرض طبعاً ، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار ، فإن لم ينفع فبالدواء ، وإن لم ينجع فبالسمومات ، وإن لم يحصل بها البرء فبالكى أو القطع ، وهو آخر العلاج . فالقانون الكلى فى المعالجة هنا ايضاً كذلك ، وهو أن يبادر بعد معرفة الانحراف الى تحصيل الفضيلة التى هى ضده ، والمواظبة على الأفعال التى هى آثارها ، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد المرض . فكما ان حصول الحرارة فى المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه ، فكذا كل فضيلة تحدث فى النفس تزيل الرذيلة التى هى ضدها . فان لم ينفع فليوبخ النفس ويعيرها على هذه الرذيلة فكراً أو قولا أو عملا ، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال : أيتها النفس الامارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه ، وعن قريب تعذبين فى النار مع الشياطين والاشرار . فان لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التى هى ضد هذه الرذيلة ، بشرط محافظة التعديل ، فصاحب الجبن مثلا يعمل

أعمال المتهورين ، فيخوض فى المخاوف والأهوال ، ويلقى نفسه فى موارد الحذر والأخطار . وصاحب البخل يكثر من بذل الأموال ، بشرط أن يكفّ إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع فى التهور والاسراف ، وهذا بمنزلة المداواة بالسم . فإن لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة ، وهذا بمثابة الكى والقطع ، وهو آخر العلاج .

المعالجات الخاصة لمرض النفس

﴿ تنبيه ﴾ لمّا عرفت المعالجـــة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها وأنواعها وأصنافها ، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه . وقد عددنا قبل ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور ، فههنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها ، ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة ، وما ورد فى مدحها عقلا ونقلا ، لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شئ على ازالة ما يضادها من الرذيلة . وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة فى الاسم مشتركة فى المعالجة ، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منهما ، فنحن نشير الى ذلك ، ونشير ايضاً فى تلو كل رذيلة وفضيلة الى ما يتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته ـ إن كان له ذلك ـ ونراعى الترتيب المذكور فى مقام الاجمال : فنذكر أولا ما يتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وأنواعهما ، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها ، فهنا أربعة مقامات :

المقام الأول

(فى معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة)

الجربزة وعلاجها ـ الجهل البسيط وعلاجه ـ شرف العلم والحكمة ـ آداب التعلم والتعليم ـ العلم الإلهى والأخلاق والفقه أشرف العلوم ـ اصول العقائد المجمع عليها ـ الجهل المركب والشك ـ اليقين ـ علامات صاحبه ـ مراتب اليقين ـ الشرك ـ التوحيد ـ التوكل على الله ـ حق التوكل بماذا يحصل ـ مناجاة السر لأرباب القلوب ـ الخواطر النفسانية والوساوس ـ أقسام الخواطر ومنها الالهام ـ المطاردة بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة النفس ـ العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة ـ علاج الوساوس ـ ما يتم به علاج الوساوس ـ ما يتوقف قطع الوساوس عليه ـ حديث النفس لامؤاخذة عليه ـ الخاطر المحمود والتفكر ـ مجارى التفكر فى العوالم والمخلوقات .

اما جنسا رذائلها (١) ﴿ فأولهما ﴾ :

الجربزة

الموجبة للخروج فى الفكر عن الحد اللائق وعدم استقامة الذهن على شئ ، بل لا يزال يستخرج اموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه ، وربما أدى فى العقليات الى الالحاد وفساد الاعتقاد ، بل الى نفى حقائق الأشياء رأساً كما للسوفسطائية ، وفى الشرعيات الى الوسواس .
(وعلاجه) بعد تذكر قبحه وإيجابه للهلاك ، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند اولى الأفهام المستقيمة ، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة ، ولا يزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط . وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع فى ذلك .

﴿ وثانيهما ﴾ :

الجهل البسيط

وقد عرفت أنه من باب التفريط ، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة . وهو فى البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه ، إذ ما لم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنتهض لتحصيلها . وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة . والطريق فى ازالته امور : (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبحه ونقصه عقلا ، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس انساناً بالحقيقة ، وإنما يطلق عليه الانسان مجازاً ، إذ فضل الانسان عن سائر الحيوانات إنما هو ادراك

(١) أى القوة العاقلة .

الكلى المعبر عنه بالعلم، لمشاركتها معه فى سائر الامور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك. فلولا علمه بحقائق الأشياء وخواصها لكان حيواناً بالحقيقة، ولذا ترى أن من كان فى محل محاورات العلماء وكان جاهلا بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة اليهم. وأى هلاك أعظم من الخروج عن حدود الانسانية والدخول فى حد البهيمية. (الثانى) أن يتذكر ما ورد فى الشريعة من الذم عليه مثل قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «ستة يدخلون فى النار قبل الحساب لستة، وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة. (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلا ونقلا كما نذكره. واذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة، ويصرف فى إزالته الهمة، ويجتهد فى تحصيل العلم عن أهاليه، ويصرف فيه أيامه ولياليه.

فصل

(شرف العلم والحكمة)

قد علم أن ضد الجنسين ـ أى الجربزة والسفسطة والجهل ـ هو الحكمة، اعنى العلم بحقائق الأشياء. فلنذكر أولا بعض ما يدل على شرافته عقلا ونقلا، ترغيباً للطالبين على السعى فى تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم، فنقول:

لا ريب فى أن العلم أفضل الفضائل الكمالية وأشرف النعوت الجمالية، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجمل السمات الالوهية، وهو الموصل الى جوار رب العالمين والدخول فى افق الملائكة المقربين، وهو المؤدى الى دار المقامة التى لا تزول ومحل الكرامة التى لا تحول، وقد تطابق العقل والبرهان واجماع ارباب الأديان على: أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه

لا يتيسران بدونه ، وأى شيء أفضل مما هو ذريعة اليهما . وأيضاً قد ثبت فى الحكمة المتعالية : أن العلم والتجرد متلازمان ، فكلما تزداد النفس علماً تزداد تجرداً ، ولا ريب فى أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للانسان ، إذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى وأهل القرب من الله تعالى .

ومن جملة العلوم معرفة الله التى هى السبب الكلى لايجاد العالم العلوى والسفلى ، كما دل عليه الخبر القدسى : «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق» . على أن العلم لذيذ فى نفسه محبوب فى ذاته ، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج قلما يحصل من غيره . والسر فيه ان ادراك الأشياء والاحاطة بها نوع تملك وتصرف لها ، إذ تتقرر فى ذات المدرك حقائقها وصورها ، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك أقوى من ملكية الأعيان المباينة لذات المالك الزائلة عنه . والتحقيق : أن اطلاق الملكية عليه مجازى ، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحب القهر والاستيلاء على الأشياء والمالكية لها بأى نحو كان ، إذ معنى الربوبية التوحد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء .

ثم من فوائد العلم فى الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والأشرار ، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار ، فان طباع الأنام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ووجوب اطاعتهم واحترامهم ، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له ، لاختصاصه بقوة الادراك ومزيد التمييز . ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحداً له تفوق وزيادة على غيره فى جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع الى اختصاصه بمزيد تمييز وادراك ، ولو كان من باب المكر والحيل .

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثر من أن

تحصى . نبذة منها قوله تعالى :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (١).

وقوله تعالى :

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »(٢).

وقوله تعالى :

« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً »(٣).

وقوله تعالى :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »(٤).

وقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اللهم ارحم خلفائى . قيل: يا رسول الله ! من خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدى ويروون حديثى وسنتى » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأبى ذر : « جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب الى الله تعالى من قيام الف ليلة يُصلى فى كل ليلة الف ركعة وأحب اليه من ألف غزوة ، ومن قراءة القرآن كله اثنى عشر الف مرة ، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبى من الأنبياء ، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر ، وأعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة فى الجنة ، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون ، ولا يحبّ العلم إلا السعيد ، وطوبى لطالب العلم ، والنظر فى وجه العالم خير من عتق ألف رقبة،

(١) الفاطر ، الآية : ٢٨ . (٢) الزمر ، الآية : ٩ .
(٣) البقرة ، الآية : ٢٦٩ . (٤) العنكبوت ، الآية : ٤٣ .

ومن أحب العلم وجبت له الجنة ، ويصبح ويمسى فى رضى الله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ، ولا يأكل الدود جسده ، ويكون فى الجنة رفيق خضر ﷺ » .

وقول أمير المؤمنين ﷺ : « ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال . وإن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم ، وقد ضمنه وسَيَفِي لكم ، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه » .

وقوله ﷺ : « إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم ، تكون تلك الورقة ستراً بينه وبين النار ، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات » .

وقول سيد الساجدين على بن الحسين - عليهما السلام - : « لو يعلم الناس ما فى طلب العلم لطلبوه ، ولو بسفك المهج وخوض اللجج » .

وقول الباقر ﷺ : « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد » .

وقول الصادق ﷺ : « لو يعلم الناس ما فى فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم الى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم ، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل فى روضات الجنان مع أولياء الله . إن معرفة الله تعالى انس من كل وحشة ، وصاحب من كل وحدة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم ، قد كان قوم قبلكم يُقتلون ويُحرقون ويُنشرون وتضيق عليهم الأرض برحبها ، فما يردهم عما هم عليه شئ مما هم فيه من غير ترة وتروا مَن فَعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم :

« إلّا أن يُؤمِنُوا بِاللهِ العَزيزِ الحَميدِ » (١) ،

(١) البروج ، الآية : ٨ .

فاسألوا ربكم درجاتهم ، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم » .

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه ـ عليهم السلام ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ انه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فاطلبوا العلم فى مظانه ، واقتبسوه من أهله . فان تعلمه لله تعالى حسنة ، وطلبه عبادة ، والمذاكرة به تسبيح ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة الى الله ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة . والمؤنس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة والوحـــدة ، والمحدث فى الخلوة . والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء . والزين عند الأخلاء . يرفع الله به أقواماً ، ويجعلهم فى الخير قادة ، تقتبس آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى الى آرائهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وفى صلاتها تبارك عليهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه. إن العلم حياة القلوب من الجهل ، وضياء الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار والدرجات العلى فى الآخرة والاولى . الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . به يطاع الرب ويعبد ، وبه توصل الأرحام ، ويعرف الحلال والحرام . العلم إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه » .

آداب التعلم والتعليم

﴿ تنبيه ﴾ لكل من التعلم والتعليم آداب وشروط :

﴿ أما آداب التعلم ﴾ :

(فمنها) أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا . ولقد قال بعض الأكابر : « كما أن الحاسة الجلدية إذا كانت

مؤوفة برمد ونحوه فهى محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس ، كذلك البصيرة إذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهى محرومة من ادراك الأنوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الانسية » .

(ومنها) ان يكون تعلمه لمجرد التقرب الى الله والفوز بالسعادات الاخروية ، ولم يكن باعثه شيئاً من المراء والمجادلة ، والمباهاة والمفاخرة ، والوصول الى جاه ومال ، أو التفوق على الأقران والأمثال . قال الباقر عليه السلام : « من طلب العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار . إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها » . وقال الصادق عليه السلام : « طلبة العلم ثلاثة ، فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم : صنف يطلبه للجهل(١) والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل . فصاحب الجهل والمراء مؤذ ممار ، متعرض المقال فى أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم ، وقد تسربل بالخشوع وتخلى من الورع ، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه . وصاحب الاستطالة والختل ذو خب وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه ، ويتواضع للأغنياء من دونه ، فهو لحلوانهم(٢) هاضم ولدينه حاطم ، فاعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره . وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد تحنك فى برنسه وقام الليل فى حندسه ، يعمل ويخشى وجلاً داعياً مشفقاً مقبلا على شأنه عارفاً بأهل زمانه

---

(١) (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة .

(٢) قال الشيخ (ملا صالح المازندرانى) فى تعليقته على اصول الكافى عن هذا الحديث: « الحلوان — بضم الحاء المهملة وسكون اللام — ما تأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الأجر والرشوة على أعمالهم ، يقال : حلوته أحلوه حلواناً ، فهو مصدر كالغفران ، ونونه زائدة ، وأصله من الحلاوة ، وفى بعض النسخ (بحلوائهم) — بالهمزة بعد الألف — والحلواء — بالمد والقصر — ما يتخذ من الحلاوة »

مستوحشاً من أوثق اخوانه ، فشد الله من هذا اركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه ».

(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم ، فان من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم . وقال الصادق ﷺ : « العلم مقرون الى العمل ، من علم عمل ، ومن عمل علم ، والعلم يهتف بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل عنه » . وعن السجاد ﷺ : « مكتوب في الانجيل : لا تطلبوا علم ما لا تعملون ولما تعملوا بما علمتم ، فان العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدده من الله إلا بعداً » . وعن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا ، ومن أراد به الدنيا فهي حظه » . وعنه - صلى الله عليه وآله وسلم - : « العلماء رجلان : رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك ، وأن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وأن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله فاستجاب له وقبل منه ، فاطاع الله فأدخله الجنة ، وأدخل الداعي النار بترك عمله (١) واتباعه الهوى وطول الأمل ، اما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة » .

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والأدب للمعلم ، ولا يرد عليه شيئاً بالمواجهة ، ويكون محباً له بقلبه ، ولا ينسى حقوقه ، لأنه والده المعنوي الروحاني ، وهو أعظم الآباء الثلاثة . قال الصادق ﷺ : « اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم » .

هذا وقد اشرنا سابقاً الى أن اللازم لكل متعلم أن يطهر نفسه أولا من رذائل الأخلاق وذمائم الأوصاف باسرها ، إذ ما لم يجرد لوح نفسه عن

---

(١) صححناه على بعض نسخ اصول الكافي المصححة وفي نسخ جامع السعادات هكذا : (بتركه علمه) .

النفوس الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من ألواح العقول الفعالة القدسية .

﴿ وأما آداب التعليم ﴾ :

(فمنها) ان يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوى من طمع مالى أو جاه ورئاسة أو شهرة بين الناس ، بل يكون الباعث مجرد التقرب الى الله تعالى والوصول الى المثوبات الأبدية ، فإن من علم غيره علماً كان شريكا فى ثواب تعليم هذا الغير لآخر ، وفى ثواب تعليم هـــذا الآخر لغيره ... وهكذا الى غير النهاية ، فيصل بتعليم واحد الى مثوبات التعاليم الغير المتناهية ، وكفى بهذا له فضلا وشرفاً .

(ومنها) ان يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له ، مقتصراً فى الافادة على قدر فهمه ، متكلماً معه باللين والهشاشة لا بالغلظة والفظاظة .

(ومنها) أن لا يضن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله ، لأن بذل الحكمة للجهال ظلم عليها ، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم ، كما ورد فى الخبر (١) .

(ومنها) أن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم حتى يرجع اليه ويعلمه ، ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع . وهذا الشرط لا يختص بالمعلمين ، بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتى والقاضى وأمثالها . وقال الباقر عليه السلام : « حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون »(٢)

---

(١) روي فى اصول الكافى فى باب بذل العلم عن الصادق ـ عليه السلام ـ : « قام عيسى بن مريم خطيبا فى بنى اسرائيل فقال : يا بنى اسرائيل ! لا تحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » .

(٢) الحديث المروى فى اصول الكافى هكذا : « عن زرارة بن أعين قال : سألت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ ما حق الله على العباد ؟ قال : ان يقولوا ما يعلمون ... » الى آخر الحديث .

وقال الصادق ﷺ : « إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه : ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردّوا ما لم يعلموا ، فقال :

« أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ » (١) . وقال : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » (٢).

وعنه ﷺ : « إذا سئل الرجل منكم عما لا يعلم ، فليقل : لا أدرى ، ولا يقل : الله أعلم ، فيوقع فى قلب صاحبه شكا . وإذا قال المسؤل : لا أدرى ، فلا يتهمه السائل » . وعنه ﷺ : « إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك . إياك أن تفتى الناس برأيك ، أو تدين بما لا تعلم » . وعن الباقر ﷺ : « من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ولحقه وزر من عمل بفتياه » .

وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق . ثم العارف بأهل زماننا يعلم ان آداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة ، والأمر فى مثل الزمان كما قال فى وصفه بعض أهل العرفان : « قد فسد الزمان وأهله ، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله ، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه ، واندرست مراسمه بين طلابه » .

تتميم

(العلم الإلهى وعلم الأخلاق والفقه أشرف العلوم)

العلم كله وإن كان كمالا للنفس وسعادة ، إلا ان فنونه متفاوتة فى الشرافة

(١) الاعراف ، الآية : ١٦٩ . (٢) يونس ، الآية : ٣٩ .

والجمال ووجوب التحصيل وعدمه ، فان بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وامثالها ، مما ترجع جل فائدته الى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة فى العقبى ، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة ، ولا يجب تحصيلها ، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية .

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله ، وأشرف العلوم وأحسنها هو العلم الإلهى المعرف لاصول الدين ، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها ، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات ، والعلوم التى مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة . وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها اجمالا إلا انها فى كيفية الأخذ مختلفة : فعلم الأخلاق يجب أخــذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق ، وعلم الفقه يجب أخذ بعضه عيناً إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حى ، والتارك للطريقين غير معذور ، ولذا ورد الحث الأكيد على التفقه فى الدين . قال الصادق ﷺ : « عليكم بالتفقه فى دين الله ولا تكونوا اعراباً ، فانه من لم يتفقه فى دين الله لم ينظر اليه يوم القيامة ولم يزكّ له عملا » ، وقال : « ليت السياط على رؤس اصحابى حتى يتفقهوا فى الحلال والحرام » ، وقال ﷺ : « إن آية الكذاب ان يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب ، فاذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء » .

وأما اصول العقائد فيجب أخــذها عيناً من الشرع والعقل ، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر ، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذى تطابق احكامه الواقع ونفس الأمر ، فلا يرد حكمه ، ولولاه لما عرف الشرع ، ولذا ورد : « انه ما أدى العبد

فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين فى فضل عبادتهم ما بلغ العاقل ، (١) . فهما متعاضدان ومتظاهران . وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً ، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة ، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل ، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج . وما يتراءى فى بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب الى الشرع منه . فإن كل عقل ليس تاماً . وكلما ينسب الى الشرع ليس ثابتاً منه ، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة ، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي ، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا الى دركه ، كتفاصيل احوال نشأة الآخرة . فاللازم فى مثله أن نأخذه منه إذعاناً وإن لم نعرف مأخذه العقلي .

اصول العقائد المجمع عليها

ثم ما أجمعت الامة المختارة عليه من اصول العقائد هو : أن الواجب سبحانه موجود ، وانه واحد فى الالوهية ، وبسيط عن شوائب التركيب ، ومنزه عن الجسمية وعوارضها ، وان وجوده وصفاته عين ذاته ، وانه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما ، وانه حى قديم أزلى قادر مريد عالم بجميع الأشياء ، وعلمه بها بعد ايجادها كعلمه بها قبله ، ولا يزداد باحداثها علماً ، وان قدرته عامة بالنسبة الى جميع الممكنات ، وانه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولا يكون شئ إلا بمشيئته ، وانه عدل فى حكمه صادق فى وعده . وبالجملة

(١) هذا الحديث رواه فى اصول الكافى عن النبي — صلى الله عليه وآله — فى كتاب العقل والجهل فصححناه عليه ، وفى نسخ جامع السعادات اختلاف عما هنا .

مستجمع لجميع الصفات الكمالية ، وليس كمثله شيء ، ولا يتصور عقل ولا وهم مثله ، بل هو تام فوق التمام .

وأن القرآن كلامه ، ومحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - رسوله . ما اتى به من امور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت فى شريعته المقدسة حق ثابت ، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له ، بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب .

ثم ان المكلفين مختلفون فى كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة ، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس ، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقيناً (١) . وبعضهم على يقين دون ذلك ، واقل هؤلاء رتبة ان تصل مرتبة يقينهم الى طمأنينة لا اضطراب فيها ، وبعضهم على مجرد تصديق ظنى يتزلزل من الشبهات والقاء النقيض ، والى هذا الاختلاف أشار الامام محمد ابن على الباقر - عليهما السلام - بقوله : «ان المؤمنين على منازل : منهم على واحدة ، ومنهم على اثنتين ، ومنهم على ثلاث ، ومنهم على اربع ، ومنهم على خمس ، ومنهم على ست ، ومنهم على سبع ، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو ... الى آخره » (٢) . والامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله : « ان للايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهى تمامه ، ومنه الناقص البيّن نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه » .

---

(١) كما قال امير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - : « لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقيناً » .

(٢) الحديث مروى فى اصول الكافى فى باب درجات الايمان وبقيته : « وعلى صاحب الثلاث اربعاً لم يقو ، وعلى صاحب الاربع خمسا لم يقو ، وعلى صاحب الخمس ستاً لم يقو ، وعلى صاحب الست سبعاً لم يقو ... وعلى هذه الدرجات » .

ولاريب فى أن تحصيل مايطمئن به القلب فى العقائد الواجبة اخذها مما لابدّ منه لكل مكلف ، ومجرّد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة فى الاخرى والوصول إلى مراتب المؤمنين . ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح.وإنلم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكمية والدلائل الكلامية ، بل كان حاصلاً من دليل اجمالى برهانى أو اقناعى ، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة فى نظمها ، فلو حصل لأحد طمأنينة فى اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبراءته عن الصفات السلبية ، بمجرد ان عدم الاتصاف بالأولى والاتصاف بالثانية نقص لايليق بذاته الأقدس، كان كافياً فى النجاة والدخول فى زمرة المؤمنين . وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد أن هذا مما اتفق عليه فرق الأنبياء وأساطين الحكماء والعلماء،وقوة عقولهم ودقة أفهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ . وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائناً ماكان .

قال العلامة (الطوسى) - ره - فى بعض تصانيفه : « أقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ماترجمة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم إذا صدق الرسول ينبغى ان يصدقه فى صفات الله واليوم الآخر وتعيين الإمام المعصوم ، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان: أما فى صفات الله فبأنه حى عالم قادر مريد متكلم ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وأما فى الآخرة فبالايمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها ، ولا يجب عليه أن يبحث عن حقيقة الصفات ، وأن الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم ، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمنا ، فان غلب على قلبه شك أو إشكال ، فان أمكن إزالته بكلام قريب من الافهام

وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً فذلك كاف ، ولا حاجة الى تحقيق الدليل ، فان الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب ، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر والقلب فيظنها حقة لقصوره عن ادراك جوابها، إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقاً لا يحتمله عقله ، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش فى الكلام ، وإنما زجر ضعفاء العوام ، وأما أئمة الدين فلهم الخوض فى غمرة الاشكالات . ومنع العوام عن الكلام يجرى مجرى منع الصبيان عن شاطىء دجلة خوفاً من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه أيضاً هى رخصة الماهر فى صنعة السباحة ، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم ، وهو ان كل ضعيف فى عقله يظن انه يقدر على أدراك الحقائق كلها ،وانه من جملة الأقوياء. فربما يخوضون ويغرقون فى بحر الجهالات من حيث لايشعرون، فالصواب منع الخلق كلهم - إلا الشاذ النادر الذى لاتسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين - من تجاوز سلوك أهل العلم فى الايمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما انزل الله وأخبربه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فمن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه فى شغل شاغل ، إذ قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين رأى اصحابه يخوضون ، بعد ان غضب حتى احمرت وجنتاه : أفبهذا أمرتم ؟ تضربون كتاب الله بعضه ببعض ! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا ومانهاكم عنه فانتهوا » . فهذا تنبيه على منهج الحق .

ثم لا ريب فى أن نورانية اليقين ووضوحه ، بل واطمئنان القلب وسكونه . لا يحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام ، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام . بل (الأول) - اعنى الاستضاءة بنور اليقين - يتوقف على ملازمة الورع والتقوى ، وفطام النفس عن الهوى ، وازالة كدرتها وصدأها :

« وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » (١).

وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بعشاق الرياضة والمجاهدات، حتى يقذف فى قلبه نوراً آلهى تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد، وهو غاية مقصد الطالبين وقرة عيون الصديقين والمقربين، وله درجات ومراتب، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم فى القوة والاستعداد والسعى والاجتهاد، كما هم مختلفون فى ادراك أنواع العلوم والصنائع «وكل ميسّر لما خلق له» (٢).

وأما (الثانى) - اعنى مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد - فيمكن ان يحصل بما دون ذلك، بأن يشتغل - بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها - بوظائف الطاعات، ويصرف برهة من وقته فى شرائف العبادات، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته، ودرس الحديث ودرايته، ويحترز عن مخالطة أولى المذاهب الفاسدة وذوى الآراء الباطلة، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى واصحاب الشر والشقاء، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين، ومجالسة الأتقياء والصالحين، ويلاحظ سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم فى الخضوع لله والاستكانة، فيكون التلقين كالقاء البذر فى الصدر، وهذه الامور كالسق والتربية له، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخاً، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. ثم من وصل الى مقام العقيدة الجازمة إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره، ولكنه إذا مات مات مؤمناً على الحق وسلم فى الآخرة، وإن اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها انشرح صدره وانفتح له باب الافاضة، ووصل إلى المرتبة الأولى.

---

(١) الشمس، الآية: ٩.

(٢) حديث نبوى مشهور، تقدم ذكره صفحة « ٢٦ ».

انواع الرذائل المتعلقة بالعاقلة

أما الأنواع المتعلقة بالعاقلة فمنها :

الجهل المركب :

وهو خلو النفس عن العلم واذعانها بما هو خلاف الواقع ، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق ، فصاحبه لا يعلم ، ولا يعلم انه لا يعلم ، ولذا سمي مركباً . وهو أشد الرذائل واصعبها ، وازالته في غاية الصعوبة ، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة . وقد اعترف اطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف اطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الأمراض المزمنة ، ولذا قال عيسى - عليه السلام - : « اني لا اعجز عن معالجة الأكمه والابرص وأعجز عن معالجة الأحمق » . والسرفيه : أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها ، فلا يتحرك للطلب ، فيبقى في الضلالة والردى ما دام باقياً في دار الدنيا . ثم المنشأله ان كان اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب ، فانها موجبة لاستقامة الذهن لألفه لأجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقادها ، فيصير جهلها بسيطاً ، فينتهض للطلب . وإن كان خطأ في الاستدلال ، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة ، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ ، حتى يظهر خطأه . وإن كان وجود مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في ازالته .

ومنها الشك والحيرة :

وهو من باب رداءة الكيفية ،وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وابطال

الباطل فى المطالب الخفية ، والغالب حصوله من تعارض الأدلة . ولا ريب انه مما يهلك النفس ويفسدها ، إذ الشك ينافى اليقين الذى لا يتحقق الايمان بدونه . قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى بعض خطبه : « لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا » وكأن الارتياب فى كلامه ـ عليه السلام ـ مبدأ الشك . وقال الباقر ـ عليه السلام ـ : « لا ينفع مع الشك والجحود عمل » . وقال الصادق ـ عليه السلام ـ : « إن الشك والمعصية فى النار ليس منا ولا الينا » . وسئل ـ عليه السلام ـ عن قول الله تعالى :

« أَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » (١) .

قال : « بشك » . وقال ـ عليه السلام ـ : « من شك فى الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يفيء إلى خير أبداً » . وقال ـ عليه السلام ـ : « من شك أو ظن فأقام على أحدهما احبط الله عمله ، إن حجة الله هى الحجة الواضحة » . وقال ـ عليه السلام ـ : « من شك فى الله تعالى وفى رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهو كافر » . وبمضمونه وردت أخبار أخر . وغير خفى ان المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس ، لما يأتى أنه لا ينافى الايمان ، بل الظاهر من بعض الأخبار أن ايجاب الشك للكفر إذا انجر إلى الجحود ، كما روى أن أبا بصير سأل الصادق ـ عليه السلام ـ ما تقول فيمن شك فى الله تعالى ؟ قال : « كافر » ، قال : فشك فى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ؟ قال : « كافر » ، ثم التفت الى زرارة فقال : « انما يكفر إذا جحد » .

ثم علاجه ان يتذكر أولاً قضية بديهية ، هى : أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، ومنه يعلم اجمالاً أن أحد الشقوق العقلية المتصورة فى المطلوب

(١) الانعام ، الآية : ٨٢ .

ثابت فى الواقع ونفس الأمر والبواقى باطلة ، ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الأقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام فى كل طرف ، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقية أحد الشقوق وبطلان الآخر . والغرض من وضع المنطق (لا) سيما مباحث القياسات السوفسطائية المشتملة على المغالطات ازالة هذا المرض . ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك ، فالعلاج فى حقه أن يواظب على العبادة وقراءة القرآن ، ويشتغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها،ويجالس الصلحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين ، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه .

وصل

اليقين :

قد عرفت : أن ضد الجهل المركب والحيرة والشك هو (اليقين) ، وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت ، فالاعتقاد الذى لا يطابق الواقع ليس يقينياً ، وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع ،بل هو -كما اشير اليه -جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة ، أو خطأ فى الاستدلال ، أو حصول مانع من افاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك . فاليقين من حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضد الحيرة والشك ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضداً للجهل المركب .ثم العلم ان لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر ،والافيتساويان ويتشاركان فى المراتب المثبتة لليقين .

هذا ومتعلق اليقين إما اجزاء الايمان ولوازمه ، من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الإلهية من النبوة وأحوال النشأة الآخرة ،

أو غيرها من حقائق الأشياء التي لايتم الايمان بدونها . ولاريب في أن مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة ، وإن كان اليقين في المباحث الإلهية أدخل في تكميل النفس وتحصيل السعادة الاخروية،لتوقف الايمان عليه،بل هو أصله وركنه ، وغيره من المراتب فرعه وغصنه ، والنجاة في الآخرة لا تحصل إلا به ، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين .

وبالجملة : اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها ، وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها ، وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا أوحدي من أعاظم العرفاء أوألمعي من أكابر الحكماء . ومن وصل اليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى .قال سيد الرسل- صلى الله عليه وآله وسلم - : « أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر،ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل » ، وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- : « اليقين الايمان كله » ، وقال-صلى الله عليه وآله وسلم -: «ما آدمي إلا وله ذنوب،ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة » . وقال الصادق - عليه السلام - : « إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين » ، وعنه - عليه السلام - : « ان الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . وفي وصية لقمان لابنه : « يابني ! لا يستطاع العمل إلا باليقين ،ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه » .

علامات صاحب اليقين :

ثم لصاحب اليقين علامات :

(منها) ألا يلتفت في أموره إلى غير الله سبحانه ، ولا يكون اتكاله

فى مقاصده إلا عليه ، ولا ثقته فى مطالبه إلا به . فيتبرى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته ، ولا يرى لنفسه ولا لأبناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لأثر . ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدّر له وعليه من الخير والشر سيساق اليه . فتستوى عنده حالة الوجود والعدم ، والزيادة والنقصان ، والمدح والذم ، والفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والعز والذل ، ولم يكن له خوف ورجاء إلا منه تعالى . والسر فيه : انه يرى الأشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط ، بل يراها مسخرة تحت حكمه . قال الإمام أبو عبدالله - عليه السلام - : « من ضعف يقينه تعلق بالأسباب ، ورخص لنفسه بذلك ، واتبع العادات واقاويل الناس بغير حقيقة ، والسعى فى أمور الدنيا وجمعها وامساكها ، مقراً باللسان انه لا مانع ولا معطى إلا الله ، وأن العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد فى الرزق ، وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله سبحانه :

« يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » (١) » .

وقال - عليه السلام - : « ليس شيء إلا وله حد » قيل : فما حد التوكل ؟ قال : « اليقين » ، قيل : فما حد اليقين ؟ قال : « ألا تخاف مع الله شيئاً » . وعنه - عليه السلام - : « من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضى الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله . فإن الرزق لا يسوقه حرص

(١) الآية من سورة آل عمران: ١٦١ . وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب الى الصادق - عليه السلام - . وهذا الكتاب قال فيه المجلسى - قدس سره - فى مقدمة البحار : « فيه ما يريب اللبيب الماهر ، واسلوبه لا يشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم » ، ثم قال : « وان سنده ينتهي الى الصوفية ، ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم » .

حريص ولا ترده كراهية كاره، ولو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت » .

(ومنها) ان يكون فى جميع الأحوال خاضعاً لله سبحانه . خاشعاً منه ، قائماً بوظائف خدمته فى السر والعلن ، مواظباً على امتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن ، متوجهاً بشراشره اليه ، متخضعاً متذللاً بين يديه ، معرضاً عن جميع ما عداه ، مفرغاً قلبه عما سواه ، منصرفاً بفكره الى جناب قدسه ، مستغرقاً فى لجة حبه وانسه . والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته ، وبأن الله تعالى مشاهد لاعماله وافعاله ، مطلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره ، وأن :

« مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » (١) .

فيكون دائماً فى مقام الشهود لديه والحضور بين يديه ، فلا ينفك لحظة عن الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الأدب والخدمة ، ويكون سعيه فى تخلية باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لعين الله الكالئة أشد من تزيين ظاهره لأبناء نوعه .

وبالجملة : مَن يقينه بمشاهدته تعالى لاعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب ، يكون أبداً فى مقام امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ومَن يقينه بما فعل الله فى حقه من اعطاء ضروب النعم والاحسان ، يكون دائماً فى مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيق .

ومَن يقينه بما يعطيه المؤمنين فى الدار الآخرة من البهجة والسرور ، وما اعده لخلص عبيده مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب

(١) الزلزال ، الآية : ٨ — ٩ .

أحد ، يكون دائماً فى مقام الطمع والرجاء .

ومن يقينه باستناد جميع الامور اليه سبحانه ، وبأن صدور ما يصدر فى العالم أنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى نظام الخير، يكون أبداً فى مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت فى حاله .

ومن يقينه بكون الموت داهية من الدواهى العظمى وما بعده أشد وأدهى ، يكون أبداً محزوناً مهموماً .

ومن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها، لا يركن اليها . قال الصادق - ﷺ - فى الكنز الذى قال الله تعالى :

« وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا » (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم :عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن اليها » .

ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة، يكون دائماً فى مقام الهيبة والدهشة . وقد ورد أن سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث اذا كان يمشى يظن أنه يسقط على الأرض .

ومن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام ، يكون دائماً فى مقام الشوق والوله والحب . وحكايات أصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والأولياء والكاملين فى الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وأمثال ذلك فى الصلاة وغيرها مشهورة ، وفى كتب التواريخ والسير مسطورة. وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله

(١) الكهف الآية : ٨٢ .

سبحانه . وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين - عليه السلام - في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة . وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله ، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام اليه عند القيام لديه والمثول بين يديه ، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والامراء مع رذالته وخساسته أولا وآخراً يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه اليه بحيث يغفل عن ذاته .

(ومنها) أن يكون مستجاب الدعوات ، بل له الكرامات وخرق العادات . والسر فيه أن النفس كلما ازدادت يقيناً ازدادت تجرداً ، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات . قال الإمام أبو عبدالله الصادق - عليه السلام - : « اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب ، كذلك أخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله - من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم - عليه السلام - كان يمشي على الماء ، فقال : لو زاد يقينه لمشى في الهوى » . فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين ، وأن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه .

مراتب اليقين :

وقد ظهر مما ذكر : أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها ، ثم له مراتب : (أولها) علم اليقين ، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع - كما مر - وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات ، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان . و (ثانيها) عين اليقين ، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن ، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من

المشاهدة بالبصر ، والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين ﷺ بقوله : « لم أعبد رباً لم أره » بعد سؤال ذعلب اليماني عنه ـ عليه السلام ـ : أرأيت ربك؟ وبقوله ـ عليه السلام ـ : « رأى قلبي ربي » . وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس ، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عيانا .

و (ثالثها) حق اليقين ، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطاً به غير منفك عنه ، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه اليه ، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق . وهذا إنما يكون لـكمّل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وانسه ، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس ، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله . وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة ورياضات قوية ، وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية ، والطهارة عن ادناس جيفة الطبيعة، والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية ، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة :

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها　　سواها وما طهّرتها بالمدامع

ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة حق اليقين) والفناء في الله ، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلا في أنوار الله محترقاً من سبحات وجهه ، بحيث لا يرى استقلالاً ولا تحصيلاً أصلا ، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها .

ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبرّى عن ظلمات الأوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الأولى لايحصل من مجرد الفكر والاستدلال ،

بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق وصدأها ، ليحصل لها التجرد التام فتحاذى شطر العقل الفعال ، فتتضح فيها جلية الحق حق الاتضاح . والسر أن النفس بمنزلة المرآة تنعكس اليها صور الموجودات من العقل الفعال ، ولا ريب فى أن انعكاس الصور من ذوات الصور الى المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التى فيها الصور المطلوبة ، فيجب فى انعكاس حقائق الأشياء من العقل إلى النفس :- ١ - عدم نقصان جوهرها. فلا يكون كنفس الصبى التى لا تنجلى لها المعلومات لنقصانها - ٢ - وصفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة واخباث المعاصى ، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات ، وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ -٣- وتوجهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب،فلا يكون مستوعب الهم بالامور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها . وهو بمنزلة المحاذاة - ٤ - وتخليتها عن التعصب والتقليد. وهو بمثابة ارتفاع الحجب - ٥ - واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة ، وهو بمنزلة العثور على الجهة التى فيها الصورة.

ولو لا هذه الأسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية اليها ، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة فى العقول الفعالة ، إذ كل نفس لكونها أمراً ربانياً وجوهراً ملكوتياً فهى بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق،ولذا امتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والأرض والجبال ، وصارت قابلة لحمل امانة الله (١) التى هى المعرفة والتوحيد ، فحرمان النفس عن معرفة اعيان

---

(١) اشارة الى قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » الاحزاب ، الآية : ٧٢ .

الموجودات انما هو لأحد هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى مانع التعصب والتقليد بقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه يهودانه ويمجسانه (١) وينصرانه»، وإلى مانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «لو لا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض» . فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الأول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره ، اذ هو متناه يمكن لها الاحاطة به، وصورة عالمى الملكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته ، لأنهما الاسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بادراك البصائر ، وهى غير متناهية ، وما يلوح منها للنفس متناه ، وان كانت فى نفسها وبالأضافة الى علم الله سبحانه غير متناهية ، ومجموع تلك العوالم يسمى بـ(العالم الربوبى) ، إذ كل مافى الوجود من البداية إلى النهاية منسوب إلى الله سبحانه ، وليس فى الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره ، فالعالم الربوبى والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات ، فعدم تناهيه ظاهر بين ، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكله ، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها. ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار ، ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله ، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة فى نعيم الجنة ، وتكون

---

(١) روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث فى الجزء الثالث من اماليه بدون كلمة (يمجسانه) ، وكذا فى غوالي اللئالى ، الا أن المعروف فى روايته اضافة كلمة (يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه) ، كما أرسلها فى مجمع البيان : ج ٨ ص ٣٠٣ طبع صيدا ، وكذا فى مجمع البحرين فى مادة (فطر) ، وكذا فى صحيح البخارى : ج ١ ص ٢٠٦ ، وصحيح مسلم : ج ٢ ص ٤١٣ ، ومعالم التنزيل فى هامش تفسير الخازن : ج ٥ ص ١٧٢ ، وغير هؤلاء .

سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وافعاله ، وكل منها لا نهاية له . ولذا لاتستقر النفس فى مقام من المعرفة . والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها ، ولا تكون طالبة لما فوقها .

وما اعتقده جماعة من ان مايحصل للنفس من المعارف الإلهية والفضائل الخلقية هى الجنة بعينها فهو عندنا باطل ، بل هى موجبة لاستحقاق الجنة التى هى دار السرور والبهجة .

ومنها :

الشرك

وهو ان يرى فى الوجود مؤثراً غير الله سبحانه ، فإن عبد هذا الغير ـ سواء كان صنما أو كوكبا أو انسانا أو شيطانا ـ كان شرك عبادة ، وإن لم يعبده ولكن لاعتقاد كونه منشأ أثر أطاعه فيما لا يرضى الله فهو شرك طاعة ، والأول يسمى بالشرك الجلى ، والثانى يسمى بالشرك الخفى ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ » (١)

وكون الشرك اعظم الكبائر الموبقة وموجباً لخلود النار مما لا ريب فيه ، وقد انعقد عليه اجماع الامة ، والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء .

ثم للشرك مراتب تظهر فى بحث ضده الذى هو التوحيد ، والشرك وان كان شعبة من الجهل ، كما أن التوحيد الذى هو ضده من أفراد اليقين والعلم ، فذكرهما على حدة لم يكن لازما هنا ، إلا انه لما كان المتعارف ذكر

(١) يوسف ، الآية : ١٠٦ .

التوحيد فى كتب الأخلاق . فنحن أيضاً ذكرنا له عنواناً على حدة تأسياً بها، وأشرنا إلى لمعة يسيرة منه ، إذ الاستقصاء فيه والخوض فى غمراته مما ليس فى وسعنا ولا يليق هنا ، فإن التوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له .

وصل

(التوحيد فى الفعل)

ضد الشرك (التوحيد) ، وهو إما توحيد فى أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجى وعقلى فى ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته ، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبحته ، أو توحيد فى وجوب وجوده بمعنى نفى الشرك فى وجوب الوجود عنه (ولا بحث لنا هنا عن اثبات هذين القسمين، لثبوتهما فى الحكمة المتعالية) ، أو توحيد فى الفعل والتأثير والايجاد ، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو ، وهو الذى نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به ، فنقول :

هذا التوحيد ـ على ما قيل ـ له اربع مراتب : قشر ، وقشر القشر ، ولب ، ولب اللب ، كالجوز الذى له قشرتان وله لب ، وللب دهن وهو لب اللب .
(فالمرتبة الأولى) ان يقول الانسان باللسان : لا إله إلا الله ، وقلبه منكر وغافل عنه ، كتوحيد المنافقين ، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه إلا حفظ صاحبه فى الدنيا من السيف والسنان . (الثانية) ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما هو شأن عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد ، بمعنى انه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه . وهو عقد على القلب لا يوجب انشراحاً وانفتاحاً وصفاء له . ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب فى الآخرة ان مات عليه ولم يضعف بالمعاصى . (الثالثة) ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن

يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق ، وهو مقام المقربين ، وصاحبه موحد ، بمعنى أنه لا يشاهد إلا فاعلاً ومؤثراً واحداً، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه .(الرابعة) ألا يرى فى الوجود إلا واحداً ، ويسميه أهل المعرفة الفناء فى التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً. فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالواحد كان فانياً عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه . وهو مشاهدة الصديقين ، وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد . وهذا هى الغاية القصوى فى التوحيد .

فالمرتبة الأولى : كالقشرة العليا من الجوز ، وكما أن هذه القشرة لا خير فيها أصلاً ، بل إن أكلتها فهى مر المذاق ، وان نظرت الى باطنها فهو كريه المنظر ، وإن اتخذتها حطباً أطفأت النار واكثرت الدخان ، وإن تركتها فى البيت ضيقت المكان ، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى ،ثم ترمى ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ، لكن ينفع مدة فى حفظ المرتبة الثانية إلى وقت الموت . والمرتبة الثانية : كالقشرة السفلى . فكما أن هذه القشرة ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطباً ، لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب ، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة الى مجرد نطق اللسان ، إذ تحصل به النجاة فى الآخرة ، لكنه ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والعيان الذى يحصل بانشراح الصدر وانفتاحه باشراق نور الحق فيه . والمرتبة الثالثة : كاللب ، وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالاضافة إلى القشر وكأنه المقصود لكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن منه ،

فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين ، إلا أنه لايخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق . والمرتبة الرابعة : كالدهن المستخرج من اللب ، وكما ان اللب هو المطلوب لذاته والمرغوب فى نفسه ، فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الأول هو المقصود لذاته والمحبوب فى نفسه .

(تنبيه) ان قيل : كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقفها على عدم مشاهدة غير الواحد ، مع أن كل أحد يشاهد الأرض والسماء وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحداً ؟ (قلنا): من تيقن أن الممكنات بأسرها اعدام صرفة فى نفسها ، وأن ما به تحققها من الله سبحانه ، ثم احاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهره وغلب على قلبه الحب والانس حتى عن غيره اغفله ، فأى استبعاد فى ان يوجب شدة استغراقه فى لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والأنس عليه ،مع عدمية الكثرة ووحدة ما به التحقق عنده ورسوخ ذلك وارتكازه فى قلبه أن لا يرى فى نظر شهوده إلا هو ، ويغيب عنه غيره ، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ما هو الحقيقة والواقع . ومما يكسر سورة استبعادك : ان المشغول بالسلطان والمستغرق فى ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره ،وان العاشق قد يستغرق فى مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لا يرى غيره، مع تحقق الكثرة عنده . وان الكواكب موجودة فى النهار مع انها لا ترى لمغلوبية أنوارها واضمحلالها فى جنب نور الشمس، فاذا جاز ان يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر ،فأى استبعاد فى ان يغلب نور الوجود الحقيقى القاهر على الموجودات الضعيفة الامكانية ويقهرها ، بحيث يغيب عن نظر العقل

والبصيرة ، ثم هذه المشاهدات التى لا يظهر فيها إلا الله الواحد الحق لا تدوم، بل هى كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر .

فصل

(ابتناء التوكل على حصر المؤثر فى الله تعالى)

اعلم : انه لا يمكن التوكل على الله تعالى فى الامور حق التوكل إلا بالبلوغ إلى المرتبة الثالثة من التوحيد، وهى التى يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب ، إذ المرتبة الرابعة لا يتوقف ولا يبتنى عليها التوكل ، والأولى مجرد نفاق لا يفيد شيئاً ، والثانية - اعنى مجرّد التوحيد بالاعتقاد - لا يورث حال توكل كما ينبغى ، فانه موجود فى عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغى فيهم .

فالمناط فى التوكل هو ثالث المراتب فى التوحيد ، وهو ان ينكشف للعبد بنور الحق ان لا فاعل إلا الله ، وان كل موجود : من خلق ورزق ، وعطاء ومنع ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وعزّ وذل ، وحياة وموت ... إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم ، فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه ، واذا انكشف له هذا لم ينظر الى غيره، بل كان منه خوفه واليه رجاؤه ، وبه ثقته وعليه اتكاله ، فانه الفاعل بالانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة فى ملكوت السماوات والأرض واذا انفتح له ابواب المعارف اتضح له هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصده الشيطان عن هذا التوحيد ، ويوقع فى قلبه شائبة الشرك بالالتفات الى بعض الوسائط التى يتراءى فى بادى النظر منشئيتها لبعض الامور ، كالاعتماد على الغيم فى نزول المطر، وعلى المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه،

وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها ، وعلى بعض نظرات الكواكب واتصالاتها فى حدوث بعض الحوادث فى الأرض ، وكالالتفات الى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الأفعال ، فيوسوس الشيطان فى قلبه ويقول له : كيف ترى الكل من الله تعالى ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء منع ، وهذا الشخص قادر على جز رقبتك بسيفه فان شاء جز رقبتك وان شاء عفى عنك ، فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟!

ولا ريب فى أن امثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الامور ، ومن مكن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوساوس فى قلبه فهو من الجاهلين بابواب المعارف ، إذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم ان السماء والكواكب والريح والغيم والمطر والانسان والحيوان ... وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذى لاشريك له ، فيعلم ان الريح مثلاً هواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك ، وهذا المحرك لايحرك الهواء ما لم يحركه على التحريك محرك آخر...وهكذا إلى ينتهى إلى المحرك الأول الذى لا محرك له ولا هو متحرك فى نفسه . وكذا الحال فى توسط غيره من الافلاك ونجومها ، وكائنات الجو ، والموجودات على الأرض من الجماد والنبات والحيوان .

فالتفات العبد فى نجاته إلى بعض الأشياء من الرياح والأمطار أو الانسان أو الحيوان يضاهى التفات من أُخذ لتُجز رقبته ، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب توقيعاً بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ العبد يشتغل بمدح الحبر أو الكاغد أو القلم أو الكاتب ، ويقول : لو لا الحبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ما تخلصت ، فيرى نجاته من الحبر والكاغد دون القلم أو من القلم

دون محركه ـ أعنى الكاتب ـ أو من الكاتب دون الملك الذى هو محرك الكاتب ومسخره . ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه وإنما هو مسخر فى يد الكاتب ، وان الكاتب لاحكم له وإنما هو مسخر تحت يد الملك ، لم يلتفت إلى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن ان يخطر بباله الكاغد والحبر والقلم والكاتب . ولا ريب فى ان جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والأرض وكل حيوان أو جماد مسخرات فى قبضة القدرة ، كتسخير القلم فى يد الكاتب وتسخير الكاتب فى يد السلطان ، بل هذا تمثيل فى حق العبد لا عتقاده ان الملك الموقع هو الكاتب حقيقة ، وليس الأمر كذلك ، إذ الحق ان الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى :

« وَما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَـكنَّ اللهَ رَمَى » (١)

فمن انكشف له انّ جميع مافى السماوات والأرض مسخرات للواجب الحق ، لم ير فى الوجود مؤثراً إلا هو ، وانصرف عنه الشيطان خائباً ، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك .

وأما من لم ينشرح بنور الله صدره ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل ، فوقف فى الطريق على بعض المسخرات ، وهو جهل محض . وغلطه فى ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدبّ على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها الى الاصابع واليد ، فضلاً عن صاحب اليد ، وظنت ان القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها .

(١) الأنفال ، الآية : ١٧ .

فصل

(مناجاة السر لأرباب القلوب)

قال بعض العارفين (١) : أرباب القلوب والمشاهدات قد انطق الله فى حقهم كل ذرة فى الأرض والسماوات بقدرته التى انطق بها كل شىء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز ، بلسان الواقع الذى هو ليس بعربى ولا أعجمى ، وليس فيه حرف وصوت ، ولا يسمعه أحد إلا بالسمع العقلى الملكوتى دون السمع الظاهر الحسى الناسوتى ، وهذا النطق الذى لكل ذرة من الأرض والسماوات مع أرباب القلوب إنما هو (مناجاة السر) ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى . فانها كلمات تستمد (٢) من بحر كلام الله الذى لا نهاية له :

« قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » (٣).

ثم انها لما كانت مناجية بأسرار الملك والملكوت ، وليس كل أحد موضعاً للسر ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، فاختصت مناجاتها بالأحرار من أرباب القلوب . وهم أيضاً لا يحكون هذه الاسرار لغيرهم ، إذ

(١) المقصود به (أبو حامد الغزالي) فى احياء العلوم ، راجع الجزء الرابع ص ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢ ، وسترى ان هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير فى العبارة وتقديم وتأخير . وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير ، وصاحب الكتاب اعترف — فيما سيأتي — باقتباس هذه الفصول من الغزالى .

(٢) وفى نسختنا الخطية : (لأنها كلام يستمد) ، ولكن الموجود فى المطبوعة وفى نسخة احياء العلوم كما اثبتناه فى المتن .

(٣) الكهف ، الآية : ١٠٩ .

إفشاء السر لؤم ، وهل رأيت قط أميناً على أسرار الملك قد نوجى بخفاياه فينادى بها على الملأ من الخلق، ولو جاز إفشاء كل سر لما نهى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عن إفشاء سر القدر ، ولما خص أمير المؤمنين عليه السلام ببعض الأسرار ، ولما قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ، بل كان يذكر لهم ذلك حتى يبكون ولا يضحكون .

فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدة مانعان : (أحدهما) المنع عن إفشاء السر ، (ثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ونحن نحكى فى فعل الكتابة قدراً يسيراً من مناجاة بعض ما يُرى أسباباً ووسائط ، واقرارها بالعجز على انفسها ، ليقاس عليه جميع الأفعال الصادرة عن جميع الأسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله ، ويفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونردُّ لضرورة التفهم كلماتها الملكوتية الى الحروف والأصوات، وإن لم تكن أصواتاً وحروفاً. فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد، وقد رأى وجهه أسودَ بالحبر : « لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرقاً ؟ » .

فقال : « ما سودت وجهى ، وإنما سوده الحبر ، فاسأله لم فعل كذا؟ » .

فسأل الحبر عن ذلك ، فقال : « هذا السؤال على القلم الذى أخرجنى من مستقرى ظلماً » .

فسأل القلم ، فأحاله الى اليد والأصابع ، وهى الى القدرة والقوة ، وهى الى الارادة ، معترفاً كل واحد منهم بعجز نفسه ، وبكونه مقهوراً مسخراً تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته .

ولما سأل الارادة ، قالت : « ما انتهضت بنفسى ، بل بُعثت على

إشخاص القدرة وإنهاضها ، وبحكم رسول قاهر ورد عليه من حضرة القلب بلسان العقل ، وهذا الرسول هو العلم ، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على العقل والقلب والعلم » .

ولما سألهـــا قال (العقل) : « أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكنى أُشعلت » .

وقال (القلب): « أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكنى بُسطت » .

وقال (العلم) : « أما أنا فنقش نقشت فى لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انتقشت بنفسى بل نقشنى غيرى ، فسل القلم الذى نقشنى ورسمنى على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل » .

وعند هذا تحير السائل وقال : « ما هـذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط وهذا السراج ؟ فانى لا أعلم قلماً إلا من القصب ، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطاً إلا بالحبر ، ولا سراجاً إلا من النار . وانى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج ، ولا اشاهد من ذلك شيئاً » .

فقال له (العلم) : « فاذن بضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، والمهالك فى الطريق الذى توجهت اليه كثيرة ، فان كنت راغباً فى استتمام الطريق الى المقصد ، فاعلم أن العوالم فى طريقك ثلاثة : (أولها) عالم الملك والشهادة ، ولقدكان الكاغد والحبر والقلم واليد والأصابع من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة . (وثانيها) عالم الملكوت الأسفل ، وهو يشبه السفينة التى بين الارض والماء ، فلا هى حد اضطراب الماء ، ولا هى فى حد سكون الأرض وثباتها ، والقدرة والارادة والعلم من منازل هذا العالم . (وثالثها) عالم الملكوت الاعلى ، وهو من ورائى ، فاذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله . وأول منازله القلم الذى يكتب به العلم على لوح القلب .

وفى هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة » .

فقال له السائل السالك : « قد تحيّرت فى أمرى ولست أدرى انى أقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا ، فهل لذلك علامة أعرف بها تمكنى على قطع هذا الطريق ؟ » .

فقال : « نعم ! افتح بصرك ، واجمع ضوء عينك وحدّقه نحوى . فان ظهر لك القلم الذى به يكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق ، فان كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت الأعلى كوشف بالقلم . أما ترى النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كوشف به وانزل عليه قوله تعالى :

« إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... الى قوله : إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ »(١) ،

وهذا القلم قلم إلهى ليس بقصب ولا خشب . أو ما سمعت أن متاع البيت يشبه ربّ البيت ؟ وقد علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فليس فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان ، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدى ، ولا قلمه سائر الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط . بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الاعلى . فليست يده من لحم وعظم ودم ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه من صوت وحرف ، ولا خطه من نقش ورسم ورقم ، ولا حبره من زاج وعفص . فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وما عرفت ربك ، إذ لو نزّهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه

(١) العلق ، الآية : ١ ، ٣ ـ ٥ .

عن الحروف والأصوات ، فما بالك تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه ، ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها ؟ » .

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته ، بعد الابتهال الى ربه ، فانكشف له القلم الإلهى ، فاذا هو كما وصفه العلم ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر اصناف العلم ، فشكر العلم وودعه ، وسافر الى حضرة القلم الإلهى ، وقال له :

« أيها القلم ! مالك تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى انهاض القدرة وإشخاصها وصرفها إلى المقدورات ؟ » .

فقال له (القلم الإلهى) : « أفنسيت ما رأيت فى عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمى حيث أحالك الى اليد ؟ فجوابى مثل جوابه ، فانى مسخر تحت يد الله تعالى الملقبة بـ (يمين الملك) ،فاسأله عن شأنى فانى فى قبضته وهو الذى يرددنى ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهى والقلم الآدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة » .

فقال السائل : « من يمين الملك ؟ » .

قال القلم : « أما سمعت قوله تعالى :

وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ؟ (١) » .

قال : « نعم ! سمعته » .

قال : « والأقلام أيضاً فى قبضته وهو الذى يرددها » .

فسافر السائل من عند القلم إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، ورأى أنه يمينٌ لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدى ، واصبع لا كالأصابع ،فرأى القلم متحركاً فى قبضته،فسأله عن سبب تحريكه القلم.

(١) الزمر ، الآية : ٦٧ .

فقال : « جوانى ما سمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة ، وهو الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها فى نفسها ، وإنما محركها القدرة » .

فسافر إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر لأجلها ما قبلها ، فسألها عن سبب تحريكها اليمين .

فقالت : « إنما أنا صفة فاسأل القادر ، إذ العهدة على الموصوف دون الصفه » .

وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل ، وينطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثُبِّت بالقول الثابت ونودى من وراء سرادقات الحضرة :

« لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (١)

فغشيته دهشة الحضرة ، فخر صعقاً فى غشيته مدة ، فلما أفاق قال : « سبحانك ! ما أعظم شأنك وأعز سلطانك ، تبت اليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك وأتضرع اليك ، وأقول :

(اشْرَحْ لِي صَدْرِي) لأعرفك ، (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي) (٢) لأثني عليك » .

فنودى من وراء الحجاب : « إياك أن تطمع فى الثناء ، فإن سيد الانبياء ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال : (سبحانك لا اثنى ثناء عليك كما أنت أثنيت على نفسك) . وإياك أن تطمع فى المعرفة ،

(١) الأنبياء ، الآية : ٢٣ .

(٢) طه ، الآية : ٢٥ ، ٢٧ .

فإن سيد الأوصياء قال : (العجز عن درك الادراك ادراك ، والفحص عن سر ذات السر إشراك) . فيكفيك نصيباً من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا ، وقاصر عن ادراك دقائق حكمنا وأفعالنا » .

فعند هذا رجع السائل السالك ، واعتذر عن أسئلته ومعاتبته ، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها : « اقبلوا عذرى فانى كنت غريباً جديد العهد بالدخول فى هذه البلاد . والآن قد صح عندى عذركم وانكشف لى أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار ، وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته ، وهو الأول بالاضافة الى الوجود ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالاضافة الى سير المسافرين اليه ، فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى حضرته ، فهو أول فى الوجود وآخر فى المشاهدة ، وهو الظاهر بالاضافة الى من يطلبه بالسراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت ، وهو الباطن بالاضافة الى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس » .

وهذا هو التوحيد فى الفعل للسالكين ، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت ، وهو موقوف على الايمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافرة اليه واستماع الكلام من أهله . ومن كان أجنبياً من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول اليه ولم يمكنه ان يسلك السبيل الذى ذكرناه ، فينبغى ان يرد مثله الى التوحيد الاعتقادى الذى يوجد فى عالم الشهادة ، وهو ان يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل ، مثل ان يقال له : إن كل أحد يعلم أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد باميرين ، فإله العالم ومدبره واحد ، إذ :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » (١)

فيكون ذلك على ذوق ما رآه فى عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق بقدر عقله واستعداده ، وقد كلفوا الأنبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم .

ثم الحق أن هذا التوحيد الاعتقادى إذا قوى يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلا فيه ، إذ الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف فى إثارة الأحوال ، إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب ، فيحتاج الى من يحرسه بكلامه ، وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شىء من ذلك ، بل لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً وان كان يزداد وضوحاً .

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن ما يبتنى عليه التوحيد المذكور ، أعنى كون جميع الأشياء من الأسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الأزلية ظاهر . وسائر ما أوردنا فى هذا المقام مما ذكره أبو حامد الغزالى وتبعه بعض أصحابنا « ولا اشكال فيه إلا فى افعال الانسان وحركاته » (٢) . فإن البديهة تشهد بثبوت نوع اختيار له ، لأنه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء ، مع أنه لو كان مسخراً مقهوراً فى جميع أفعاله وحركاته ، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب . ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر ، ولا يليق ذكرها هنا . والحق أن كل ما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان ، والأولى فيها السكوت والتأدب بآداب الشرع (٣) .

---

(١) الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

(٢) هكذا فى المطبوعة وفى نسختنا الخطية والنسخة الاخرى : « ولا ريب فى لزوم الاشكال فى افعال الانسان وحركاته » .

(٣) هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التأريخية فى سر الخلق ، والحل الذي لم يسبق اليه البشر حتى عند فلاسفتهم الأقدمين والمتأخرين ما قاله امامنا الصادق (ع) : —

ومنها :

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

اعلم أن الخاطر ما يعرض فى القلب من الافكار. فإن كان مذموماً داعياً إلى الشر سمى (وسوسة)، وإن كان محموداً داعياً الى الخير سمى (إلهاماً).

وتوضيح ذلك : أن مَثل القلب بالنسبة الى ما يرد عليه من الخواطر مَثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب ، أو حوض تنصب اليه مياه مختلفة من الجداول ، أو قبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة ، أو مرآة منصوبة تجتاز اليها صور متباينة . فكما أن هذه الامور لاتنفك عن تلك السوانح ، فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر . فلا تزال هذه اللطيفة الإلهية مضماراً لتطاردها ومعركة لجولانها وتزاحمها ، الى ان يقطع ربطها عن البدن ولذاته ، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحيّاته .

ثم لما كان الخاطر أمراً حادثاً فلا بد له من سبب، فإن كان سببه شيطاناً فهو الوسوسة ، وإن كان ملكاً فهو الالهام . وما يستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواءً وخذلاناً ، وما يتهيأ به لقبول الالهام يسمى لطفاً وتوفيقاً . والى ذلك أشار سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله : « فى القلب لمتان (١) : لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة من

— « لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين ». فان الفاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لا شريك له فى خلقه ، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار فى فعله .

(١) روى الحديث فى احياء العلوم ج ٣ ص ٢٣ هكذا : « فى القلب لمتان : لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله. ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ... » الآية . —

الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ». وبقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن » .

فصل

(أقسام الخواطر ومنها الإلهام)

الخاطر ينقسم الى مايختلج بالبال من دون أن يكون مبدأ للفعل : وهى الأمانى الكاذبة والأفكار الفاسدة ، والى محرك الارادة والعزم على الفعل ، إذ كل فعل مسبوق بالخاطر أولا . فمبدأ الأفعال الخواطر ، وهى تحرك الرغبة ، والرغبة العزم ، والعزم النية ، والنية تبعث الأعضاء على الفعل ، (والثانى) كما عرفت إن كان مبدأ للخير يكون إلهاماً ومحموداً ، وإن كان مبدأ للشر يكون وسواساً ومذموماً . (والاول) له أنواع كثيرة :

(منها) ما يرجع الى التمنى،سواء كان حصول ما يتمناه ممكناً أو محالاً ، وسواء كان المتمنى حسناً محموداً أو قبيحاً مذموماً ، وسواء كان عدمه مستنداً الى قضاء الله وقدره أو الى تقصيره وسوء تدبيره فيخطر بباله أنه ياليت لم يفعل كذا أو فعل كذا .

(ومنها) ما يرجع الى تذكر الأحوال الغالبة ، إما بدون اختياره أو مع اختيار ما، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيسترّ به ، أو يتخيل فقده فيحزن لأجله ، أو يتفكر فى ما اعتراه من العلل والأسقام واختلال أمر المعاش وسوء الانتظام، أو يذهب وهمه الى حساب المعاملين أو جواب المعاندين ، وتصوير إهلاك الأعداء بالأنواع المختلفة من دون تأثير وفائدة .

— وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا ، وكذا الحديث الآتى :

فى نهاية ابن الأثير : « فى حديث ابن مسعود : لابن آدم لمتان : لمة من الملك ولمة من الشيطان . اللمة الهمة والخطرة تقع فى القلب ، اراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه » .

(ومنها) ما يرجع الى التطير ، وربما بلغ حداً يتخيل كثيراً من الامور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به ، ويضطرب بذلك ، وإن لم تكن مشهورة بذلك عند الناس ، وربما حدثت فى القوة الوهمية خباثة وشيطنة تذهب غالباً الى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب الى مايريده ويسره، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالأمراض والأسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه ، وربما حصل لنفسه نوع اذعان لهذه التخيلات لمغلوبية العاقلة للواهمة. فيعتريه نوع اضطراب وانكسار، وقلما يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريده من تخيل الغلبة وحصول التوسعة فى الأموال والاولاد ، بحيث يحصل لنفسه نوع اذعان لها ، فتنبسط وتهتز . وهذا شر الوساوس وأردؤها، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال فى الدماغ . وجميع الانواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله .

(ومنها) ما يرجع الى التفاؤل، وهذا ليس مذموماً . وقد ورد من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : أنه يحب التفاؤل ، وكثيراً ما يتفاءل ببعض الامور .

(ومنها) الوسواس فى العقائد ، بحيث لا يؤدى الى الشك المزيل لليقين ، فإنه قادح فى الايمان كما تقدم . ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس فى العقائد هنا ما لا يضر بالايمان ولا يؤاخذ به ـ كما يأتى ـ .

﴿ تذنيب ﴾ قد ظهر مما ذكر : أن أكثر جولان الخاطر إنما يكون فى فائت لا تدارك له ، أو فى مستقبل لابد وان يحصل منه ما هو مقدر ، وكيف كان هو تضييع لوقته ، إذ آلة العبد قلبه وبضاعته عمره . فاذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله أو عن فكر يستفيد

معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حباً لله ، فهو مغبون . وهذا إن كان فكره ووسواسه فى المباحات ، مع أن الغالب ليس كذلك ، بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات . إذ لا يزال ينازع فى الباطن كل من فعل فعلاً مخالفاً لغرضه ، أو من يتوهم انه ينازعه ويخالفه فى رأيه ، بل يقدّر المخالفة من اخلص الناس فى حبه حتى فى أهله وولده ، ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون به فى مخالفتهم ، فلا يزال فى شغل دائم مضيّع لدينه ودنياه .

فصل

(المطاردة بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة النفس)

قد عرفت أن الوسواس أثر الشيطان الخناس ، والالهام عمل الملائكة الكرام . ولا ريب فى أن كل نفس فى بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوى ، وإنما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى ، فاذا مالت النفس الى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالاً فيدخل بالوسوسة ، وإذا انصرفت الى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالالهام . فلا يزال التطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة النفس . لهيولانية وجودها وقابليتها للأمرين بتوسط قوتيها العقلية والوهمية . الى أن يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها ، وحينئذ يكون اجتياز الثانى على سبيل الاختلاس ، وحصول الغلبة انما هو بغلبة الهوى أو التقوى ، فان غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعه وكانت من حزبه ، وان غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت فى جنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - : « خلق الله الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم . قال الله تعالى :

« لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها (١) » ،

وصنف أجسادهم أجساد بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف كالملائكة فى ظل الله يوم لا ظلّ إلا ظله .

ولا ريب فى أن أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها ، ويتصرفون فيها بضروب الوساوس الداعية الى إيثار العاجلة واطّراح الآجلة. والسر فيه : أن سلطنة الشيطان سارية فى لحم الانسان ودمه ومحيطة بمجامع قلبه وبدنه ، كما أن الشهوات ممتزجة بجميع ذلك ، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ :«إن الشيطان ليجرى من بنى آدم مجرى الدم » ، وقال الله سبحانه ـ حكاية عن لسان اللعين ـ :

« لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (٢) » .

فالخلاص من أيدى الشياطين يحتاج الى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقة. فمن لم يقم فى مقام المجاهدة كانت نفسه هدفاً لسهام وساوسهم وداخلة فى أحزابهم.

فصل

(تسويلات الشيطان ووساوسه)

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة ،فالأبواب المفتوحة

---

(١) الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٢) الأعراف الآية : ١٦ ، ١٧ .

للشيطان الى القلب كثيرة ، وباب الملائكة واحدة ،ولذا روى أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ خط يوماً لأصحابه خطاً وقال : « هذا سبيل الله » ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله فقال : « هذه سُبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه » ، ثم تلا قوله سبحانه :

« وَأَنَّ هٰذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ » (١) .

ثم لسهولة ميل النفس الى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية الى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة ، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبداً ،والطرق المؤدية الى الحق التي هي باب الملائكة خفية، فكان باب الملائكة مسدوداً دائماً ، فما أصعب بالمسكين ابن آدم أن يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح باباً واحداً خفياً مسدوداً . على أن اللعين ربما يلبس بين طريق الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير، بحيث يظن أنه لمة الملك وإلهامه ، لاوسوسة الشيطان وإغواؤه ، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم ، كما يلقي في قلب العالم أن الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك ، وهم من الجهل موتى ، ومن الغفلة هلكى ، أما لك رحمة على عباد الله ؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى ؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك ، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدي بنصحك ؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ! فكيف تخفي نعم الله تعالى ولا تظهرها؟! فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه، الى أن يسخره بلطائف الحيل ويشتغل بالوعظ ، فيدعوه الى التزين والتصنع

---

(١) الأنعام ، الآية : ١٥٣ .

والتحسن بتحسين اللفظ ، والسرور بتملق الجماعة ، والفرح بمدحهم إياه ، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه ، ولا يزال فى اثناء الوعظ يقرر فى قلبه شوائب الرياء وقبول العامة،ولذة الجاه وحب الرياسة، والتعزز بالعلم والفصاحة،والنظر الى الخلق بعين الحقارة ، فيهدى الناس ويضل نفسه، ويعمر يومه ويخرب أمسه ، ويخالف الله ويظن أنه فى طاعته ، ويعصيه ويحسب انه فى عبادته ، فيدخل فى جملة من قال الله فيهم :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيوٰةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١) » .

ويكون ممن قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيهم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم »،و«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلا ببصيرة باطنة نورانية وقوة قدسية ربانية ، كما لا نجاة للمسافر الحيران فى بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك فى ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة .

فصل

(العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة)

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الالهام والوسوسة ، وقد قيل إن إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع فى النفوس على وجوه وعلامات : (أحدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس .

(١) الكهف الآية ١٠٣ ـ ١٠٤ .

وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها . (وثانيها) كالنظر الى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والاحكام المزيل للشكوك والأوهام، والمحصل للمعرفة والحكمة فى القوة العاقلة هى جانب الايمن من النفس ويقابله النظر اليها على سبيل الاشتباه والغفلة والاعراض عنها ، الناشئة منها الشبه والوساوس فى الواهمة والمتخيلة التى على الجانب الأيسر منها ، فان الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية ، لأنها مبادىء العلوم اليقينية ، والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية ، لأنها مبادىء المقدمات السفسطية . (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والأئمة الاطهار فى مقابلة أهل الجحود والانكار وأرباب التعطيل والتشبيه من الكفار . فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير ، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور . (ورابعها) كتحصيل العلوم والادراكات التى هى فى الموضوعات العالية والأعيان الشريفة ، كالعلم بالله وملائكته ورسله ، واليوم الآخر ، والبعث ، وقيام الساعة ، ومثول الخلائق بين يدى الله تعالى ، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، فى مقابلة تحصيل العلوم والادراكات التى هى من باب الحيل والخديعة والسفسطة ، والتأمل فى أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات ، فإن الأول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هم سكان عالم الملكوت السماوى ، والثانى يشبه الأبالسة المطرودة عن باب الله، الممنوعة من ولوج السماوات ، المحبوسة فى الظلمات ، المحرومة فى الدنيا عن الارتقاء ، والمحجوبة فى الآخرة عن دار النعيم .

فصل

(علاج الوساوس)

الوساوس إن كانت بواعث الشرور والمعاصي ، فالعلاج فى دفعها ان يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته فى الدنيا والآخرة ، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه، ويتذكر أن الصبر عما تدعو اليه هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار لو قذفت شرارة منها الى الأرض أحرقت نبتها وجمادها ، فاذا تذكر هذه الامور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والايمان ، حبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه، إذ لا يمكن أن ينكر عليه هذه الامور الحقة ، إذ يقينه الحاصل من قواطع البرهان يمنعه عن ذلك ويخيبه ، بحيث يرجع هارباً خائباً . فإن التهاب نيران (١) البراهين بمنزلة رجوم الشياطين ، فإذا قوبلت بها وساوسهم فرت فرار الحُمُر من الأسد .

وإن كانت مختلجة بالبال بلا ارادة واختيار ، من دون أن تكون مبادىء الأفعال ، فقطعها بالكلية فى غاية الصعوبة والاشكال ، وقد اعترف اطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة ، وربما قيل بتعذره ، ولكن الحق امكانه ، لقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من صلى ركعتين لم تتحدث نفسه فيهما بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »، ولولا امكانه لم يتصور ذلك .

والسر فى صعوبة قطعها بالكلية أن للشيطان جندين : جنداً يطير وجنداً يسير ، والواهمة جنده الطيار ، والشهوة جنده السيار ، لأن غالب ما خلقتا منه هى النار التى خلق منها الشيطان، فالمناسبة اقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما له.

(١) وفى نسختنا الخطية هكذا : « فان نيرات البراهين » .

ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة ، إذ لا تتصور نار مشتعلة لا تتحرك ، بل لا تزال تتحرك بطبعها . فشأن كل من الشيطان والقوتين أن يتحرك ولا يسكن ، إلا أن الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان ، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما - أعنى النار - شيء من الطين لم تكونا بمثابة ما خلق من صرف النار فى الحركة ، إلا انهما استعدتا لقبول الحركة منه ، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما . ثم الشهوة لكون النارية فيها أقل فسكونها ممكن ، فيحتمل أن يكف تسلط الشيطان عن الانسان فيها ، فيسكن بالكلية عن الهيجان . وأما الواهمة فلا يمكن أن يقطع تسلطه عنها ، فيمتنع قطع وسواسه عن الانسان ، إذ لو أمكن قطعه أيضاً بالمرة ، لصار اللعين منقاداً للانسان مسخراً له . وانقياده له هو سجوده له ، إذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والاطاعة ، ووضع الجبهة حالته وعلامته ، وكيف يتصور أن يسجد الملعون لأولاد آدم ﷺ مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من أن يطمئن عن حركته ساجداً له معللا بقوله:

« خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١) »

فلا يمكن أن يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة ، بل هو من المنظرين لاغوائهم الى يوم الدين ، فلا يتخلص منه أحد إلا من أصبح وهمومه هم واحد ، فيكون قلبه مشتغلاً بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالاً فيه ، ومثله من المخلصين الداخلين فى الاستثناء (٢) عن سلطنة هذا اللعين ، فلا تظنن أنه

---

(١) الاعراف ، الآية : ١٢ .

(٢) إشارة الى قوله تعالى : « قال رب بما اغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » الحجر ، الآية : ٤٠ .

يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء فى القدح، فانك إن أردت أن تخلى القدح عن الهواء من غير أن تشغله بمثل الماء فقد طمعت فى غير مطمع، بل بقدر ما يدخل فيه الماء يخلو عن الهواء، فكذلك القلب إذا كان مشغولاً بفكر مهم فى الدين يمكن أن يخلو من جولان هذا اللعين ، وأما لو غفل عن الله ولو فى لحظة، فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، كما قال سبحانه :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (١) » .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الله يبغض الشاب الفارغ » . لأن الشاب إذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لا بد أن يدخل فى قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض ويفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد الحيوانات ، لأن الشيطان طبعه من النار ، والشهوة فى نفس الشاب كالحلفاء (٢) اليابسة ، فاذا وجدها كثر تولده . وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلاً .

فظهر أن وسواس الخناس لا يزال يجاذب قلب كل انسان من نب الى جانب ، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً ، والفرار عن الأهل والمال والولد والجاه والرفقاء ، ثم الاعتزال الى زاوية ، وجعل الهموم هماً واحداً هو الله . وهذا أيضاً غير كاف ما لم يكن له مجال فى الفكر وسير فى الباطن فى ملكوت السماوات والارض وعجائب صنع الله ، فان

---

(١) الزخرف ، الآية ٣٥ .

(٢) الحلفاء : نبت اطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص ، ينبت فى منابض المياه . الواحدة (حلفة وحلفاء) .

استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة من الصلوات والاذكار والأدعية والقراءة . ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور ، إذ الأوراد الظاهرة لا تستغرق القلب ، بل التفكر بالباطن هو الذى يستغرقه.وإذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها،إذ لا يخلو فى بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر ، كمرض أو خوف أو ايذاء وطغيان ، ولو من مخالطة بعض لا يستغنى عنه فى الاستعانة فى بعض اسباب المعيشة .

فصل

(ما يتم به علاج الوسواس)

لو أمكن العلاج فى القطع الكلى للوساوس فإنما يتم بأمور ثلاثة :

(الأول) سد الأبواب العظيمة للشيطان فى القلب ، وهى الشهوة ، والغضب ، والحرص ، والحسد ، والعداوة ، والعجب ، والحقد ، والكبر ، والطمع ،والبخل ، والخفة ،والجبن، وحبّ الحطام الدنيوى الداثر ، والشوق الى التزين بالثياب الفاخرة ، والعجلة فى الأمر ، وخوف الفاقة والفقر ، والتعصب لغير الحق ، وسوء الظن بالخالق والخلق .. وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات،فإنها ابواب عظيمة للشيطان،فاذا وجد بعضها مفتوحاً يدخل منه فى القلب بالوساوس المتعلقة به ، وإذا سدّت لم يكن له اليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز .

(الثانى) عمارة القلب باضدادها من فضائل الأخلاق وشرائف الأوصاف ، والملازمة للورع والتقوى ، والمواظبة على عبادة ربه الأعلى .

(الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان . فإذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الابواب العظيمة للشيطان ، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته،سوى خطراته واجتيازاته . والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية ،ولو لم يسد أبوابه أولا لم ينفع مجرد الذكر اللساني في إزالتها ، إذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل، ولولاهما لم يظهر على القلب سلطانه . بل كان مجرد حديث نفس لا يندفع به كيد الشيطان وتسلطه . فإن مَثل الشيطان مثَل كلب جائع ، ومثَل هذه الصفات المذمومة مثل لحم أو خبز أو غيرهما من مشتهيات الكلب، ومثل الذكر مثل قولك له : إخسأ . ولا ريب في أن الكلب إذا قرب اليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك : اخسأ ،وان كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول ما لم يصل الى مطلوبه . فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر ، وأما القلب المملو منه فيدفع الذكر الى حواشيه ، ولا يستقر في سويدائه ، لاستقرار الشيطان فيه . وايضاً الذكر بمنزلة الغذاء المقوى ، فكما لاتنفع الاغذية المقوية ما لم ينقّ البدن عن الاخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة ، كذلك لا ينفع الذكر ما لم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مواد مرض الوساوس ، فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان مطهراً عن شوائب الهوى ومنوراً بأنوار الورع والتقوى ، كما قال سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (١) » ،

(١) الاعراف ، الآية : ٢٠١ .

وقال سبحانه :

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ (١) »

ولو كان مجرد الذكر مطرداً للشيطان لكان كل احد حاضر القلب فى الصلاة ، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة ، إذ منتهى كل ذكر وعبادة إنما هو فى الصلاة. مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر فى صلاته أكثر من سائر الأوقات ، وربما لا يتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا فى صلاته ، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضماراً لجولانهم ، ويقلبونه شمالاً ويميناً بحيث لا يجد فيه ايماناً ولا يقيناً ، ويجاذبونه الى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ، ويمرون به فى أودية الدنيا ومهالكها . ومع ذلك كله لا تظن أن الذكر لا ينفع فى القلوب الغافلة أصلاً ، فإن الأمر ليس كذلك ، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين ، إلا أن لبه وروحه والغرض الأصلى من ذلك المرتبة الأخيرة :

(الأولى) اللسانى فقط .

(الثانية) اللسانى والقلبى ، مع عدم تمكنه من القلب ، بحيث احتاج القلب الى مراقبته حتى يحضر مع الذكر ، ولو خلى وطبعه استرسل فى أودية الخواطر .

(الثالثة) القلبى الذى تمكن من القلب واستولى عليه ، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة ، بل احتاج ذلك الى سعى وتكلف ، كما احتيج فى الثانية اليهما فى قراره معه ودوامه عليه .

---

(١) قٓ ، الآية : ٣٦ .

(الرابعة) القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر . فلا يلتفت القلب الى نفسه ولا الى الذكر ، بل يستغرق بشراشره في المذكور، واهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات الى الذكر حجاباً شاغلاً . وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات . والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض، لكونها طرقاً الى ما هو المطلوب بالذات .

فصل

(ما يتوقف عليه قطع الوساوس)

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفية والتخلية أولاً ، ثم المواظبة على ذكر الله : أن بعد حصول هذه الامور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية ، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة ، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوساوس لأمكنها ذلك ، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها ، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت الى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط ، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقاً، بل لم يخطر فيهما إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبواب الملائكة، ويصير مستقرها ومستودعها، فتستضاء بشروق الانوار القدسية من مشكاة الربوبية ، ويشملها خطاب :

« يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ

رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (١) » .

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها ، وتقابلها النفس المنكوسة المملوءة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل ، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة، ويتصاعد منها دخان مظلم اليها، فتملأ جوانبها ويطفىء نور اليقين ويضعف سلطان الايمان ،حتى تخمد انواره بالكلية ، ولا يخطر فيها خاطر خير أبداً ، وتكون دائماً محل الوساوس الشيطانية ، ومثلها لا يرجع الى الخير أبداً ، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع ،والى مثلها اشير بقوله سبحانه :

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٢) » .

وبقوله تعالى :

« خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (٣) » .

وبقوله سبحانه :

اِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤) » .

وبقوله تعالى :

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ

---

(١) الفجر ، الآية : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) الفرقان ، الآية : ٤٣ .
(٣) البقرة ، الآية : ٧ .
(٤) الفرقان ، ، الآية : ٤٤ .

لا يُؤْمِنُونَ (١) » .

وبقوله عز وجل :

« لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢) » .

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة فى السعادة والشقاوة . ولها مراتب مختلفة فى اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكمّ والكيف والزمان،فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة ، فتارة يبتدىء فيها خاطر الهوى فيدعوها الى الشر ، وتارة يبتدىء فيها خاطر الايمان فيبعثها على الخير ، ومثلها معركة تطارد جندى الشياطين والملائكة وتجاذبهما ، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده ، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه ، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين، الى أن تصل الى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر. ثم النفس الأولى فى غاية الندرة،وهى نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين،والثانية فى نهاية الكثرة وهى نفوس الكفار بأسرهم ، والثالثة نفوس أكثر المسلمين ، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ، ولها عرض عريض ، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الأولى ، وآخرهما بالثانية .

فصل

(حديث النفس لا مؤاخذة عليه)

قد عرفت أن الوساوس بأقسامها مشتركة فى إحداث ظلمة وكدرة فى النفس ، إلا أن مجرد الخواطر ـ أى (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا

(١) يس ، الآية : ١٠ .
(٢) يس ، الآية : ٧ .

اختيار، كالميل وهيجان الرغبة ـ لا مؤاخذة عليهما، ولا يكتب بهما معصية، لعدم دخولهما تحت الاختيار ، فالمؤاخذة عليهما ظلم ، والنهي عنهما تكليف بما لا يطاق. والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل هذا فيؤاخذ به ، لكونه اختيارياً . وكذا الهمّ بالفعل والعزم عليه ، إلا أنه إن يفعل مع الهمّ خوفاً من الله وندم عنه كتبت له حسنة ، وإن لم يفعل لمانع منعه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة .

والدليل على هذا التفصيل : أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخاطر ، فما روى في الكافي : « أنه جاء رجل الى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال : يا رسول الله ! هلكت. فقال له هل أتاك الخبيث فقال لك مَن خلقك؟ فقلتَ : الله تعالى ، فقال لك : الله مَن خلقه ؟ فقال له : أي والذي بعثك بالحق لكان كذا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : ذاك والله محض الايمان » . ومثله ما روى : أن رجلا أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال يا رسول الله! نافقت ، فقال : « والله ما نافقت ولو نافقت ما أتيتني تعلمني ، ما الذي رابك ؟ أظن أن العدو الحاضر أتاك ، فقال : مَن خلقك؟ فقلتَ : الله تعالى خلقني. فقال لك: من خلق الله؟ فقال: أي والذي بعثك بالحق لكان كذا ، فقال : إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم ، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم . فاذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده » . وقريب منه ما روى : أن رجلاً كتب الى ابي جعفر عليه السلام يشكو اليه لمما يخطر على باله ، فأجابه في بعض كلامه : « إن الله إن شاء ثبتك فلا يجعل لا بليس عليك طريقاً . قد شكى قوم الى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لمما يعرض لهم لأن تهوى بهم الريح أو يقطّعوا أحب اليهم من أن يتكلموا به ، فقال رسول الله : أتجدون ذلك ؟ قالوا : نعم ! قال : والذي نفسي بيده إن ذلك

لصريح الأيمان، فإذا وجدتموه فقولوا : آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وسئل الصادق عليه السلام عن الوسوسة وإن كثرت ، فقال : « لا شيء فيها ، تقول لا إله إلا الله » . وعن جميل بن دراج قال : قلت للصادق عليه السلام : إنه يقع فى قلبي أمر عظيم ، فقال : « قل لا إله إلا الله » ، قال جميل : فكلما وقع فى قلبي قلت : لا إله إلا الله ، فيذهب عنى .

ومما يدل على عدم المؤاخذة عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة إذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ما روى : إنه لما نزل قوله تعالى :

« وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ (١) » .

جاء ناس من الصحابة الى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقالوا : كلفنا ما لا نطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت فى قلبه ، ثم يحاسب بذلك ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لعلكم تقولون كما قال بنو اسرائيل : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى :

« لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها (٢) » . »

وما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام فى قوله سبحانه :

« وَإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » : « إن هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها ، وقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعرضها على أمته فقبلوها . فلما رأى الله

(١) البقرة ، الآية : ٢٨٤ .
(٢) البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها ، قال : أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها امتك ، فحق على أن أرفعها عن أمتك ، وقال عز من قائل : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ». وما روى عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – أنه قال: « وضع عن امتى تسع خصال : الخطأ ، والنسيان ، وما لا يعلمونه ، وما لا يطيقونه ، وما اضطروا عليه ، وما استكرهوا عليه ، والطيرة ، والوسوسة فى التفكر فى الخلق ، والحسد ما لم يظهر بلسان أويد » . وما روى أنه سئل الصادق عليه السلام عن رجل يجىء منه الشىء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى ؟ فقال عليه السلام : « إن الله تعالى أكرم من أن يستغلق على عبده » ، والمراد من الغضب فيه : الغضب الذى سلب الاختيار .

وبالجملة : القطع حاصل بعدم المؤاخذة والمعصية على ما لا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة ، إذ النهى عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق ، وإن لم ينفك عن إحداث خباثة فى النفس .

وأما (١) على انه يكتب سيئة على الاعتقاد والهمّ بالفعل والتصميم عليه مع تركه لمانع لا لخوف من الله، فهو ان كلاً من الاعتقاد والهمّ بالمعصية فعل من الأفعال الاختيارية للقلب ، وقد ثبت فى الشريعة ترتّب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختيارياً . قال الله سبحانه :

« إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أولـئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » (٢) .

وقال سبحانه :

---

(١) أي وأما الدليل على انه يكتب سيئة .

(٢) بنى اسرائيل ، الآية : ٣٨ .

« لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ »(١).

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إنما يحشر الناس على نياتهم ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار »، قيل : يارسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لكل امرىء ما نوى ». والآثار الواردة فى ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة، واطلاقها محمول على غير صورة الترك خوفاً من الله، لما يأتى من أنه فى هذه الصورة تكتب بها حسنة. وكيف لايؤاخذ على اعمال القلوب مع ان المواخذة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعى الثبوت من الشرع، مع كونها أفعالاً قلبية، وقد ثبت فى الشريعة أن من وطأ امرأة ظاناً أنها أجنبية كان عاصياً وإن كانت زوجته .

وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفاً من الله، فما روى عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال: « قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر، فقال: راقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها، وان تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها لأجلى ». وما روى عن الإمام محمد ابن على الباقر ـ عليهما السلام ـ : « ان الله تعالى جعل لآدم فى ذريته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة ». وقوله : « لم يكتب عليه » محمول على صورة عدم العمل خوفاً من الله . لما

(١) البقرة ، الآية : ٢٢٥ .

تقدم من أنه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة . وما روى عن الصادق عليه السلام أنه قال : « ما من مؤمن إلا وله ذنب يهجره زماناً ثم يلمّ به وذلك قوله تعالى :

« إلاَّ ٱللَّمَمَ » (١) .

وقال : « واللمم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه »، وقد وردت بهذا المضمون اخبار أخر .

وصل

(الخاطر المحمود والتفكر)

قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعاً وعقلا ، لأن القلب إذا كان مشغولاً بشيء لا يمكن أن يشغله شيء آخر ، فاذا كان مشغولا بشيء من الخواطر المحمودة لا سبيل للخواطر المذمومة اليه ، وربما كان للغفلة التى هى ضد النية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود ، إذ عند الغفلة لا يتحقق شيء منهما ، إلا أن خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجاً فى غاية الندرة ، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وان كان مشغولاً بالوساوس الباطلة ، كما يأتى تحقيقه .

ثم الخاطر المحمود إن كان قصداً ونية لفعل جميل معين كان متعلقاً بالقوة التى يتعلق هذا الفعل بها ، وإلا كان راجعاً إما الى الذكر القلبى أو الى التدبر فى العلوم والمعارف والتفكر فى عجائب صنع الله وغرائب عظمته ، أو الى التدبر الاجمالى الكلى فيما يقرب العبد الى الله سبحانه أو ما يبعده عنه

---

(١) النجم ، الآية : ٣٢ .

تعالى ، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا .

وإذا عرفت ذلك فاعلم : أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة ضده الذى هو الخاطر المحمود ، ليبعثه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوساوس . وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة على الأفعال الجميلة يأتى ذكرها فى باب النية ، وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الأفعال أيضاً كما يأتى ذكرها فى باب النية ، وفضيلة الذكر القلبى يعلم فى باب مطلق الذكر .

أما بيان شرافة التفكر وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والاشارة الى كيفية التفكر فيها وفيما يقرب العبد الى الله تعالى وفيما يبعده عنه ، فلنشر الى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية ، فنقول :

التفكر : هو سير الباطن من المبادىء الى المقاصد ، والمبادىء : هى آيات الآفاق والأنفس ، والمقصد : هو الوصول الى معرفة موجدها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة ، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان الى اوج الكمال إلا بهذا السير ، وهو مفتاح الأسرار ومشكاة الأنوار ، ومنشأ الاعتبار ومبدأ الاستبصار ، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية ، وهو أجنحة النفس للطيران الى وكرها القدسى ، ومطية الروح المسافرة الى وطنها الأصلى ، وبه تنكشف ظلمة الجهل وأستاره وتنجلى أنوار العلم وأسراره ، ولذا ورد عليه الحث والمدح فى الآيات والأخبار كقوله سبحانه :

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ » (١) .

(١) الروم ، الآية : ٨ .

وقوله تعالى :

« أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » (١).

وقوله تعالى :

« فاعْتَبِرُوا يا أولي الأَبْصارِ » (٢).

وقوله تعالى :

« قُلْ سِيرُوا في الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ » (٣).

وقوله تعالى :

« إِنَّ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِأُولي الأَلْبابِ » (٤).

وقوله تعالى :

« وَفي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ » (٥).

وقوله تعالى :

(١) الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٢) الحشر ، الآية : ٢ .
(٣) العنكبوت ، الآية : ٢٠ .
(٤) آل عمران ، الآية : ١٩٠ .
(٥) الذاريات ، الآية : ٢٠ - ٢١ .

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ» (١).

وقول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «التفكر حياة قلب البصير»، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «فكرة ساعة خير من عبادة سنة»، ولا ينال منزلة التفكر إلا من خصه الله عز وجل بنور التوحيد والمعرفة، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «أفضل العبادة إدمان التفكر فى الله وفى قدرته» (٢)، ومراده من التفكر فى الله التفكر فى قدرته وصنعه وفى عجائب افعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته، لا التفكر فى ذاته، لكونه ممنوعاً عنه فى الأخبار، ومعللاً بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، وقد ورد: «إياكم والتفكر فى الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا الى عظمته فانظروا الى عظيم خلقه». واشتهر عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ انه قال: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله، فإنكم لن تقدّروا قدره»، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : «التفكر يدعو الى البر والعمل به»، وقوله عليه السلام : «نبه بالتفكر قلبك، وجاف عن الليل جنبك، واتق الله ربك»، وقول الباقر عليه السلام : «بإجالة الفكر يُستدر الرأى المعشب»، وقول الصادق عليه السلام : «الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات، وضياء للقلوب وفسحة للخلق، واصابة فى صلاح المعاد، واطلاع على العواقب، واستزادة فى العلم، وهى خصلة لا يعبد الله بمثلها»، وقول الرضا عليه السلام : «ليس العبادة كثرة فى الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر فى أمر الله عزّ وجل».

---

(١) آل عمران، الآية ١٩١.

(٢) روى هذه الأحاديث فى الكافى فى (باب التفكر) عن أبى عبدالله ـ عليه السلام ـ كما هنا.

تكملة

(مجارى التفكر فى المخلوقات)

الموجودات بأسرها مجارى التفكر ومطارح النظر، إذكل ما فى الوجود سوى واجب الوجود فهو من رشحات وُجوده وآثار فيضه وجوده ، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرضُ مجرد أو مادى ، فلكى أو عنصرى ، بسيط أو مركب ، فعل الله وصنعه ، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته ، بحيث لو تشمر عقلاء الأقطار وحكماء الأمصار مدى الأعصار لاستنباطها ، انقضت اعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها .

ثم ان الموجودات المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف اصله فلا يمكننا التفكر فيه ،والى ما يعرف اصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكر فى تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة بخالقه . وهو الى ما لا يدرك بحس البصر ويسمى بـ (الملكوت)، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة ، ولها أجناس وطبقات لا يحيط بها إلا موجدها ، والى ما يدرك به ، وله أجناس ثلاثة : عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها فى طلوعها وغروبها ، وعالم الأرض المحسوسة ببحارها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وانهارها ونباتها وأشجارها وحيوانها وجمادها ، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه وشهبه وبروقه ورياحه ورعوده ، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم الى أنواع ، ويتشعب كل نوع الى أقسام وأصناف غير متناهية ، مختلفة فى الصفات والهيئات ، واللوازم والآثار والخواص ، والمعانى الظاهرة والباطنة ، وليس شىء منها إلا وموجده هو الله

سبحانه ، وفى وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لا تحصى .

وكل ذلك مجارى التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم ، إذ كلها شواهد عدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته ، فمن قدّم قدم حقيقته ، ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته ، وشاهد مملكة ربه الودود ، لظهر له فى كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة، بهر منها عقله ووهمه ، وحسر دونها لبه وفهمه .

ثم لا ريب فى أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصلح والنهج الأحسن بأمر موجدها الحكيم ومدبرها العليم ، مبتدأة فى الصدور من الأشرف فالأشرف ، حتى ينتهى الى أسفل العوالم وأخسها ، وهو عالم الأرض بما فيه ، وكل عالم أسفل لا قدر له بالنسبه الى ما فوقه ، فلا قدر للأرض بالنظر الى عالم الجو ، ولا للجو بالقياس الى عالم السماوات ، ولا للسماوات بالنسبة الى عالم المثال ، ولا للمثال بالنظر الى عالم الملكوت ، ولا للملكوت بالقياس الى الجبروت ، ولا للجميع بالنسبة الى ما لا سبيل لنا الى دركه تفصيلاً واجمالاً من عوالم الالوهية ، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصدوالهندسة ،ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان واصحاب المشاهدةوالعيان.

ثم أخس العوالم الذى عرفت حاله ـ أعنى الأرض ـ لا قدر لما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد ، بالنظر الى نفسها ، ولذا يفسد من أدنى تغير لها جل ما عليها ، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غير متناهية . وأضعف انواع الحيوان البعوضة والنحل ، وأشرف أنواعه الانسان . فنحن نشير الى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها ، وكيفية التفكر فيها ، ليقاس عليها البواقى اجمالاً . فإن بيان مجارى التفكر

باسرها فى حيز المحال ، وما يمكن منه خارج عن حيطة الضبط والتدوين ، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من أجلة العرفاء بذلوا وسعهم فى بيان مجارى التفكر ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه . فسطروا فيه الأساطير وملأوا منه الطوامير ، وخاضوا فى غمرات بحار الأفكار وغاصوا فى تيار لجج الانظار ، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر الى ما هو الواقع إلا صفر اليدين ورجعوا آخر الامر (بخفى حنين) . ونحن لو تعرضنا لشرح مايمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة فى عضو واحد من اعضائها على التفصيل، لخرجنا عن وضع الكتاب ، وارتكبنا ما يمل الناظرين من الاطناب ، فنشير اجمالاً الى بعض ما فيها من الحكم والعجائب ، تنبيهاً للطالبين على كيفية التفكر فى الصنائع الإلهية ، فنقول :

أما ﴿ البعوض ﴾ — فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطوماً كخرطومه ، وخلق له مع صغره جميع الأعضاء التى خلقها للفيل بزيادة جناحين ، فقسم اعضاءه الظاهرة ، فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه ، وشق سمعه وبصره ، ودبر فى باطنه اعضاء الغذاء ، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب فى الحيوانات العظيمة — كما يأتى فى الانسان — ثم هداه الى غذائه الذى هو دم الانسان وغيره من الحيوانات ، فانبت له آلة الطيران الى الانسان ، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وهداه الى الامتصاص من مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه فى واحد من مسامه، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه ، وخلق خرطومه — مع دقته — مجوفاً حتى يجرى فيه الدم الصافى الرقيق وينتهى الى باطنه وينتشر فى معدته وفى سائر أعضائه . وعرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب ، وخلق له

السمع الذى يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه ، فيترك المص ويهرب ، وإذا سكنت اليد عاد ، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه . ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين يمسح بهما حدقتيه ويطهرهما عن الغبار والقذى ، أولا ترى الذباب أنه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه ؟. وأما الانسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافها حادة ، فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميها الى اطراف الأهداب . فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه ، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها .

أما ﴿ النحل ﴾ — فانظر كيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت :

« مِنَ الجبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ ومما يَعْرِشُونَ » (١)

واستخرج من لعابها الشمع والعسل ، وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء . وانظر فى عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والأقذار ، وفى طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم ، وأكبرهم شخصاً ، وهو أميرهم . وانظر كيف علّم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والانصاف بينهم ، حتى أنه ليقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة . ثم انظر الى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال المسدس ، فلا يبنى مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً ، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين ، وهو أن أوسع الأشكال وأجودها المستدير ، ثم ما يقرب منه ،

(١) النحل، الآية : ٦٨ .

فإن المربع تخرج منه زوايا ضايعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة ، لأن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، فهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف علم الله النحل مع صغر جرمها لطفاً بها وعناية بوجودها ليهنأ عيشها ، فسبحانه ما أعظم شأنه . وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها ، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الاحاطة به .

وأما ﴿ الانسان ﴾ — فنقول : لا ريب في أن أول كل انسان قطرة من ماء قذرة ، لو خليت بنفسها لأنتنها الهواء وأفسدها ، وكانت متفرقة في جميع اجزاء بدن الذكر ، فالقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الانثى وقادهما بسلاسل الشهوة الى الاجتماع ، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع ، وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة ، ولرحم الانثى قوة جاذبة ، حتى جذبتها من فم الاحليل الى نفسها ، وامتزجت بمني الانثى بحيث صارتا واحدة ، واستقرت في الرحم ، وجعل مبدأ عقد الصورة في مني الذكر ، ومبدأ انعقادها في مني الأنثى ، فهما بالنظر الى الجنين كالأنفحة واللبن بالقياس الى الجبن ، والحق إن لكل من المنيين القوة العاقدة والمنعقدة ، إلا أن الأولى في الذكوري والثانية في الانوثي أقوى ، وإلا لم يتحدا شيئاً واحداً ، ولم ينعقد الذكوري حتى يصير جزأ من الولد . فلو كان مزاج الانثى ذكورياً كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حاراً ، كان المني المنفصل عن كليتها اليمنى أحر كثيراً من المنفصل عن كليتها اليسرى ، فاذا اجتمعا في الرحم ،

وكان مزاج الرحم قوياً فى الامساك والجذب ، قام المنفصل عن الكلية اليمنى مقام منى الذكر فى شدة قوة العقد ، والمنفصل من اليسرى مقام منى الأنثى فى قوة الانعقاد ، فيختلق الولد ، وبهذا تتصحح ولادة مريم البتول - عليها السلام - حيث تمثل لها روح القدس بَشَراً سَوِيّاً حسن الصورة ، فمع تحقق ما ذكر لها تأيدت به - أى بروح القدس - وسرى أثر اتصالها به الى الطبيعة والبدن ، وتغير مزاجها ومد جميع القوى فى أفعالها بالمدد الروحانى ، فصارت أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس .

ثم ابتدأ خلق الجنين فى استقرار الماءين فى الرحم ، وشبه بالعجين إذا ألصق بالتنور ، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا ، كالبذر إذا نبت من الأرض ، فصارت نطفة . فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق اليها ، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة . ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى صار شبيهاً بالدم الجامد ، وهيج فيها ريحاً حارة فصارت مضغة . ثم أظهر فيها رسوم الأعضاء وشكلها وصورها ، فاحسن تصويرها ، فقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة من العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم.

ثم ركب الأعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والأعصاب ، فدور الرأس ، وشق البصر والسمع والفم والأنف وسائر المنافذ ، ومد اليد والرجل ، وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والأمعاء وغيرها من الأعضاء على شكل مخصوص ، وجعل لكل واحد منها عملا معيناً وفعلا مخصوصاً ، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو فى ظلمة الأحشاء محبوس وفى دم الحيض مغموس ، منضم فى صرة ، كفاه على خديه ، ومرفقاه على حقويه ، جمعت ركبتاه على صدره وذقنه على رأس ركبتيه ، وهو كشبه

نائم ، سرته متصلة بسرة أمه يمتص منها الغذاء ، ووجهه الى وجهها إن كان انثى والى ظهرها إن كان ذكراً . فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبر منها له وللرحم ، ولا للأب والام ، ولا يرى داخل النطفة أو الرحم ولا خارجها نقاش يصل اليه أثر نقشه . فكأن الجنين بلسان حاله ينادى قلوب العارفين بنغمات تهيجها وترقصها : تصورونى فى ظلمة الاحشاء مغموساً بدم الحيض ، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهى ، فينقش النقاش اجفانى وحدقتى ، ويصور المصور خدى وشفتى ، ولا يزال يظهر علىّ نقش بعد نقش وصورة بعد صورة ، ولا أرى نقاشاً ولا مصوراً ، أو لا تتعجبون من هذا النقاش الذى لا يحتاج الى تماس ومزاولة ولا يفتقر الى آلة ومباشرة ، أو لا تنتقلون من عجيب صنعه الى عظيم قدرته وجسيم عظمته ، أو ليس لكم أعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون ، فكيف تنظرون الى تكون اعضائى وعجائبها ولا تعتبرون ؟!

فانظر الآن - يا حبيبى - فى نبذ من العجائب والحكم المودعة فى بعض من هذه الأعضاء ، فتأمل فى (العظام) التى هى أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، وأحكمها وصلبها فى الرحم بين المياه ، مع أن صلابة المائع فى الماء محال عادة ، وجعلها قواماً ودعامة للبدن ، ولذا صلبها وأحكمها لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة ، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال متفاوتة ، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض ومجوف ومصمت ، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة ، ولما كان الانسان محتاجاً الى الحركة ، تارة بجملة بدنه ، وتارة ببعض أعضائه ، لم يخلقه من عظم واحد ، بل جعل له عظاماً كثيرة بينها مفاصل ، حتى تتيسر له الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة

بها ، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عماداً للبدن خلقه مصمتاً ، وان جعل فيه المسام والخلل التى لابد منها ، وما يحتاج اليه للحركة ايضاً ، زاد فى تجويفه ليكون أخف ، وجعل تجويفه فى الوسط واحداً لئلا يحتاج فى وصول الغذاء اليه الى التجاويف والخلل المتفرقة ، فيصير رخواً ، بل صلبه مع تجويفه ، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفه ، وما كانت الحاجة فيه الى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل ، وما كان الاحتياج فيه الى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد ، وجمع غذاءه وهو المخ فى حشوه ليغذوه ويرطبه دائماً ، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة .

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين وألصقها بالآخر ، كالرباط ، وخلق فى أحدهما زوائد خارجه منه وفى الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ، ليدخل فيها وينطبق عليها ، ولذلك لو أراد الانسان أن يحرك جزأ من بدنه دون سائر اعضائه لم يتعسر عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهى من العظم ألين ومن اللحم أصلب ، ليحسن اتصال الصلب باللين ، فلا يتأذى منه ، خصوصاً عند الضربة والضغطة ، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحاكة ، فلا تتراض لصلابتها .

ثم انظر — يا أخى — فى (العروق) وما فيها من العجائب والحكم ، فانها خلقت على نوعين : (أحدهما) الشرايين : وهى العروق الضوارب المتحركة ، ومنبتها القلب . ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة فى سائر الأعضاء لإيصال الروح والحياة منه اليها ، ولها حركتان ، انقباضية يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب ،

وانبساطية يجذب بها صافى النسيم اليه ، ليستريح ، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخانى ، وخلقت ذات صفاقين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح ، وجعل الصفاق الداخل أصلب لأنه الملاق لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح ، فاوجب الحكمة الإلهية زيادة إحكامها حفظاً لها عن الانشقاق ، لقوة حركة الروح ، وتقوية لمحل الحرارة الغريزية ، لئلا يتحلل شئ منها بتحلل محلها . وواحد من هذه الشرايين ، ويسمى الشريان الوريدى ، لما كان حاملاً لغذاء الرية لأن غذاءها من القلب ، فيغوص فيها ويصير شعباً ، لخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها ، مع عـــدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته . فلم تكن حاجة الى زيادة استحكامه ، على أن الرية تحتاج الى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة . وكثرة الصلابة منافية لذلك . (وثانيهما) العروق الساكنة : وتسمى الأوردة ، وشأنها جذب الغذاء من المعدة الى الكبد ومنه الى سائر الأعضاء . وهى ذات صفاق واحد لأنها ساكنة ، فلا يخشى انشقاقها . وجعل واحد منها ويسمى الوريد الشريانى ذا صفاقين لنفوذه فى التجويف الأيمن من القلب ، فكان اللازم زيادة وثاقته ، لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته ، وهو الذى يأتى بغذاء الرية الى القلب ، وإذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدى منه الغذاء ويذهب به الى الرية .

فانظر - يا أخى - الى عجيب حكمة ربك ، فان حامل غذاء الرية ما دام نافذاً فى القلب ومصادماً لحركته خلق صلباً ذا صفاقين ، وإذا خلص عنه الى الرية التى لا تتحمل الصلب جعل رخواً ذا صفاق واحد ، فسبحانه ما أجل شأنه وأعظم برهانه .

ثم تفكر أيها المتفكر فى (الرأس) وعجيب خلقه ، حيث ركبّه من عظام مختلفة الأشكال والصور ، وألف بعضها الى بعض حتى استوت كرة كما تراه ، وجعله مجمع الحواس ، ولذا جعله مستديراً ، لان المستدير أبعد من الآفات بالقياس الى ذى الزاوية ، وأعظم مساحة منه مع تساوى احاطتهما ، وجعل استدارته الى طول ، لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة فى الطول ، فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت ، وألف قحفه (١) من ستة أعظم : اثنان بمنزلة السقف وأربعة بمثابة الجدران ، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤن ، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذى هو السقف ، لان الصدمات عليها أكثر ، وتخلخل اليافوخ مما لابد منه لخروج الابخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ) (٢) وفائدة الدروز أن تخرج منها الابخرة المتحللة فى الدماغ لئلا يؤدى مكثها الى الصداع وغيره من الامراض الدماغية ، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لانه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج الى زيادة وثاقة .

وخلق فيها الدماغ ليناً دسماً ، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة ، ولتكون الاعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر ، وجعل مزاجه رطباً بارداً لتنفعل القوى المودعة فيه عن مدركاتها . ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات الفكرية ، وجعل مقدمه الذى هو منبت الاعصاب الحسية ألين من مؤخره الذى هو منبت أعصاب الحركة ، لان الحركة لا تحصل إلا بالقوة ، والقوة إنما تحصل بالصلابة . ثم جلل الدماغ بغشاءين : (أحدهما) رقيق لين ملاصق

(١) القحف : العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان قال فى القاموس : « ولا يدعي قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء » .

(٢) هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة ، لكنها غير موجودة فى النسخة الخطية الاخرى .

لجوهره ، و (ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف ، وهو مثقب بثقب كثيرة لاندفاع الفضول منه ، وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف الى ظاهره ، ليتشبث بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه ، وجعل بين جزئى الدماغ المقدم والمؤخر حجاباً لطيفاً ليحجب عن مماسة الألين بالأصلب فيتأذى منه ، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجة(١) شبيهة بالشباك ، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد الى الدماغ ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ ، ليبرد فيها الدم الشريانى والروح ، ويتشبه بالمزاج الدماغى بعد النضج ، ثم يتخلص الى الدماغ على التدريج ، ولولاه لم يصلح الدم الكبدى والروح القلبى لكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ ، ولم يناسبا جوهره . وجعل الفرج التى بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددى لئلا تبقى خالية ، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها .

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة . ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها ، وكان اللازم ايصالها منه اليهما ، ولم يكن ذلك ممكناً بدون واسطة فى الايصال ، فخلق (الأعصاب)من جوهره ، ووصلها منه الى سائر الأعضاء من العظام وغيرها ، ليفيدها الدماغ بتوسطها حساً وحركة ، وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن . وأيضاً لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة . بل بعد اختلاطها باللحم والرباط ، لئلا يتأذى من صلابته .

ثم لما كان نزول جميع الأعصاب التى يحتاج اليها من الدماغ موجباً لثقل الرأس وعظمه . خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شئ به وهو (النخاع) ، وجعل فى أسفل القحف ثقباً وأخرجه منها ، وخصه بالعنق والصلب ،

(١) الموجود فى نسختنا الخطية : « فسحة » بدل (نسيجة) .

وأخرج منه كثيراً من الأعصاب المحتاج اليها الى الأعضاء . فالدماغ بمنزلة العين والينبوع للحس والحركة ، والنخاع بمثابة النهر العظيم الجارى منه ، والأعصاب كالجداول . والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول .

ثم انظر - يا حبيبى - كيف خلق (العين) وفتحها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ، ورتب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص ، لو تغير شىء منها عما عليه لاختل أمر الابصار ، وتأمل كيف أظهر فى حدقتها التى بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع أكنافها وتباعد اقطارها . وحماها بالاجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها ، وجعلها وقاية لها يدفع بها الأقذاء عنها ، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع اليها عند انطباقها ، وجعل الجفن الأسفل أصغر من الأعلى ، لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه ، وأما الأسفل فغير متحرك ، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئاً من الحدقة دائماً ، ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل .

ثم زين الأجفان بـ(الأهداب) ليمنع من الحدقة بعض الأشياء التى لا يمنعها الأجفان مع انفتاح العين - كما ترى عند هبوب الرياح التى يأتى بالأقذاء - فيفتح العين أدنى فتح ، وتتصل الأهداب الفوقانية بالسفلانية ، فيحصل شبه شباك ينظر من ورائه ، فتحصل الرؤية مع دفع القذى .

ثم انظر كيف شق (الأذن) وأودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها ، وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذى ، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الأصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذى فى داخلها ويموّجه - كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شىء - حتى يصل الى العصبة المفروشة على الصماخ التى فيها قوة السمع ، فيدرك الصوت . وجعل فى منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة

ما يدب فيها ويطول طريقها ، فيتنبه صاحبها إذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها ، وخلق فيها جرماً نتناً عفناً لتنفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها .

ثم تأمل كيف زين الوجه بـ (الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل .

وزين وجه الرجل بـ (اللحية) ووجه المرأة بعدمها ، والمتأمل يعرف ان اللحية زين للرجل وشين للمرأة ، وهذا من عجائب الحكمة .

وزين الوجه برفع (الأنف) من وسطه ، وحسن شكله وفتح منخريه ، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق الهواء الطيب الصافى ، ويدفع الهواء الحار الدخانى ، ترويحاً لقلبه ، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالباً الى أحدهما ، ويبقى الآخر مفتوحاً ، فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها .

ثم انظر الى (الفم) وعجائبه والى اللسان وغرائبه ، فانه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفم ، وأودعه اللسان وجعله ناطقاً معرباً عما فى القلب ، ومكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الأصوات واخراج الحروف المتباينة ، وجعل له قدرة على الحركة فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها . وخلق (الفكين) وركب فيهما الاسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر ، فاحكم اصولها ، وحسن لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب ، كالدرر المنظومة ، مختلفة الاشكال باختلاف الاغراض والمقاصد ، متفاوتة الاوضاع بتفاوت الغايات والفوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة الى الكسر وتارة الى القطع واخرى الى الطحن ، فقسّم الاضراس الى عريضة طواحن كالأضراس ، والى حادة قواطع كالرباعيات ، والى ما يصلح للكسر كالانياب . والأضراس التي فى الفك

الاعلى لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو اربعة ، والتي فى الفك الاسفل اكتفى فى اصولها باثنين أو ثلاثة لعدم الاحتياج ، وجعل اسائر الاسنان أصلاً واحداً لعدم ثقل فيها . ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ، وهو ثابت لا يتحرك ، فيتم الطحن بذلك . فانظر فى عجيب صنع الله فى هذه الرحى حيث يدور الاسفل منها على الأعلى على خلاف سائر الأرحية ، لدوران الأعلى منها على الأسفل . والحكمة فى تحرك الأسفل دون الأعلى : أن الأعلى مجمع الدماغ والحواس ، فتحركه كان موجباً لاذيتهما واضطرابهما ، وايضاً هو مفصل الرأس والعنق ، فلو تحرك لم يستحكم ، مع أن الوثاقة فيه لازمة . ثم لما كان مضغ الطعام محتاجاً الى تحركه فيما تحت الأسنان ، فاعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف فى جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط الى الأسنان بحسب الحاجة . ولما كان الطعام يابساً فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة ، فخلق تحت اللسان عيناً جارية يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة ، حتى يعجن به الطعام ويقدر على ابتلاعه .

ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهيأها لخروج الأصوات ، وجعلها مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته ، حتى اختلفت بها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها فى الظلمة والغيبة .

ثم مد (العنق) وجعله مركباً للرأس ، وركبه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان ، لينطبق البعض على البعض ، ولما كان أكثر منافعه فى الحركة جعل مفاصله سلسة ، ولم يجعل زوائدها المفصلية

كبيرة كزوائد فقرات الصلب ، لتكون حركاته أسرع ، وتدارك تلك السلاسة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به .

ثم انظر الى عجائب (المعدة) وآلاتها التى يتم بها الاكل ، فجعل سطح الفم متصلا بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد ، حتى يحصل أولاً نوع انهضام بالمضغ ، ثم هيأ (المَرِى)(١) والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوى الطعام من دهليز المرى الى المعدة ، وإذا ورد عليها لا يصلح لان يصير عظماً ولحماً ودماً على هذه الهيئة ، بل لابد أن ينطبخ انطباخاً تاماً تتشابه أجزاؤه ، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الأبواب ، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الأربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرب ولحم الصلب ، فمن هذه الحرارات ينطبخ الطعام فى المعدة وينهضم ، حتى يصير كيلوساً (٢) أى جوهراً سيالا ليشبه ماء الكشك (٣) الثخين .

ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لإيصال صفو ما طبخ فى المعدة الى الكبد قسمين من العروق : (أحدهما) العروق المخلوقة فى تحت المعدة المتصلة بالمعاء المسماة بـ (ماساريقا)(٤) ، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها ، و (ثانيهما) العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة فى اجزائه ، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد ، فاذا انصب خالص الكيلوس فى الماساريقا يوصله الى باب الكبد ،

(١) هو الحرطوم المتصل بالاوداج الاربعة الى الحنجرة .

(٢) كلمة يونانية ، المراد منه هو الطعام المطبوخ فى المعدة طبخاً ناقصاً .

(٣) ماء الكشك : هو ماء الشعير .

(٤) أي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء . والكلمة يونانية .

وينصب منه الى العروق الليفية المتفرقة فى جوهر الكبد ، فتستولى قوة الكبد على هذا الكيلوس ، بحيث يلاقى كله كله ، ولذا يصير فعله فيه أشد وأسرع ، فيمتصه ويجذبه الى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحمرة ، حتى ينصبغ بلون الدم ، ومن هذا الطبخ يحصل شىء كالرغوة وهى (الصفراء) ، وشىء كالدودى وهو (السوداء) ، وشىء كبياض البيض وهو (البلغم) ، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الأول ايضاً ، وقد يصير شىء من هذا البلغم الى الكبد مع عصارة الطعام ، ويبقى المتصفى من هذه الجملة دماً ناضجاً ذا رطوبة مائية منتشرة فى العروق الشعرية ، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن ، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال ، وجعل لكل منهما عنقاً ممدوداً فى الكبد ، وجعل عنق الآخرين داخلا فى تجويف الكبد ، ولم يجعل عنق الكليتين داخلا فى تجويفه ، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذبا مائيته بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد ، إذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية .

ثم إذا انجذبت المائية من جانب محدّب الكبد من طريق العروق الطالعة منه الى الكليتين ، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحاً كماً وكيفاً لغذائهما فتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية ، ويندفع باقيها الى المثانة ، ومنها الى الاحليل . وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذى اتصل بالكبد ، وتقذفها من منفذ آخر لها الى الأمعاء ، ليلذعها بحدتها فتحركها على دفع الأثقال التى بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه الى الكبد ، فينضغط حتى تندفع منها الأثفال ، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية ، وصفرتها لذلك . وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل بمحدب

الكبد منه الرسوب السوداوى ويحيله حتى يكتسب قبضاً وحموضة ، ثم يرسل منه فى كل يوم شيئاً الى فم المعدة لتتنبه بالجوع ، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه ، ثم يخرج بخروج الثفل ايضاً . وأما (الدم) فيتوجه الى الأعضاء ويتوزع عليها فى شعب العرق الأجوف العظيم النابت من محدب الكبد ، فيسلك فى الأوردة المتشعبة منه فى جداول ، ثم فى سواقى الجداول ، ثم فى رواضع السواقى ، ثم فى العروق الشعرية الليفية ، ثم يترشح من فوهاتها فى الأعضاء بتقدير خالق الأرض والسماء .

ومما ذكر ظهر أنه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة ، فسد الدم وحصلت امراض الخلط الذى يجذبه من الكبد ، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الأمراض الصفراوية ، ولوحلت آفة بالطحال حصلت امراض سوداوية ، ولو لم تندفع المائية الى الكلى بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء .

وأما (البلغم) فما يتكون فى الكبد أو يصير اليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دماً ، وما بقى منه فى الأمعاء ولم ينحدر الى الكبد انغسل بمرة الصفراء التى شأنها تنقية الأمعاء من الفضول بحرافتها وحدتها وسيلانها ، ومن البلغم ما يبقى فى البدن لاحتياجه اليه فى حركة المفاصل وترطيب الأمعاء ، ومنه ما يخرج من الفم بالقئ والبصاق أو ينحدر من الرأس الى الفم ويخرج منه بالتنخع .

ثم انظر ـ يا أخى ـ فى (القلب) وعجائبه ، حيث خلقه جسماً صنوبرياً وجعله منبعاً لروح الحياة ، ولذا خلقه صلباً ليكون محفوظاً من الواردات ، وجعل هذا الروح جرماً حاراً لطيفاً نورانياً شفافاً ، وجعله مطية للنفس وقواها ، وأناط به حياة الانسان وبقاءه ، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه ، فكل عضو

يفيض عليه من سلطان نوره يكون حياً ، وإلا كان ميتاً . ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته . ويتوزع هذا الروح من القلب الذى هو منبعه الى سائر الأعضاء العالية والسافلة ، بوساطة سفراء الشرايين والأوردة . فما يصعد منه الى الدماغ بأيدى خوادم الشرايين ، ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ ، ثم يفيض على الأعضاء المدركة والمتحركة منبثاً فى جميع البدن ، يسمى (روحاً نفسانياً) . وما ينزل بصحابة أمناء الأوردة الى الكبد الذى هو مبدأ القوى النباتية ، ومنه يتفرق الى سائر الأعضاء ، يسمى (روحاً طبيعياً) . وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الأمشاج الأربعة ، كما خلق الأعضاء من كثائفها . وهذا الروح مثاله جرم نار السراج ، والقلب الذى محله كالمسرجة له ، والدم الأسود الذى فى باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى جميع أجزاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت . وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح ايضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه ، وكما أن الفتيلة قد تحترق وتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت ، فكذلك الدم الأسود الذى فى باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذى تبقى الروح به ، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به ، وكما أن السراج ينطفىء تارة بسبب من داخل — كما ذكرنا — وتارة بسبب من خارج ، كهبوب ريح أو إطفاء انسان ، فكذلك إنطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج ، كالقتل ، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك إنطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الانسان ، وهو أجله الذى أجّل له فى أم الكتاب . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح إذا إنطفأ أظلم البدن كله ، وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح ، وهى

أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة .

ثم انظر - ياحبيبى - إن كنت من أهل اليقظة فى (اليدين) وحكمتهما ، حيث طولهما لتمتدا الى المقاصد ، وعرّض الكف ووضع عليها الأصابع الخمس ، وقسم كل اصبع بثلاث أنامل ، وجعل الابهام فى جانب ، والبواقى فى جانب ، ليدور عليها ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر فى وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بُعد الابهام من الأربع وترتبها فى صف واحد وتفاوتها فى الطول والقصر ، على أن يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه فى الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والاعطاء ، فان بسطتها كانت لك طبقاً تضع عليها ما تريد ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض ، وإن ضممتها ضما غير تام كانت لك مغرفة ، وإن وضعت الابهام على السبابة كانت لك مخرقة ، وإن بسطت الكف مع اتصال الأصابع كانت لك مجرفة . وإن بسطت الكف وجمعت عليها الاصابع كانت لك محرزة ، الى غير ذلك من المنافع .

ثم خلق (الأظفار) على رؤسها ، زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها ، حتى لا تنفت ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لو عدمه الانسان وحدثت به حكة لكان أضعف الخلق واعجزهم ، ثم هدى (اليد) الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو فى حالة النوم والغفلة من غير حاجة الى فحص وطلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك .

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم ، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص ، ليتحرك بهما الانسان الى أى موضع أراد ،

ولو تغير شيء من الشكل أو الوضع أو التركيب في جزء من أجزائهما لاختل أمر الحركة ، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساساً له وحاملين لثقله ، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة اليه ، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لا يتصور بدون ذلك . فانظر في عجيب حكمة ربك حيث جعل الأخف والأدق والأصغر أساساً وحاملا للأثقل والأغلظ والأكبر ، مع أن كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ مما يبنى عليه ، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول ، فسبحانه من خالق لا نهاية لعجائب حكمته وغرائب قدرته .

ثم خلق جميع ذلك في النطفة في جوف الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف عنها الغطاء وامتد اليها البصر ، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج الى مباشرة آلة ولا افتقار الى مكادحة عمل .

تذنيب

ثم تأمل - أيها المتأمل - في عجائب حكم ربك : إنه لما كبر الصبي وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل الى الخروج حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير . ولما خرج وكان محتاجاً الى الغذاء ولم يحتمل بدنه الأغذية الكثيفة للينه ورخاوته خلق له اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم خالصاً سائغاً ، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن ، وأنبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي ، وهداه الى التقامها ، وفتح فيها ثقباً ضيقة جداً ، حتى لايخرج اللبن إلا بعد المص تدريجاً ، لأن الطفل لا يطيق

منه إلا القليل ، ثم هداه الى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، وأخر خلق الأسنان الى تمام الحولين ، لأنه لا يحتاج فيهما اليها لتغذيه باللبن ، وما دام مغتذيا به لما كان فى دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء ، لتسيل به تلك الرطوبة ، فلا تنزل الى بصره أو إلى غيره من أعضائه فتفسده ، ثم لما كبر ولم يوافقه اللبن السخيف وافتقر الى الأغذية الغليظة المحتاجة الى المضغ والطحن أنبت له الأسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير ، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله ما دام عاجزاً عن تدبير نفسه .

ثم رزقه الادراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ، وأودع فى نفسه المجردة وقواها الباطنة أسراراً عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش منها نواقب الأنظار والفهوم . فانظر الى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوى السماء والأرض وتتحرك من المغرب الى المشرق فى آن واحد،والى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعانى الجزئية فى لحظة واحدة، وتأخذها من حواق الأشياء ، والى المتخيلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد فى أمر المعاش والمعاد .

ثم انظر فى عجائب النفس وعالمها : من إحاطتها بالبدن كله وتدبيرها له، مع تنزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية، وتمكنها من الاحاطة على حقائق الأشياء بأسرها ، وتصرفها فى الملك والملكوت بقوتها العقلية والعملية ، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها ، ومن تطوراتها فى الأطوار المختلفة ، وتقلبها فى النشآت المتباينة ، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها ، من لدن تعلقها بالنطفة القذرة الى صيرورتها عالماً ربانياً محيطاً بحقائق الأشياء متصلا بالملكوت الأعلى ، ومن

اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه (١) ، واطاعة جميع الموجودات له، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها ، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن، وعلمه بصناعة الموسيق، واستنباطه أنواع الصنائع الارض ، وقد يتعدى الى عالم العجيبة والحرف الغريبة .

ومنها أمر الرؤيا واخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية ، وتأثيره فى مواد الأكوان بنزع صورة وإلباس اخرى ، فيؤثر بانقطاعه الى الله فى استحالة الهواء الى الغيم ونزول الأمطار ، وإزالة انواع الأمراض ؛ وإهلاك قوم وإنجائهم ، وتمكنه من فعل أو تحريك يخرج عن وسع مثله ، وإمساكه عن القوت مدة غير معتادة ، واقتداره على اظهار بدنه المثالى فى مواضع مختلفة فى وقت واحد ، واحضاره ما يريده من المطاعم والملابس ، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم منهم . فانظر - يا أخى - إن كنت من أهل اليقظة الى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القذرة ، وهذه النطفة هى التى قد تصير ملكاً شديد الهمة والبطش مسخراً للربع المسكون ، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله ، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات فى عالم الأرض ، وقد يتعدى الى عالم الافلاك ، فينشق القمر ويرد الشمس .

وليت شعرى ان الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حياً ، مع انه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه مجرد حس وحركة ، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة الى المراتب التى عرفتها. وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له ، مع أن هذا لا يدفع العجب والغرابة لو

(١) تذكير الضمير هنا وفيما يأتي باعتبار الانسان ، وتقدم مثله صفحة (١١) .

نظروا بعين العبرة والبصيرة ، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع ، فهما فى بلوغ النطفة الى المراتب المذكورة أقوى وأشد من احياء ميت ، أو دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليم ، فلا ريب أيضاً فى أن دلالة الأول على ذلك أشد من دلالة الثانى عليه ، إذ كل من رزق أدنى حظ من البصيرة يعلم ان بلوغ قطرة ماء قذرة الى المراتب المذكورة ليس إلا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم ، أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر ، فهذا فى امر النطفة أظهر ، وعلى أى تقدير كان يكون التعجب والغرابة فى بلوغ النطفة السخيفة القذرة الى المراتب المذكورة أشد وأحرى من التعجب فى احياء ميت أو ابراء أكمه أو ابرص أو تكلم حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات ، فالنظر الذى لا يقتضى منه العجب إنما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان ولم يصدر عن ذى قلب يقظان . وبالجملة : الحكم والعجائب المودعة فى النشأة الانسانية اكثر من أن تحصى ، وإنما اشرنا الى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر ، وتنبيهاً على كيفية التفكر فى سائر مجارى الفكر والنظر ، قال الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام : « إن الصورة الانسانية أكبر حجة لله على خلقه ، وهى الكتاب الذى كتبه بيده ، وهى الهيكل الذى بناه بحكمته ، وهى مجموع صور العالمين ، وهى المختصر من العلوم فى اللوح المحفوظ ، وهى الشاهد على كل غائب ، وهى الحجة على كل جاحد ، وهى الطريق المستقيم الى كل خير ، وهى الصراط الممدود بين الجنة والنار » .

* * *

وإذ عرفت نبذاً من عجائب نفسك وبدنك ، فقس عليه عجائب الارض التى هى مقرك : بوهادها ، وتلالها ، وسهلها ، وجبالها ، واشجارها ، وانهارها ، وبحارها

وازهارها ، وبرارها ، وعمارها ، ومدنها ، وامصارها ، ومعادنها ، وجمادها ، وحيوانها ، ونباتها ، فان كل ما نظرت اليه منها لو تأملته لوجدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحد ، ولرأيته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجده .

فانظر - أولا - الى (رواسى الجبال) وشوامخ الصم الصلاب ، كيف أحكم بها جوانب الأرض وأودع المياه تحتها ، فانفجرت من هذه الاحجار اليابسة والتربة الكدرة مياه عذبة صافية ، وأودع فيها الجواهر النفيسة العالية ، وهدى الناس الى استخراجها واستعمالها فيما ينبغى ، وخلق فى الأرض معادن يحتاج اليها نوع الانسان ، ولو فقد واحداً منها لم يتم انتظامه ، ولم يترك معمورة لم يكن فى قربها هذه المعادن ، وجعل ما يكون الاحتياج اليه أشد وأكثر اعمّ وجوداً وأقرب مسافة ، كالملح ومثله .

ثم انظر الى (انواع النبات) بكثرتها واختلافها فى الاشكال والألوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع ، فهذا يغذى ، وهذا يقوى ، وهذا يقتل ، وهذا يحيى ، وهذا يسخن ، وهذا يبرد ، وهذا يجفف ، وهذا يرطب ، وهذا يسهر ، وهذا ينوم ، وهذا يحزن ، وهذا يفرح . . . الى غير ذلك من المنافع المختلفة والفوائد المتباينة ، مع اشتراكها فى السقى من ماء واحد ، والخروج من أرض واحدة . (فان قلت) : اختلافها لاختلاف بذورها ، (قلنا) : متى كانت فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كانت فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة؟ وانظر الى كل شجر ونبت إذا أنزل عليها الماء كيف يهتز ويربو ويخضر وينمو بجميع اجزائه من الأصول والأغصان والأوراق والأثمار على نسبة واحدة ، من غير زيادة لجزء على آخر ، لوصول الماء اليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية ، فمن هذا

القاسم العدل فى فعل ما ليس له شعور ولا إدراك ؟ فتباً لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة الى مالا خبر له بوجوده وذاته ولا بافعاله وصفاته !

ثم انظر الى (أنواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها : من الطيور والوحوش والسباع والبهائم، كيف هدى الله كل واحد منها الى ترتيب المنزل وتحصيل القوت ، وجعل ما لا يتم معاش الانسان بدونه من الأنعام والبهائم مانوساً به غير متوحش عنه ، وغيره وحشياً عنه غير ألف به ، وجعل فى كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول ، فمن ذا الذى يقدر أن يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة ـ بل البقة والنملة ـ وغرائب أفعالها مع كونها من صغار الحيوانات ، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخارها لنفسها وهدايتها إلى حوائجها؟ فأى مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسى ؟ وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب . وبالجملة : كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب ما لا يمكن وصفه . وكل أحد انما يدرك قدر ما يصل اليه فهمه .

ثم انتقل من عالم الارض الى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس ، فان العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الارض ، كما أن سعته أضعاف سعته ، وكل حيوان يوجد فى الارض يوجد فيه ، وفيه حيوانات أخر ليس لها نظير فى البر أصلاً ، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة ، وكثيراً ما ينزل الركبان عليه فيتحرك . ومن عجائبه خلق اللؤلؤ فى صدفه تحت الماء، وإنبات المرجان من صم الصخور تحته، مع كونه على هيئة شجرة ثابتة نامية... وقس عليه الغير وسائر النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه. وبالجملة: عجائب البحر أضعاف عجائب البر ، وقد صنف جماعة فيها

مجلدات من الكتب ، ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير ، ولم يذكروا إلا قليلاً من كثير .

ثم انتقل الى (عالم الجو) وعجائبه من السحب والغيوم والأمطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود. فانظر الى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن فى جو صاف لايتحرك. إلا أن يأذن الله سبحانه فى ارساله الماء ، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى شاء وأراد ، فينزل قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى ، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة ، وعين كل قطرة لجزء من الأرض أو قوتاً لحيوان معين ، ولو كنت - يا حبيبي - ذا قلب لشاهدت فى كل قطرة خطاً إلهياً مكتوباً بقلم إلهى : إنه يصيب الجزء الفلانى من الأرض ، أو رزق للحيوان الفلانى فى الموضع الفلانى .

* * *

ثم ارفع رأسك إلى هذا (السقف الأخضر) قائلا: سبحانك! ما خلقت هذا باطلا . وانظر الى هذه الاجرام النورية وعجائبها ، واصرف برهة من وقتك فى الفحص عن حقائق غرائبها : من الشمس واضاءتها عالم الأكوان ، والقمر واختلاف تشكلاته فى الزيادة والنقصان ، وسائر الانجم الدائرة ، والكواكب الثابتة والسائرة ، واختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها وأوضاعها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ، وتباين منازلها ومواضعها ، واجتماعها واتصالها ، وتفرقها وانفصالها ، وطلوعها وافولها ، وكسوفها وخسوفها ، وانتظام حركاتها واتساق دورانها ، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها ، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات : من العقرب والحمل والثور والجدى والانسان والحوت والسرطان ، بل صور

غير الحيوان : من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك ، حتى ما من صورة فى الأرض إلا ولها تمثال فى السماء ، أيظن عاقل أن وضع هذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها فى اللون : ككمودة زحل ، وحمرة المريخ ، وقلب العقرب ، وصفرة عطارد ، ورصاصية الزهرة والمشترى ، بمجرد الاتفاق ، وليس لخالقها فى ذلك حكمة ومصلحة ؟ فما أشد جهلا وحمقاً من توهم ذلك !

ثم انظر الى حركة (الشمس) بسير فلكها وإتمامها الدور بهذا السير فى سنة ، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه ، وبسير آخر تطلع وتغرب فى كل يوم ، وتتم الدور بيوم وليلة ، فلولا سيرها الأول الموجب لغاية قربها الى وسط السماء مدة ، وغاية بعدها عنه تارة ، وتوسطها بين الغايتين مرتين ، لم تحصل الفصول الأربعة الموجبة لنشو النباتات والثمار ونضجها وبلوغها الى غاياتها المطلوبة ، ولولا سيرها الثانى لم يختلف الليل والنهار ، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، ولم تعرف المواقيت من الشهور والأعوام والساعات والأيام . وتأمل فى أنه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية ، لم يتم شىء من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من امور العالم السفلى .

ثم انظر الى عظم اقدار هذه الأجرام السماوية ، حتى لا قدر لجميع العوالم السفلية من الأرض والبحار وعالم الجو بالنسبه اليها ، فلا يمكن ان يقال جميع ذلك بالنسبة اليها ، بل بالنسبة الى فلك الشمس فقط - مثلا - كنسبة قطرة الى البحر المحيط ، وقد قال المهندسون : إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الأرض بجميعها ، بل قال بعضهم أكثر من ذلك ، ومع ذلك بينوا ان ثخن فلك المريخ ثلاثة أمثال غلظ فلك الشمس ، مع ما فيه من أفلاك

الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الأربعة ، ثم أصغر كوكب تراه فى السماء هو مثل جميع الأرض ثمانى مرات ، وأكبرها ينتهى الى قريب من مائة وعشرين مثلا للأرض .

ثم انظر مع هذا العظم الى سرعة حركتها وخفتها ، فإن شدة سرعة حركتها مما لا يمكن دركها ، إلا انك لا تشك فى أن كل جزء من الفلك فى لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب ، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه فى غاية القلة . وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الأرض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة ، والأقل قدراً أن يكون مثلها ثمانى مرات ، فقد دار كل جزء من الفلك فى هذه اللحظة مثل الأرض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة . وقد عبر روح الأمين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك ، إذ قال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « هل زالت الشمس ؟ » ، قال : لا . نعم ! فقال له : « كيف تقول لا . نعم ! » ، فقال : من حيث قلت : لا ، الى أن قلت نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام .

فتيقظ ـ يا أخى ـ من نوم الطبيعة ، وتأمل من الذى حرك هذه الأجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة ، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين بصغرها ، وتفكر من ذا الذى سخرها وأدار رحاها ، فقل : (بسم الله مجريها ومرسيها) ، ولو نظرت اليها بعين البصيرة ، لعلمت انها عباد طائعون خاضعون ، وعشاق إلهيون والهون ، وبإشارة من ربهم الى يوم القيامة رقاصون دائرون .

وبالجملة : لو نظرت بعين العبرة فى ذرات الوجود لا تجد ذرة من ملكوت السماوات والأرض إلا وفيها غرائب حكمة يكل البيان عن وصفها ،

ولو كان لك قلب وألقيت السمع وأنت شهيد ، لعلمت أن جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الأعلى ، وما من ذرة إلا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة ، قائلة لأصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها ، ومنادية لأرباب القلوب بنغماتها : أو ما تنظرون الى خلق وتكويني وتصويري وتركيبي واختلاف صفاتي وحالاتي وتحولي في اطواري وتقلباتي ؟ أو لا تشاهدون كثرة فوائدي ومنافعي وغرائب حكمي ومصالحي ؟ أتظنون أني تكونت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي ؟ أو تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتجزمون أنها صنعة آدمي مريد عالم ومتكلم قادر ، ثم تنظرون الى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي والعجائب الربانية المودعة في باطني وظاهري ، ومع ذلك عن عظمة ربي غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون ؟!

(تتميم)

قد دريت اجمالا أن التفكر النافع محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب أفعاله ، والتفكر في ما يقرب العبد الى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه . وغير ذلك من الأفكار ليس نافعاً ولا متعلقاً بالدين . مثال ذلك : أن حال السائر الى الله الطالب للقائه ، كحال العاشق المستهتر ، فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله وفي صفاته وافعاله وفي افعال نفسه التي تقربه منه وتحببه اليه ليتصف بها ، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها . ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق ، كذلك المحب الخالص لله ينبغي ان يحصر فكره في الله وفي صفاته وأفعاله وفيما يقربه منه ويحببه اليه أو يبعده عنه . ولو تفكر في غير ذلك كان كاذبا فيما يدعيه من الشوق والحب

ثم التفكر فى ذات الله ، بل فى بعض صفاته مما لا يجوز ، وقد منعته الشريعة الحقة الإلهية والحكمة المتعالية الحقيقية ، لأن ذاته أجل من أن تكون مرقى لأقدام الافهام ، أو مرمى لسهام الأوهام ، فطرح النظر اليه يورث اختلاط الذهن والحيرة ، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة ، وبعض الصديقين المتجردين عن جلباب البدن لو اطاقوا اليه مد البصر فانما هو كالبرق الخاطف ، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبحات وجهه . وحال الصديقين فى ذلك كحال الانسان فى النظر الى الشمس ، فانه وإن قدر على مد البصر اليها ، إلا أن ادامته يورث الضعف والعمش ، بل لا مشابهة بين الحالين ، وانما هو مجرد تقريب وتفهيم ، فان المناسبة بين نور الشمس ونور البصر فى الجملة ثابتة ، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور الانوار القاهر على كل نور بالاحاطة والغلبة ، وما من نور إلا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره ، فكل نور فى مرتبة نوره زائل ، وكل ظهور فى جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل .

ولما كان التفكر فى ذاته تعالى مذموماً ، فانحصر التفكر الممدوح فى التفكر فى عجائب صنعه وبدائع خلقه - وقد تقدم - وفى ما يقرب العبد الى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية ، وما يبعده عنه من الملكات الباطنة والمعاصى الظاهرة . وهذه الملكات والأفعال هى المعبر عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التى تذكر فى هذا الكتاب وفى غيره من كتب الاخلاق ، والمراد بالتفكر فيها ههنا أن يتفكر العبد فى كل يوم وليلة فى وقت واحد أو أوقات متعددة فى أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة ، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه ، فإن وجد قلبه مستقيما على جادة العدالة متصفاً بجميع الفضائل الخلقية ومجتنباً عن الرذائل الباطنة ، ووجد أعضاءه

ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة اليها ، فليشكر الله على عظيم توفيقه . وإن وجد في قلبه شيئاً من الرذائل أو رآه خالياً عن بعض الفضائل ، فليبادر الى العلاج بالقوانين المقررة ، بعد التفكر في سوء خاتمته وادائه الى مقت الله وهلاكه ، وكذلك إن عثر بالتفكر على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة .

ولا ريب في أن هذا القسم من التفكر له مجال متسع والقدر الضروري منه يستغرق اليوم بليلته ، والاستقصاء فيه خارج عن حيطة شهر وسنة ، إذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة : من البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحقد ، والحسد ، والجبن ، وشدة الغضب ، والحرص والطمع وشره الطعام والوقاع ، وحبّ المال ، وحب الجاه ، والنفاق ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور ... وغير ذلك . وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه ، ويتفقد منها هذه الصفات ، فان وجدها بطنه خالية عنها ، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية ، فان النفس قد تُلبس الأمر على صاحبها : فإن ادعت البراءة من الكبر ، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء أو حزمة حطب في السوق ، فان ادعت البراءة من الغضب فليجرب بإيقاعها في معرض اهانة السفهاء ، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها انفسهم ، حتى يطمئن بانقطاع اصولها وفروعها من قلبه . ولو وجد بالامتحان أو تصريح المشاهدة والعيان شيئاً منها في قلبه ، فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة ، أو ملازمة أولي الأخلاق الفاضلة ومجالسة اصحاب الورع والتقوى ، أو بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك . فان نفع شيء منها في الازالة بالسهولة

فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده .

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية : كاليقين ، والتوكل ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والشجاعة والسخاء ، والزهد والورع ، والاخلاص فى العمل ، وستر العيوب . والندم على الذنوب ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحبّ الله والخشوع له ... وغير ذلك ، فان وجد قلبه متصفاً بالجميع فليجربه بالعاملات حتى يطمئن من تلبيس النفس - كما علمت طريقه - وإن وجد قلبه خالياً من شئ منها فليتفكر فى طريق تحصيله - كما أشير اليه - . ثم يتوجه الى كل واحد من أعضائه ويتفكر فى المعاصى المتعلقة به ، مثل أن ينظر فى لسانه ، ويتفكر فى أنه هل صدر منه شئ من الغيبة ، أو الكذب ، أو الفحش ، أو فضول الكلام ، أو النميمة ، أو الثناء على النفس ، أو غير ذلك . ثم ينظر فى سمعه ، ويتفكر فى أنه هل سمع شيئاً من ذلك . ثم ينظر فى بطنه هل عصى الله بأكل حرام أو شبهة ، أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغيرذلك ... وهكذا يفعل فى كل عضو عضو .

ثم يتفكر فى الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل ، فإن وجد - بعد التفكر - عدم صدور شئ من المعاصى عن شيء منها ، واتيانها بالطاعات المفروضة عليها بأسرها وبالنوافل المرغبة اليها بقدر اليسر والاستطاعة ، فليحمد الله على ذلك ، وإن عثر على صدور شيء من المعاصى أو ترك شيء من الفرائض ، فليتفكر أولا فى الأسباب الباعثة على ذلك ، من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة أقران السوء أو غير ذلك ، فليبادر الى قطع السبب ، ثم التدارك بالتوبة والندم ،

لئلا يكون غده مثل يومه . وهذا القدر من التفكر فى كل يوم وليلة لازم لكل ديّن معتقد بالنشأة الآخرة ، وقد كان ذلك عادة وديدناً لسلفنا المتقين فى صبيحة كل يوم أو عشية كل ليلة ، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤس المهلكات والمنجيات ويعرضون فى كل يوم وليلة صفاتهم عليها ، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة أو الاتصاف بفضيلة يخطون عليها فى الجريدة ، ويدعون الفكر فيها ، ثم يقبلون على البواقى ، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع ، ومن كان أقل مرتبة منهم من الصلحاء ربما يثبتون فى جريدتهم بعض المعاصى الظاهرة ، من اكل الحرام ، والشبهة ، واطلاق اللسان ، والكذب ، والغيبة والمراء ، والنميمة ، والمداهنة مع الخلق بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ... وغير ذلك ، ويفعلون بمثل ما مر .

وبالجملة : كان اخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكر ، ويرونه من لوازم الايمان بالحساب ، فاف علينا حيث تركنا بهم التأسى والقدوة ، وخضنا فى غمرات الغفلة ، ولعمرى انهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم ايماننا بيوم الحساب ، كيف واعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار . فان من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، ونحن ندعى الخوف من النار ونعلم ان الهرب منها بترك المعاصى ومع ذلك منهمكون فيها ، وندعي الشوق الى الجنة ونعلم أن الوصول اليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون فى فعلها .

ثم هذا النوع من التفكر إنما هو تفكر العلماء والصالحين ، وأما تفكر الصديقين فاجل من ذلك ، لأنهم مستغرقون فى لجة الحب والانس ، منقطعون بشراشرهم الى جناب القدس ، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به ، بحيث فنى عن نفسه ونسى صفاته وأحواله ، فحالهم أبداً كحال

العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق ، ولا تظن أن هذا التفكر - بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكر فى عظمة الله وجلاله - يمكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية ، فإن حال المتفكر فى جلال الله وعظمته مع اتصافه بالاخلاق الرذيلة ، كحال العاشق الذى خلى بمحبوبه ، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد اخرى، فتمنعه عن لذة المشاهدة والانس . ولا يتم ابتهاجه إلا باخراجها عن ثيابه . ولا ريب أن الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات ، ومن كان له أدنى معرفة وتوجه الى مناجاة ربه وكان فى نفسه شىء منها ، يجد أنه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج ، ثم إن لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهوراً بيناً للمنهمكين فى علائق الطبيعة ، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد ألم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى .

(تصحيح)

تيقظ - يا حبيبى - من نوم الغفلة ، وتفكر اليوم لغدك ، قبل ان تُنشِبَ مخالب الموت فى جسدك ، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكر فى صفاتك وأحوالك . واعلم على سبيل القطع واليقين أن كل ما فى نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بازائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية ، واسمع قول سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - ولو كنت ذا قلب لكفاك ايقاظاً وتنبيهاً ، حيث قال : « إن روح القدس نفث فى روعى : أحب ما أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فانك ميت ، واعمل ما شئت فانك مجزى به » . ولعمرى أنك إن كنت مؤمناً بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظاً وحائلا بينك وبين الالتفات الى الدنيا وأهلها . وبالجملة : ينبغى للمؤمن ألا يخلو فى كل يوم وليلة عن التفكر

فى صفاته وأفعاله ، وإذا صرف برهة من وقته فى هذا التفكر وبرهة أخرى فى التفكر فى عجائب قدرة ربه ، وصار ذلك معتاداً له ، حصل لنفسه كمال قوتيها العقلية والعملية ، وخلصت عن الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية ، وفقنا الله بعظيم فضله الوصول الى ما خلقنا لأجله .

(ومنها) - أى ومن رذائل القوة العاقلة - استنباط وجوده :

المكر والحيل

للوصول الى مقتضيات قوتى الغضب والشهوة . وأعلم أن المكر ، والحيلة ، والخدعة ، والنكر ، والدهاء : ألفاظ مترادفة ، وهى فى اللغة قد تطلق على شدة الفطانة، وأرباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الامور من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة ، ولذا جعلوها ضداً للذكاء وسرعة الفهم ، والعرف خصصها باستنباط هذه الامور إذا كانت موجبة لاصابة مكروه إلى الغير من حيث لا يعلم ، وربما فسّر بذلك فى اللغة أيضاً ، وهذا المعنى هو المراد هنا .

ولتركبه من اصابة المكروه إلى الغير ومن التلبيس عليه ، يكون ضده استنباط الامور المؤدية الى الخيرية ، والنصيحة لكل مسلم ، واستواء العلانية للسريرية .

ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبيس والغش والغدر وامثالها، إما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها . أو بتخصيص الأولى بنفس استنباط الامور المذكورة والثانية بارتكابها، ولذا عدت الاولى من رذائل القوة الوهمية أو العاقلة للعذر المذكور ، والثانية من رذائل الشهوية، وربما كان استعمالها على الترادف، واطلق كل منهما على ما تطلق عليه الأخرى .

هذا وللمكر مراتب شتى ودرجات لاتحصى من حيث الظهور والخفاء، فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له أدنى شعور ، وربما كان فى غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكياء . ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة واطمئنان غافل ، ثم التهجم عليه بالايذاء والمكروه . والباعث لظهور الأمانة والديانة وتسليم الناس أموالهم ونفائسهم اليه على سبيل الوديعة أو المشاركة أو المعاملة،ثم أخذهاوسرقها على نحو آخر من وجوه المكر . وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس إياه إماماً أو أميراً فيفسد عليهم باطناً دينهم ودنياهم . وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع .

ثم المكر من المهلكات العظيمة،لأنه اظهر صفات الشيطان والمتصف به أعظم جنوده ، ومعصيته أشد من معصية إصابة المكروه الى الغير فى العلانية ، إذ المطلع بارادة الغير ايذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه ، فربما دفع أذيته ، وأما الغافل فليس فى مقام الاحتياط ، لظنه أن هذا المكار المحيل محب وناصح له ، فيصل اليه ضره وكيده فى لباس الصداقة والمحبة . فمن أحضر طعاماً مسموماً عند الغير مريداً إهلاكه فهو أخبث نفساً وأشد معصية ممن شهر سيفه علانية مريداً قتله ، إذ الثانى أظهر ما فى بطنه وأعلم هذا الغير بارادته،فيجزم بأنه عدو محارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضره ، فربما تمكن من دفعه ، وأما الأول فظاهره فى مقام الاحسان وباطنه فى مقام الايذاء والعدوان ، والغافل المسكين لا خبر له عن خباثة باطنه ، فيقطع بأنه يحسن اليه ، فلا يكون معه فى مقام الدفع والاحتياط ، بل فى مقام المحبة والوداد ، فيقتله وهو يعلم أنه يحسن اليه ، ويهلكه وهو فى مقام الخجل منه .

وبالجملة : هذه الرذيلة اخبث الرذائل واشدها معصية ، ولذلك قال

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ليس منا من ماكر مسلماً » . وقال أمير المؤمنين ﷺ : « لو لا أن المكر والخديعة فى النار لكنت أمكر الناس » ، وكان ﷺ كثيراً ما يتنفس الصعداء ويقول : « واويلاه يمكرون بى ويعلمون أنى بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر ، ولكنى أعلم أن المكر والخديعة فى النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا » .

وطريق علاجه - بعد اليقظة - أن يتأمل فى سوء خاتمته ووخامة عاقبته ، وفى تأديته الى النار ومجاورة الشياطين والاشرار ، ويتذكر أن وبال كل مكر وحيلة يرجع فى الدنيا الى صاحبه ، كما نطقت به الآيات والأخبار وشهدت به التجربة والاعتبار . ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده ، اعنى استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه فى افعاله واقواله - كما يأتى فى محله - وبعد ذلك لو كان عاقلا مشفقاً على نفسه لا جتنب عنه كل الاجتناب ،وينبغى أن يقدم التروى فى كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة،وإذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتباً لنفسه،وإذا تكرر منه ذلك تزول عن نفسه اصول المكر وفروعه بالكلية بعون الله وتوفيقه .

المقام الثانى

(فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج)

التهور والجبن والشجاعة - الخوف - الخوف المذموم واقسامه - الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته - بم يتحقق الخوف - الخوف من الله أفضل الفضائل - الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً - طرق تحصيل الخوف الممدوح - خوف سوء الخاتمة وأسبابه - الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله - التلازم بين الخوف والرجاء - مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر - العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف - مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف امراضهم - صغر النفس وكبرها وصلابتها - الثبات - دناءة الهمة وعلوها - الغيرة والحية وعدمهما - الغيرة على الدين والحريم والأولاد - العجلة - الاناة والتوقف والوقار والسكينة - سوء الظن - حسن الظن - الغضب - الافراط والتفريط والاعتدال فى قوته - ذم الغضب - امكان ازالة الغضب وطرق علاجه - فضيلة الحلم وكظم الغيظ - الانتقام والعفو - العنف والرفق - فضيلة الرفق - المداراة - سوء الخلق بالمعنى الاخص - طرق اكتساب حسن الخلق - الحقد - العداوة الظاهرة - الضرب والفحش واللعن والطعن - العجب - ذمه - آفاته - علاجه اجمالا وتفصيلا - انكسار النفس - الكبر - ذمه - التكبر على الله والناس - درجات الكبر - علاجه علما وعملا - التواضع - الذلة - الافتخار - البغى - تزكية النفس - العصبية - كتمان الحق - الانصاف والاستقامة على الحق - القساوة .

فنقول : أما جنسا رذائلها (١) ، فأحدهما ، :

التهور

كما علم ،وهو من طرف الافراط :أى الاقدام على مالا ينبغى والخوض فى مايمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف . ولاريب فى انه من المهلكات فى الدنيا والآخرة . ويدل على ذمه كل ماورد فى وجوب محافظة النفس وفى المنع عن إلقائها فى المهالك ، كقوله تعالى :

« وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ » (٢)

وغير ذلك من الآيات والأخبار . والحق أن من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال عن شائبة من الجنون ، وكيف يستحق اسم العقل من ألقى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة ، أو وقع (٣) فى الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية . كيف ومن ألقى نفسه فيما يظن به العطب ، فهلك ، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة ، وهو يوجب الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية .

وعلاجه ـ بعد تذكر مفاسده فى الدنيا والآخرة ـ أن يقدّم التروى فى كل فعل يريد الخوض فيه ، فان جوّزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه ، وإلا تركه ولم يقدم عليه . وربما احتاج فى معالجته أن يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه ، حتى يقع فى طرف التفريط ، وإذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذى هو الشجاعة .

(١) أي القوة الغضبية . (٢) البقرة ، الآية : ١٩٥ .
(٣) كذا فى النسختين ، ولعل الصحيح (أو أوقع نفسه) .

« وثانيهما » :

الجبن

وهو سكون النفس عن الحركة الى الانتقام أو غيره ، مع كونها اولى . والغضب إفراط فى تلك الحركة ، فله ضدية للغضب باعتبار ، وللتهور باعتبار آخر . وعلى الاعتبارين هو فى طرف التفريط من المهلكات العظيمة . ويلزمه من الأعراض الذميمة : مهانة النفس ، والذلة ، وسوء العيش ، وطمع الناس فيما يملكه ، وقلة ثباته فى الامور ، والكسل ، وحب الراحة ، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه ، وتحمله للفضائح فى نفسه وأهله ، واستماع القبائح من الشتم والقذف ، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار ، وتعطيل مقاصده ومهماته ، ولذلك ورد فى ذمه من الشريعة ما ورد . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لاينبغى للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، واعوذ بك أن ارد الى أرذل العمر » .

وعلاجه ـ بعد تنبيه نفسه على نقصانها وهلاكها ـ ان يحرك الدواعى الغضبية فيما يحصل به الجبن ، فان القوة الغضبية موجودة فى كل احد ، ولكنها تضعف وتنقص فى بعض الناس فيحدث فيهم الجبن ، وإذا حركت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد ، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر . وقد نقل عن الحكماء أنهم يلقون أنفسهم فى المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعاً لهذه الرذيلة . ومما ينفع من المعالجات ان يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله ، تحريكا لقوة الغضب ، واذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع فى طرف الافراط .

وصل

(الشجاعة)

قد عرفت أن ضدّ هذين الجنسين هو (الشجاعة) ، فتذكر مدحها وشرافتها ،وكاف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها،حتى يصير ما تكلفته طبعاً وملكة ، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية . وقد عرفت أن الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة فى الاقدام على الأمور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض فى ما يقتضيه رأيها . ولا ريب فى أنها اشرف الملكات النفسية وأفضل الصفات الكمالية ، والفاقد لها برىء عن الفحلية والرجولية ، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال،وقد وصف الله خيار الصحابة بها فى قوله:

« أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ » (١)

وأمر الله نبيه بها بقوله :

« وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ » (٢)

إذ الشدّة والغلظة من لوازمها وآثارها ، والأخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها . قال أمير المؤمنين ﷺ فى وصف المؤمن : « نفسه أصلب من الصلد » . وقال الصادق عليه السلام : « المؤمن أصلب من الجبل إذ الجبلُ يستفلّ (٣) منه والمؤمن لا يستفلّ من دينه » .

* * *

(١) الفتح ، الآية : ٢٩ .
(٢) التوبة ، الآية : ٧٣ .
(٣) استفل الشيء : أخذ منه أدنى جزء كعشره .

وأما الانواع ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية فنها :

الخوف

وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال مشكوك الوقوع ، فلو علم أو ظن حصوله سمي توقعه انتظار مكروه ، وكان تألمه أشد من الخوف ، وكلامنا فى كليهما . وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدّهما ظاهر ، فان الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعاً وعقلاً من الحركة الى الانتقام أو شيء آخر ، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذى هو الخوف ، مثلاً من لا يجترىء على الدخول فى السفينة أو النوم فى البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم له بالفعل ، فمثله جبان وليس بخائف . ومن كان له ملكة الحركة الى الانتقام وغيره من الأفعال التى يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره ، كما اذا أمر السلطان بقتله ، فمثله خائف وليس بجبان .

ثم الخوف على نوعين : (أحدهما) مذموم بجميع أقسامه ، وهو الذى لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب ، ولا من معاصى العبد وجناياته ، بل يكون لغير ذلك من الأمور التى يأتى تفصيلها . وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط ، ومن نتائج الجبن . و (ثانيهما) محمود وهو الذى يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته ، وهو من فضائل القوة الغضبية ، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه . فهو حاصل من انقيادها لها . ولنفصل القول فى أقسام النوعين ، وبيان العلاج فى إزالة أقسام الأول وتحصيل الثانى :

فصل

(الخوف المذموم وأقسامه)

للنوع الأول أقسام يقبحها العقل باسرها ولا يجوزها ، فلا ينبغي للعاقل أن يتطرقها الى نفسه . بيان ذلك : ان باعث هذا الخوف يتصور على أقسام :

(الأول) أن يكون أمراً ضرورياً لازم الوقوع ، ولم يكن دفعه فى مقدرة البشر . ولا ريب فى أن الخوف من مثله خطأ محض ، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية . والعاقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك ، بل يسلى نفسه ويرضيها بما هو كائن ادراكاً لراحة العاجل وسعادة الآجل .

(الثانى) أن يكون أمراً ممكناً لم يجزم بشيء من طرفيه ، ولم يكن لهذا الشخص مدخلية فى وقوعه ولا وقوعه . ولا ريب فى أن الجزم بوقوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضى العقل ، بل اللازم إبقاؤه على إمكانه من دون جزم بحصوله ، فـ :

« لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً » (١)

وهذا القسم مع مشاركته للاول فى استلزامه تعجيل العقوبة بلاسبب، لعدم مدخليته لاختياره فيه ، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه ، فهو بعدم الخوف أولى منه .

(الثالث) أن يكون أمراً ممكناً فاعله هذا الشخص ، وهو ناشيء عن سوء اختياره ، فعلاجه ألا يرتكبه ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته ، فانه إما فعل غير قبيح من شأنه التأدى الى ما يضره ، ولا ريب فى أن

(١) الطلاق ، الآية : ١ .

ارتكاب مثله خلاف حكم العقل ، ولو ظهر التأدى بعد إيقاعه فيكون من الثانى ، أو فعل قبيح لو ظهر أوجب الفضيحة والمؤاخذة ، وإنما فعله ظناً منه أنه لا يظهر ، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذة ، ولا ريب فى أن هذا الظن ناشىء عن الجهل ، إذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر ، وإذا ظهر يمكن إيجابه للفضيحة والمؤاخذة . والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله ، فباعث الخوف فى الثانى هو الحكم على الممكن بالوجوب ، وفى هذا الحكم عليه بالامتناع ، ولو حكم عليه بما يقتضى ذاته أمن من الخوفين .

(الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع ، بلا داع عقلى ولا باعث نفس امرى ، كالميت والجن وأمثالها ، (لا) سيما فى الليل مع وحدته . ولا ريب فى أن هذا ناشىء عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة ، فليحرك القوة الغضبية ويهيجها لتغلب به العاقلة على الوهم . وربما ينفع إلزام نفسه على الوحدة فى الليالى المظلمة والصبر عليها ، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج .

ثم لما كان خوف الموت أشد أقسام هـــذا النوع وأعمها ، فلنشر الى علاجه بخصوصه ، فنقول : باعث خوف الموت يحتمل اموراً :

(الأول) تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدماً محضاً بالموت . ولا ريب فى كونه ناشئاً عن محض الجهل ، إذ الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن بدنه ، وهى باقية أبداً ، كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية ، ولعل ما تقدم يكفى لاثبات هذا المطلوب . ومع قطع النظر عن ذلك نقول : كيف يجوز لمن له أدنى بصيرة أن يجتمع عظماء نوع الانسان بحذافيرهم ، كأهل الوحى والالهام وأساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل ! فمن تأمل أدنى تأمل يتخلص من هذا الخوف .

(الثانى) تصور ايجابه ألماً جسمانياً عظيما لا يتحمل مثله ولم يدرك فى الحياة شبهه . وهذا ايضاً من الخيالات الفاسدة ، فان الألم فرع الحياة ، والألم الجسمانى ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل انسان فى حياته من الأوجاع وقطع الاتصال ، وبعد زوال الحياة لا معنى لوجوده ، إذ كل جسمانى إدراكه بواسطة الحياة ، وبعد انقطاعها لا إدراك ، فلا ألم .

(الثالث) تصوّر عروض نقصان لأجله . وهو أيضاً غفلة عن حقيقة الموت والانسان ، إذ من علم حقيقتهما يعلم أن الموت متمم الانسانية وآثارها ، والمائت جزء لحدّ الانسان . ولذا قال أوائل الحكماء : (الانسان حى ناطق مائت) . وحد الشيء يوجب كماله لا نقصانه . فبالموت تحصل التمامية دون النقصان . نشنيده اىكه هركه بمرد أو تمام شد ، (١) فالانسان الكامل يشتاق الى الموت ، لاقتضائه تماميته وكماله ، وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الأشرار الى عالم الأنوار ومرافقة الأخيار من العقول القادسة والنفوس الطاهرة ، وأى عاقل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الهيولانية ، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب واصناف الاسقام والنوائب !

فيا حبيبى ! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة ، واستمع النصيحة ممن هو أحوج منك الى النصيحة : حرك الشوق الكامن فى جوهر ذاتك الى عالمك الحقيق ومقرك الأصلى ، وانسلخ عن القشورات الهيولانية ، وانفض عن روحك القدسى ما لزقه من الكدورات الجسمانية ، وطهر نفسك الزكية عن ادناس دار الغرور وارجاس عالم الزور ، واكسر قفصك الترابى الظلمانى وطر

---

(١) هذه الجملة من الكلمات الحكمية القصار ، ومعناها : (أما سمعت بأن كل من مات صار انساناً كاملا) .

بجناح همتك الى وكرك القدسى النورانى ، وارتفع عن حضيض الجهل والنقصان الى أوج العزة والعرفان ، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها فى فضاء قدس اللاهوت ، فما بالك نسيت عهود الحمى ورضيت بمصاحبة من لاثبات له ولا وفاء ؟!

زد سحر طائر قدسم زسر سدره صفير كه در اين‌دامگه‌حادثه آرام مگير (١)

(الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والأموال والمناصب والأحباب . ومعلوم أن هذا ليس خوفاً من الموت فى نفسه ، بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية . وعلاجه : أن يتذكر أن الأمور الفانية مما لا يليق بالعاقل ان يرتبط بها قلبه ، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن اليها ، مع علمه بأنه عن قريب يفارقها ، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الألم .

(الخامس) تصور سرور الأعداء وشماتتهم بموته . وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم ، إذ مسرة الأعداء أو شماتتهم لا توجب ضرراً فى إيمانه ودينه ، ولا ألماً فى روحه وجسمه ، على أن ذلك لا يختص بالموت ، إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه فى حال الحياة ايضاً من البلايا

---

(١) هذا البيت للشاعر الفارسى الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازي) ، وهو من أبيات العرفان . وأراد (بالسحر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها ، و (بالطائر القدسى) ما يرمز اليه العرفاء المسمى عندهم ايضاً (البيضاني) ، وهو أحد العقول المجردة الذى بصفيره يوقظ الراقدين فى مراقد الظلمات ، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات ، و (بالسدرة) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود فى سلسلة الممكنات .

وحاصل معنى البيت المطابق : قد صفر الطائر القدسى المنسوب الى من على السدرة فى السحر ، ويقول فى صفيره : لا تستقر فى المصيدة المخيفة (وهى الدنيا وعوالم السفليات) ، والمراد أن يذهب عنها الى عالم المجردات النورانى حراً طليقاً .

والمحن ، فمن كره ذلك فليجتهد فى قطع العداوة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد .

(السادس) تصور تضييع الأولاد والعيال ، وهلاك الأعوان والأنصار . وهذا أيضاً من الوساوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية ، إذ ذلك يوجب ظن منشئيته لاستكمال الغير وعزته ، ومدخليته فى قوته وثروته ، وذلك ناشئ من جهله بالله وبقضائه وقدره ، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم الى ما يليق بها وابلاغها الى ما خلقت لأجله ، وليس لأحد أن يغير ذلك أو يبدله . ولذا ترى أكثر الأفاضل يجتهدون فى تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم أصلاً ، وتشاهد غير واحد من الأغنياء يخلفون لأولادهم أموالا كثيرة وتخرج عن ايديهم فى مدة قليلة ، وترى كثيراً من أيتام الأطفال لا تربية لهم ولا مال ، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدارج الكمال ، أو يحصلون ما لا حصر له من الأموال . والغالب أن الأيتام الذين ذهب عنهم الآباء فى حالة الصبى تكون ترقياتهم فى الآخرة والدنيا أكثر من الأولاد الذين نشؤا فى حجر الآباء . والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذى قوة يفوض اليه امورهم ، اعتراهم بعده الفقر والفاقة والذلة والمهانة ، وربما صار ذلك سبباً لهلاكهم وانقراضهم . ومن فوض امورهم الى رب الأرباب وخالق العباد ازداد لهم بعده عزاً وقوة وكثرة وثروة . فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا امور الأولاد وغيرهم من الأقارب والانصار الى من خلقهم وربّاهم ، ويوكلهم الى موجدهم ومولاهم ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل . وقد ظهر أن الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لا وجه له .

ثم ينبغي للعاقل أن يتفكر فى أن كل كائن فاسد ألبتة ، كما تقرر فى

الحكمة . وهو من الكائنات . والفساد ضرورى له . فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له ، فتمنى دوام الحياة من الخيالات الممتنعة ، والعاقل لايحوم حولها ولا يتمنى مثلها . بل يعلم يقيناً أن ما يوجد فى النظام الكلى هو الأصلح الأكمل وتغييره ينافى الحكمة والخيرية ، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة . ثم من يتمنى طول عمره فمقصوده منه إن كان حب اللذات الجسمية وامتداد زمانها ، فليعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الأعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التى هى عمدة لذاته فضلاً عن غيرها ، فلا يلتذ بالأكل والجماع وسائر اللذات الحسية ، ولا يخلو لحظة عن مرض وألم ، وتتراجع جميع أحواله ، فتتبدل قوته بالضعف وعزه بالذل ، وكذا سائر أحواله ، كما اشير اليه فى الكتاب الإلهى بقوله تعالى :

« وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ » (١)

ومع ذلك لا يخلو كل يوم من مفارقة حبيب أو شفيق ، ومهاجرة قريب أو رفيق . وربما ابتلى بأنواع المصيبات ، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات ، وطالب العمر فى الحقيقة طالب هذه الزحمات . وان كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية ، فلا ريب فى أن تحصيل الكمالات بعد أوان الشيخوخة فى غاية الصعوبة ، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية الى أن أدركه الشيب ، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره ، فانى يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها ، إذ رفع ما رسخ فى النفس مع الشيخوخة التى لا يقتدر معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن . ولذا ورد فى الآثار : « أن الرجل إذا بلغ أربعين سنة ولم يرجع الى الخير ، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال : بأبى وجه من لا يفلح أبداً » . على أن

---

(١) يس ، الآية : ٦٨ .

الطالب للسعادة ينبغى أن يكون مقصور الهم فى كل حال على تحصيلها ، ومن جملتها دفع طول الأمل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره ، ويكون سعيه أبداً فى تحصيل الكمالات بقدر الامكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان ، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل الى الحياة واللذات الباقية ، والاهتمام فى كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الإلهية ، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقى الى اوج عالم الحقيقة ، فيتفق له الموت الارادى الموجب للحياة الطبيعية . كما قال (معلم الأشراق) : « مت بالارادة تحيى بالطبيعة » . فينقل الى مقعد صدق هو مستقر الصدّيقين ، ويصل الى جوار رب العالمين ، وحينئذ يشتاق للموت ولا يبالى بتقدمه وتأخيره ، ولا يركن الى ظلمات البرزخ الذى هو منزل الأشقياء والفجار ومسكن الشياطين والأشرار ، ولا يتمنى الحياة الفانية أصلا ، وينطق بلسان الحال :

خرم آن روز كزين منزل ويران بروم
راحت جان طلبم وزپى جانان بروم
بهواى لب أو ذرّه صفت رقص كنان
تا لب چشمهٔ خورشيد درخشان بروم(١)

(السابع) تصور العذاب الجسمانى والروحانى المترتب على ذمائم الأعمال وقبائح الأفعال . ولا ريب فى أن الخوف من ذلك ممدوح ، وهو

(١) البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازى) . ومعنى الأول : « إن سرورى يكون فى يوم الرحيل من هـذه الدار الخربة طلباً لراحة نفسى ولقاء الحبيب » . ويقصد بحبيبه : الحق الأول ، وبراحة نفسه : النعيم الأبدي ، وبالرحيل عن الدار الخربة : انتقال نفسه من بدنه بالموت .

ومعنى البيت الثانى : « انى لشوق الى لقاء الحبيب اهتز اهتزاز الذرة فى ضوء الشمس لـكى اصل الى لقاء عين الشمس المتوهجة » . ويقصد بعين الشمس : خالق الـكائنات .

معدود من أقسام النوع الثانى ، إلا أن البقاء عليه وعـــدم السعى فيما يدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة ، إذ هذا الخوف ناشئ من سوء الاختيار ، وقد بعث الله الرسل وأوصياءهم لاستخلاص الناس عنه . فعلاجه ترك المعاصى وتحصيل معالى الأخلاق . ومعلوم أن المنهمك فى المعاصى مع خوفه من العذاب كالملق نفسه فى البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق ، ولا ريب فى أن إزالة هذا الخوف باختياره . فليترك المعاصى ويجتهد فى كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه ، واهتمام أكابر الدين من الأنبياء والمرسلين والحكماء والصديقين فى وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخوف عن نفوسهم ، فهو فى الحقيقة ناشىء منك ومن سوء اختيارك ، فبادر الى تقليله بالمواظبة على صوالح الأعمال وفضائل الأفعال . وقد يأتى أن هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل ، ومعه لو كان مفرطاً فليعالج بأسباب الرجاء ، وبدونه فلا بد أن يكون حتى يبعثه عليه ، على أنه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغى أن ييأس من روح الله ، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر .

فصل

(الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته)

وللنوع الثانى من الخوف أقسام : (الأول) أن يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه ، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة فى عرف أرباب القلوب . (الثانى) من جناية العبد باقترافه المعاصى . (الثالث) أن يكون منهما جميعاً . وكلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعاليه وبعيوب

نفسه وجناياته ، ازداد الخوف ، إذ ادراك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة ، يوجب الاضطراب والدهشة . ولا ريب فى أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعد له . وأنى لأحد من أولى المدارك أن يحيط بصفاته على ما هى عليه ، فان المدارك عن إدراك غير المتناهى قاصرة . نعم ، لبعض المدارك العالية أن يدركه على الاجمال . مع أن ما يظهر للعقلاء من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته ، بل هو غاية ما تتأدى اليه عقولهم ويتصور كمالا . ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوى العقول وأعلى المدارك ، لاحترق من سبحات وجهه ، وتفرقت أجزاؤه من نور ربه . ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب ، فغاية ما للمدارك العالية من العقول والنفوس القادسة ، أن يتصور عدم تناهيها فى الشدة والقوة ، وكونها فى الكمال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الأمر ، كما هو الشأن فى ذاته سبحانه . وإدراك هذه الغاية أيضاً يختلف باختلاف علو المدارك ، فمن كان فى الدرك أقوى وأقدم كان بربه أعرف ، ومن كان به أعرف كان منه أخوف ، ولذا قال تعالى:

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (١)

وقال سيد الرسل : « أنا اخوفكم من الله » . وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فرق الأولياء والعارفين ، وعروض الغشيات المتواترة فى كل ليلة لمولانا أمير المؤمنين ﷺ .

وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف ، إذ كمال المعرفة

(١) الفاطر ، الآية : ٢٨ .

يوجب احتراق القلب ، فيفيض أثر الحرقة من القلب الى البدن بالنحول والصفار والغشية والبكاء ، والى الجوارح بكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط فى جنب الله ومن لم يجتهد فى ترك المعاصى وكسب الطاعات فليس على شىء من الخوف . ولذا قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال بعض الحكماء : « من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب اليه » . وقال بعض العرفاء : « لا يكون العبد خائفاً حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام » . والى الصفات بقمع الشهوات وتكدر اللذات ، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة . كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه اذا عرف كونه مسموماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل فى القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة ، وتفارقه ذمائم الصفات ، ويصير مستوعب الهم بخوفه والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المجاهـــدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والكلمات ، ويشتغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، كما أن من وقع فى مخالب ضارى السبع يكون مشغول الهم به ولا شغل له بغيره . وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن يحذوهم من السلف الصالحين.

فقوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذى هو حرقة القلب وتألمه ، وهو بحسب قوّة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وأفعاله ، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال أن يكف عن المحظورات ، ويُسمى الكف منها (ورعاً) ، فان زادت قوته كف عن الشبهات ،

ويسمى ذلك (تقوى) ، إذ التقوى أن يترك ما يريبه الى ما لا يريبه ، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، وهو الصدق فى التقوى ، فاذا انضم اليه التجرد للخدمة ، وصار ممن لا يبنى ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، ولا يلتفت الى دنيا يعلم أنه يفارقها ، ولا يصرف الى غير الله نفساً عن أنفاسه ، فهو (الصدق) ، ويسمى صاحبه (صديقاً) ، فيدخل فى الصدق التقوى ، وفى التقوى الورع ، وفى الورع العفة ، لأنها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات .

فاذن يؤثر الخوف فى الجوارح بالكف والإقدام .

فصل

(بم يتحقق الخوف)

إعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروهاً فى ذاته كالنار ، أو مكروهاً لافضائه الى المكروه فى ذاته كالمعاصى المفضية الى المكروه لذاته فى الآخرة ، ولابد لكل خائف أن يتمثل فى نفسه مكروه من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة :

فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته ، فاما أن يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته ، أو عذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته ، أو من الموقف بين يدى الله وهيبته والحياء من كشف سريرته ، أو من الحساب ودقته والصراط وحدّته ، أو من النار وأهوالها والجحيم وأغلالها ، أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله الى الملك

المقيم ، أو من نقصان درجاته فى العليين وعدم مجاورته المقربين ، أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه ، وهذا أعلاها رتبة ، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته مايقتضى الهيبة والخوف ، والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق ، والمطلعين على سر قوله :

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » (١) ، وقوله : « اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » (٢) .

وقيل : ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين .

وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره ، فاما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة ، أو نقضها قبل انقضاء المدة ، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو تخليته مع حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله ، أو من الميل عن الاستقامة ، أو الى اتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة ، أو تبديل رقة القلب الى القساوة ، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة ، أو من الاشتغال عن الله بغيره ، أو حدوث ما يحدث فى بقية عمره ، أو من البطر والاستدراج بتواتر النعم ، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من الله ما لم يعلم ، أو من الاغترار بالدنيا وزخاوفها الفانية ، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلانية ، أو من اطلاع الله على سريرته وهو عنه غافل ، وتوجهه الى غيره وهو اليه ناظر ، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة ، أو مما سبق له فى الأزل من السابقة . وهذه كلها مخاوف العارفين.

ولكل واحد منها خصوص فائدة ، هو الحذر عما يفضى الى الخوف ،

---

(١) آل عمران ، الآية : ٢٨ .
(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

فالخائف من تبعات الناس يجتهد فى براءة ذمته عنها ، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها ، ومن اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا فى بقية الأقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة ، وهو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الأمر فيه مخطر - كما يأتى - وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة ، ولذا قال العارف الأنصارى : « الناس يخافون من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الأول » . فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء فى أم الكتاب ، واليه أشار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فى المنبر ، حيث رفع يده اليمنى قابضاً على كفه ، ثم قال : « أتدرون أيها الناس ما فى كفى ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أسماء أهل الجنة واسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » . ثم رفع يده اليسرى وقال : « أيها الناس أتدرون ما فى كفى ؟ » ، قالوا : الله ورسوله اعلم ، فقال : « أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم الى يوم القيامة » . ثم قال : « حَكَمَ الله وَعدل ، حكم الله :

« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » (١) » .

وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يسلك بالسعيد فى طريق الأشقياء حتى يقول الناس : ما اشبهه بهم بل هو منهم ، ثم تتداركه السعادة . وقد يسلك بالشقى طريق السعداء حتى يقول الناس : ما اشبهه بهم ، بل هو منهم ، ثم يتداركه الشقاء . إن من كتبه الله سعيداً وإن لم يبق من الدنيا إلا فواق ناقة ختم له بالسعادة » (٢) .

---

(١) الشورى ، الآية : ٧ .

(٢) هذا الحديث مروى فى اصول الكافى فى (باب السعادة والشقاوة) عن ابى عبدالله الصادق - عليه السلام - .

فصل

(الخوف من الله أفضل الفضائل)

الخوف منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، وهو أفضل الفضائل النفسانية ، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانته على السعادة ، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه ، ولا وصول اليها إلا بتحصيل محبته والانس به ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها ، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف - كما مر - .

وقيل : من أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وبلغ مقام الرضا ، وصار مشاهداً لجمال الحق : لم يبق له الخوف ، بل يتبدل خوفه بالأمن ، كما يدل عليه قوله سبحانه :

« أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » (١)

إذ لا يبقى له التفات الى المستقبل ، ولا كراهية من مكروه ، ولا رغبة الى محبوب ، فلا يبقى له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى منهما . نعم ، لا يخلو عن الخشية - أي الرهبة من الله ومن عظمته وهيبته - وإذا صار متجلياً بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية أيضاً ، لأنه من لوازم التكثر ،

(١) الانعام ، الآية : ٨٢ .

وقد زال . ولذا قيل : « الخوف حجاب بين الله وبين العبد » . وقيل أيضاً : « إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء » . وقيل أيضاً : « المحب إذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً فى دوام الشهود الذى هو غاية المقامات » .

وأنت خبير بأن هذه الأقوال مما لا التفات لنا اليها ، فلنرجع الى ما كنّا بصدده من بيان فضيلة الخوف . فنقول : الآيات والأخبار الدالة عليه اكثر من أن تحصى ، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان ، وهى مجامع مقامات أهل الجنان ، فقال :

« إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ » (١) . وقال : « هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » (٢) . وقال : « رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » (٣) .

وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الايمان ، كقوله تعالى :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » (٤) وقوله : « وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٥) .

ومدح الخائفين بالتذكر فى قوله :

(١) الفاطر ، الآية : ٢٨ .
(٢) الأعراف ، الآية : ١٥٤ .
(٣) البينة ، الآية : ٨ .
(٤) الأنفال ، الآية : ٢ .
(٥) آل عمران ، الآية : ١٧٥ .

« سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى » (١)

ووعدهم الجنة وجنتين ، بقوله :

« وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهوى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوى » (٢) . وقوله : « وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ » (٣) .

وفى الخبر القدسى : « وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، فاذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة . واذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة » . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « رأس الحكمة مخافة الله » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من خاف الله أخاف الله منه كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شىء » (٤) . وقال لابن مسعود : « إن أردت أن تلقانى فاكثر من الخوف بعدى » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا » .

وعن ليث بن أبى سليم قال : « سمعت رجلا من الانصار يقول : بينما رسول الله مستظل بظل شجرة فى يوم شديد الحر ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه ، ثم جعل يتمرغ فى الرمضاء ، يكوى ظهره مرة ، وبطنه مرة ، وجبهته مرة ، ويقول : يانفس ذوقى ، فما عند الله أعظم مما صنعت بك . ورسول الله ينظر اليه ما يصنع . ثم إن الرجل لبس ثيابه ، ثم أقبل ، فأومى اليه النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بيده ودعاه ، فقال له : يا عبدالله ! رأيتك صنعت شيئاً

(١) الأعلى ، الآية : ١٠ .

(٢) النازعات ، الآية : ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) الرحمن ، الآية : ٤٦ .

(٤) روى الحديث فى أصول الكافى فى باب الخوف والرجاء عن الصادق ـ عليه السلام ـ

ما رأيت أحداً من الناس صنعه ، فما حملك على ماصنعت؟ .فقال الرجل:حملنى على ذلك مخافة الله ، فقلت لنفسى : يا نفس ذوقى فما عند الله أعظم مما صنعت بك . فقال النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : لقد خفت ربك حق مخافته ، وإن ربك ليباهى بك أهل السماء ، ثم قال لأصحابه : يامعشر من حضر! ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم .فدنوا منه . فدعا لهم ، وقال : «اللّهمّ اجمع أمرنا على الهدى ، واجعل التقوى زادنا ، والجنة مآبنا » .

وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة ، وإن كانت مثل رأس الذباب ،من خشية الله ، ثم يصيب شيئاً من حُرّ وجهه ، إلا حرمه الله على النار». وقال : « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتّ من الشجر ورقها » ، وقال : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع » .وقال سيد الساجدين عليه السلام فى بعض أدعيته :« سبحانك ! عجباً لمن عرفك كيف لا يخافك » . وقال الباقر عليه السلام :« صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق . فلما انصرف وعظهم، فبكى وابكاهم من خوف الله ، ثم قال : أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : وإنهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبرا خمصاً بين اعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم من النار ، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون » ، وفى رواية اخرى : « وكأن زفير النار فى آذانهم ، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر ، كأنما القوم باتوا غافلين » ، ثم قال عليه السلام : « فما رئى عليه السلام بعد ذلك ضاحكاً حتى قبض » . وقال الصادق عليه السلام :« من عرف الله خاف الله ، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا » ، وقال عليه السلام : « إن من العبادة شدة الخوف من الله تعالى

يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . وقال :

« فَلا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ » (١) . وقال : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً » (٢) » .

وقال : « إن حب الشرف والذكر لايكونان فى قلب الخائف الراهب » ، وقال ﷺ : « المؤمن بين مخافتين : ذنب قد مضى مايدرى ماصنع الله فيه ، وعمر قد بقى لا يدرى ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف » . وقال ﷺ : « خف الله كأنك تراه . وإن كنت لا تراه فإنه يراك ، وإن كنت ترى أنه لا يراك ، فقد كفرت ، وان كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك » ، وقال ﷺ : « لايكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو » ، وقال ﷺ : « مما حفظ من خطب النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال : أيها الناس ! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، وفى الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار » .

ثم الأخبار الواردة فى فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب أو تعلق

(١) المائدة ، الآية : ٤٤ .

(٢) الطلاق ، الآية : ٢ .

المسبب ، إذ العلم سبب الخوف ، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه - كما ظهر مما سبق - والبكاء ثمرته ولازمه ، والرجاء يلازمه ويصاحبه ، إذ كل من رجا محبوباً فلابد أن يخاف فوته، إذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر ، وإن جاز غلبة أحدهما على الآخر ، اذ من شرطهما تعلقهما بالمشكوك ، لأن المعلوم لا يرجى ولا يخاف ، فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان . نعم ، أحد طرفى الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب ، ويسمى ذلك ظناً ، ومقابله وهماً ، فاذا ظن وجود المحبوب قوى الرجاء وضعف الخوف بالإضافة اليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال الله سبحانه :

« وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً » (١) . وقال : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً » (٢) .

وقد ظهر أن ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته ، وكذا ما ورد فى ذم الأمن من مكر الله يدل على فضيلته ، لأنه ضده ، وذم الشىء مدح لضده الذى ينفيه . ومما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة خوف الملائكة والأنبياء وأئمة الهدى - عليهم السلام - كخوف جبرائيل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وحملة العرش ، وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلمين . وكخوف نبينا ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وداود ، ويحيى . . . وغيرهم . وخوف أمير المؤمنين وسيد الساجدين وسائر الأئمة الطاهرين - عليهم السلام - وحكاية

(١) الانبياء ، الآية : ٩٠ .
(٢) السجدة ، الآية : ١٦ .

خوف كل منهم فى كتب المحدثين مذكورة وفى زبرهم مسطورة ، فليرجع اليها من أراد ، ومن الله العصمة والسداد .

فصل

(الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً)

اعلم ان الخوف ممدوح الى حد ، فان جاوزه كان مذموماً . وبيان ذلك: أن الخوف سوط الله الذى يسوق به العباد الى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب اليه تعالى ولذة المحبة والأنس به ، وكما أن السوط الذى تساق به البهيمة ويأدب به الصبي ، له حدٌ فى الاعتدال . لو قصر عنه لم يكن نافعاً فى السوق والتأديب ، ولو تجاوز عنه فى المقدار أو الكيفية أو المبالغة فى الضرب كان مذموماً لأدائه الى إهلاك الدابة والصبى ، فكذلك الخوف الذى هو سوط الله لسوق عباده له حد فى الاعتدال والوسط ، وهو ما يوصل الى المطلوب،فان كان قاصراً عنه كان قليل الجدوى ، وكان كقضيب ضعيف يضرب به دابة قوية ، فلا يسوقها الى المقصد . ومثل هذا الخوف يجرى مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث فيهن البكاء ، وبمجرد انقطاعه يرجعن الى حالهن الأولى ، او مجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل، وإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل الجدوى . فالخوف الذى لا يؤثر فى الجوارح بكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . ولو كان مفرطاً ربما جاوز الى القنوط وهو ضلال :

« وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ » (١) .

(١) الحجر، الآية : ٥٦ .

أو الى اليأس وهو كفر :

« لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ » (١)

ولا ريب فى أن الخوف المجاوز الى اليأس والقنوط يمنع من العمل ، لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل ، وإيجابهما كسالة الأعضاء المانعة من العمل . ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران. ولا رجحان له فى نظر العقل والشرع مطلقاً ، إذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز ، لأنه متعرض لمحذور لا يمكنه دفعه ، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره ، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفاً ، لما مر من أن الخوف هو ما كان مشكوكا فيه .فبعض أفراد الخوف إنما يصير كمالاً بالإضافة الى نقص أعظم منه ، وباعتبار رفعه المعاصى وافضائه الى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادةوسائر الأسباب الموصلة الى قرب الله وأنسه ، ولو لم يؤد اليها كان فى نفسه نقصاً لا كمالاً ، إذ الكمال فى نفسه هو ما يجوز أن يوصف الله تعالى به ، كالعلم والقدرة وأمثالها ، وما لا يجوز وصفه به ليس كمالاً فى ذاته ، وربما صار محموداً بالإضافة الى غيره وبالنظر إلى بعض فوائده،فمالايفضى الى فوائده المقصودة منه لافراطه فهو مذموم.وربما أوجب الموت أو المرض أوفساد العقل ، وهو كالضرب الذى يقتل الصبى أو يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها . وإنما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به ليعالج بهصدمة الخوف المفرط المفضى الى اليأس أو الى أحد الأمور المذكورة.فالخوف المحمود مايفضى الى العمل مع بقاءالحياة وصحة البدن وسلامة العقل ، فان تجاوز الى إزالة شىء منها فهو مرض يجب علاجه ، وكان بعض مشائخ العرفاء يقول للمرتاضين من مريديه الملازمين

(١) يوسف ، الآية : ٨٧ .

للجوع أياماً كثيرة : « احفظوا عقولكم ، فانه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل ، وما قيل : « إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيداً ، معناه ان موته بالخوف أفضل من موته فى هذا الوقت بدونه ، فهو بالنسبة اليه فضيلة ، لا بالنظر الى تقدير بقائه وطول عمره فى طاعة الله وتحصيل المعارف ، اذ للمترقى فى درجات المعارف والطاعات له فى كل لحظة ثواب شهيد أو شهداء ، فأفضل السعادات طول العمر فى تحصيل العلم والعمل ، فكل ما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان .

فصل

(طرق تحصيل الخوف الممدوح)

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه طرق :

(الأول) أن يجتهد فى تحصيل اليقين : أى قوة الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، والحساب ، والعقاب . ولا ريب فى كونه مهيجاً للخوف من النار والرجاء للجنة . ثم الخوف والرجاء يؤديان الى الصبر على المكاره والمشاق ، وهو الى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويقوى دوام الذكر على الانس ، ودوام الفكر على كمال المعرفة ، ويؤدى الانس وكمال المعرفة الى المحبة ، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات . وهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطناً ، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة ، ولا بعدهما سوى الانس والمحبة . ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته ، وهو التوكل . فاليقين هو سبب الخوف ، فيجب

تحصيل السبب ليؤدى الى المسبب .

(الثانى) ملازمة التفكر فى أحوال القيامة ، وأصناف العذاب فى الآخرة ،واستماع المواعظ المنذرة ، والنظر الى الخائفين ومجالستهم، ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم .وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى ، وهو خوف عموم الخلق ، وهو يحصل بمجرد اصل الايمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وإنما يضعف للغفلة أو ضعف الايمان ، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر .وأما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال ، وهو خوف أرباب القلوب ، العارفين من صفاته ما يقتضى الخوف والهيبة ، المطلعين على سر قوله :

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » (١) .وقوله : « اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » (٢) .

فالعلاج فى تحصيله الارتقاء الى ذروة المعرفة ، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله ، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الأخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبته وجلاله ، كالأنبياء والأولياء وزمرة العرفاء ، فانه لا يخلو عن تأثير .

(الثالث) أن يتأمل فى أن الوقوف على كنه صفات الله فى حيز المحال، وأن الاحاطة بكنه الامور ليس فى مقدرة البشر ، إذ هى مرتبطة بالمشية ارتباطاً يخرج عن حد المعقول والمألوف . ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم أن الحكم على أمر من الامور الآتيه غير ممكن بالحدس والقياس ، فضلاً

(١) آل عمران ، الآية : ٢٨ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

عن القطع والتحقيق ، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه ، وإن كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرة منقطعة . والى الله بشراشرها ملتفتة، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه . وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال ، وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن ، وانه أشد تقلباً من القدر فى غليانها ، وقد قال مقلب القلوب :

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » (١)

فانى للناس أن يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر ، ولذا قال بعض العرفاء: « لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لأنى لا أدرى ما ظهر له من التقلب » (٢) .

فصل

(خوف سوء الخاتمة وأسبابه)

قد اشير الى أن أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة ، وله أسباب مختلفة ترجع الى ثلاثة :

(الأول) وهو الأعظم ، وهو أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله ، إما الجحود أو الشك ، فتقبض الروح فى تلك الحالة ، وتصير عقدة الجحود أو الشك حجاباً بينه وبين الله تعالى ، وذلك يقتضى البعد الدائم ، والحرمان اللازم ، وخسران الأبد ، والعذاب المخلد .

ثم هذا الجحود أو الشك إما يتعلق ببعض العقائد الأصولية ، كالتوحيد

---

(١) المعارج ، الآية : ٢٨ .

(٢) نقل هذه الحكاية فى احياء العلوم (ج ٤ ص ١٤٩) عن بعض العارفين ، ولم يذكر اسمه أيضاً .

وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته الكمالية ، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة . وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة . أو يتعلق بجميعها إما إصالة أو سراية . والمراد بالسراية أن الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع ، إما برأيه ومعقوله ، أو بالتقليد . فاذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه ، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلا ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء . ويكون ذلك سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها ، وإن كانت صحيحة مطابقة للواقع ، إذ لم يكن عنده اولا فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فساده وبين سائر عقائده الصحيحة . فاذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي . كما نقل أن (الفخر الرازي) بكى يوماً ، فسألوه عن سبب بكائه ، قال : « اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه ، فما أدراني أن لا تكون سائر عقائدي كذلك » . وبالجملة : إن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود الى أصل الايمان ، فقد ختم له بالسوء ، وخرجت روحه على الشرك ، أعاذنا الله منه ، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه ، وهم المقصودون من قوله :

« وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » (١) .

ومن قوله : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » (٢) .

---

(١) الزمر ، الآية : ٤٧ .

(٢) الكهف ، الآية : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

والبله : اعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايماناً مجملا راسخاً ، بمعزل عن هذا الخطر ، ولذلك ورد : أن أكثر أهل الجنة البله . وورد المنع من البحث والنظر والخوض فى الكلام ، والأخذ بظواهر الشرع ، مع اعتقاد كونه تعالى منزهاً عن النقص متصفاً بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال . والسر فى ذلك : أن البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به ، يثبتون عليه لقصور اذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم بالتشكيك ، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت .

وأما الخائضون فى غمرات البحث والنظر ، والآخذون عقائدهم من عقولهم المزجاة ، فليس لهم تثبت على عقائدهم ، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الأصولية على ما هى عليه قاصرة ، والأدلة التى يستخرجها مضطربة متعارضة . وابواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة . فاذهانهم دائماً محل تعارض العقائد والشكوك ، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله ، فيحصل لهم فيها طمأنينة ، ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها ، فهم دائماً فى غمرات الحيرة والاضطراب . فاذا كان حالهم هذا فأخذتهم سكرات الموت ، فأى استبعاد فى أن يختلج لهم حينئذ شك فى بعض عقائدهم . ومثله مثل من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الأمواج يرميه موج الى موج ، والغالب فى مثله الهلاك ، وان اتفق نادراً ان يرميه موج الى الساحل. وقد نقل عن (نصير الدين الحلى) ـ وهو من أعاظم المتكلمين ـ انه قال : « انى تفكرت فى العلوم العقلية سبعين سنة ، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى ، ولم يظهر لى منها شىء سوى أن لهذا المصنوع صانعاً ، ومع ذلك عجائز القوم فى ذلك أشد يقيناً منى » . فالصواب تلقى أصل الايمان والعقائد من صاحب الوحى ، مع تطهير الباطن عن خبائث الأخلاق ، والاشتغال

بالطاعات وصوالح الأعمال ، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكر فى حقائق المعارف ، إلا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة ، واشرق نور الحكمة فى قلبه . وشمله خفى الألطاف من ربه ، فله الخوض فى غمرات العلوم . وأما غيره فينبغى أن يأخذ منه اصول عقائده الواردة من الشرع ، ويشتغل بخدمته حتى تشمله بركات انفاسه ، فإن العاجز عن المجاهدة فى صف القتال ينبغى أن يسق القوم ويتعهد دوابهم ، ليحشر يوم القيامة فى زمرتهم وإن كان فاقداً لدرجتهم .

(الثانى) ضعف الايمان فى الأصل ، ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوى حب الدنيا فى القلب ، واستولى عليه بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، فلا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والشيطان ، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويسود ، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ، ولا يزال يطفىء ما فيه من نور الايمان حتى ينطفىء بالكلية ، فاذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفاً ، وربما عدم بالمرة ، لما يستشعر من فراق محبوبه الغالب على قلبه ، وهو الدنيا ، فيتألم ويرى ذلك من الله . فيختلج ضميره بانكار ما قدره الله من الموت ، وربما يحدث فى باطنه بغض الله بدل الحب ، لما يرى أن موته من الله ، كما أن من يحب ولده حباً ضعيفاً ، إذا أخذ مالا له هو أحب اليه منه وأتلفه ، انقلب حبه بغضاً . فان اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء . نعوذ بالله من ذلك .

وقد ظهر أن السبب المفضى الى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد فى قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر ، وإن أحب الدنيا أيضاً ، ومن وجد فى قلبه عكس

ذلك فهو قريب من هذا الخطر . والسبب فى قلة حب الله قلة المعرفة به ، إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، والى هذا القسم من سوء الخاتمة اشير فى الكتاب الالهى بقوله :

« قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإخوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وأَموالٌ اقترَفْتُموها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها ومساكِنُ تَرْضَوْنَها أحبَّ إليْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فى سَبيلِهِ فَتَربَّصُوا حتّى يأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ » (١) .

فمن فارقته روحه فى حالة كراهة فعل الله وبغضه له فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً ، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزى والنكال وأما الذى يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه ، ولا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور .

(والثالث) كثرة المعاصى وغلبة الشهوات ، وإن قوى الايمان . وبيان ذلك : ان مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الألف والعادة ، وجميع ما ألفه الانسان فى عمره يعود ذكره فى قلبه عند موته ، فان كان أكثر ميله الى الطاعات كان اكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله ، وإن كان أكثر ميله الى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عنده ، وإن

(١) التوبة ، الآية : ٢٤ .

كان أكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وأمثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك . وهكذا الحال فى جميع الأشغال والأعمال الغالبة فى عمره ، فانها تغلب على قلبه عند موته ، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى ، فيعتقد بها قلبه ، ويصير محجوباً عن الله تعالى . وهو المراد بالختم على السوء . فالذى غلبت عليه المعاصى والشهوات ، وكان قلبه أميل اليها منه الى الطاعة ، فهذا الخطر قريب فى حقه ، ولا يميل اليها أصلاً ، فهو بعيد منه جداً . ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصى إلا نادراً ، فلعل الراجح فى حقه النجاة منه ، وإن أمكن حصوله . ومن لم يغلب شىء من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره فى هذا الخطر الى الله ، ولا يمكن لنا الحكم بشىء من القرب والبعد فى حقه .

والسر فى ذلك : أن الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم ، فكما أن الانسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره وألفها ، حتى انه لا يرى فى منامه إلا ما يماثل مشاهداته فى اليقظة ، وحتى ان المراهق الذى يحتلم لا يرى صورة الوقاع ، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية ، لكونه شبيهاً بالنوم وإن كان فوقه ، فيقتضى ذلك تذكر المألوفات وعودها الى القلب ، فربما يكون غلبة الألف سبباً لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل نفسه اليها وتقبض عليها روحه ، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وان كان أصل الايمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله . وكما أن ما يخطر بالبال فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته أحد إلا الله ، فكذلك ما يرى فى آحاد المنامات وما يختلج فى القلب عند سكرات الموت له أسباب عندالله لا نعرف بعضها ، وربما نتمكن من معرفة بعضه ، فانا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشىء الى ما يناسبه ، إما بالمشابهة ،

بأن ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر ، وإما بالمضادة ، بأن ينظر الى جميل فيتذكر قبيحاً . وإما بالمقارنة ، بأن ينظر الى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان . وقد ينتقل الخاطر من شيء الى شيء ، ولا يدرى وجه المناسبة له ، وربما ينتقل الى شيء لا يعرف سببه أصلا . وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها أسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور . ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال الى المعاصى والشهوات ، فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره فى فطام نفسه عنها ، وفى قمع الشهوات عن قلبه ، فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار . ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخلية السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه الى الله وحبه وأنسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت . إذ المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه ، كما ورد فى الخبر (١) . وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره ، حيث يظهر منه عنده ذلك ، وأما المخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر ، ومنه عظم خوف العارفين ، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولا كلياً ، وان كان لطول الألف والعادة تأثير ومدخلية ، ولذا إذا أراد الانسان ألا يرى فى المنام إلا الأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ وأحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له ، وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه . وبالجملة : اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر فى النوم لما غاب فى

(١) لم نعثر على مصدر لهذا الخبر ، وجاء ذكر هذا الخبر مرسلا فى (الحقائق) ـ ص ٨٨ طبع ايران ـ الشيخ (ملا محسن الفيض) ولم يذكر المصدر له .

اليقظة . وبذلك يعلم ان أعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وان السلامة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة ، ولذلك قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة، فيختم له بما سبق به الكتاب » ، ومعلوم أن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف . ومن هنا قيل (١) : « إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا » ، وورد (٢) : « أن الملائكة اذا صعدت بروح المؤمن ، وقد مات على الخير والاسلام ، تعجبت الملائكة منه . وقالوا : كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا » . ولذلك قيل (٣) : من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة ، وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر ، ومقلب القلوب هو الله . ومن هنا يظهر سر قوله : « الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » (٤) .

---

(١) القائل هو (مطرف بن عبدالله) كما في احياء العلوم : ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) يظهر من كلمة (ورد) ان هذا حديث . وفي احياء العلوم ـ ج ٤ ص ١٥٥ ـ كلام ينقله عن (حامد اللفاف) .

(٣) القائل هو (الغزالي) في احياء العلوم ، في الصفحة المتقدمة .

(٤) جاء نص هذا الكلام في اثناء كلام (الغزالي) في احياء العلوم ـ ج ٤ ص ١٥٦ ـ وكأنه من كلام نفسه . إلا انه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص ٣٢٠ ، عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مرسلا . وكذلك جاء في (مصباح الشريعة) المنسوب الى الصادق ـ عليه السلام ـ في الباب ٧٧ ما يقرب من هذا النص . فاذا تظن أراد المؤلف بقوله : (سر قوله) ، هل أراد الغزالي يا ترى ؟ .

ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروهاً ، اذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب .

واما الشهادة فى سبيل الله فانها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب غير حب الله ، وخرج حب الدنيا والمال والولد. فإن من هجم على صف القتال بامر الله وأمر رسوله يكون موطناً نفسه على الموت لرضا الله وحبه ، بائعاً دنياه بآخرته ، راضياً بالبيع الذى بايعه الله به فى قوله :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » (١) .

وبذلك يظهر أن القتل لا بسبب الشهادة التى حقيقتها ما فسر ، لا يفيد الاطمئنان من هذا الخطر ، وإن كان ظلماً ، وإن كان فى الجهاد ، إذا لم تكن هجرته فيه الى الله ورسوله ، بل الى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها .

وقد ظهر مما ذكر : ان سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع الى احوال القلب ، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح ، فمن زهق روحه على خاطر مباح لم يمكن الحكم بانه ختم على خير أو سوء. بل أمره الى الله ، وان كانت النجاة له اقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها ، ومن زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة :

« فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » ، و« خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا » (٢) .

ومن زهق روحه على خاطر خير وهوان يكون قلبه فى حالة الموت

---

(١) التوبة ، الآية : ١١١ .
(٢) النساء ، الآية : ١١٦ ، ١١٩ .

متوجهاً الى الله ممتلياً من حبه وانسه ، فقد فاز فوزاً عظيما ، . وهذا موقوف على المجاهدة فى فطام النفس عن الشهوات الحيوانية، واخراج حب الدنيا عنها رأساً ، والاحتراز عن فعل المعاصى ومشاهداتها والتفكر فيها ، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم ، بل عن مباحات الدنيا بالكلية ، وتخلية السر عما سوى الله ، والانقطاع بشراشره اليه، واخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه، حتى يصير حبه سبحانه والأنس به ملكة راسخة ، ليغلب على القلب عند سكرة الموت ، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك ، كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم ، وأنت فى غالب الرؤيا الظاهرة عليك فى المنام لا تجد فى قلبك حباً لله وأنساً به وتوجهاً اليه ، بل لا يخطر ببالك أن لك رباً متصفاً بالصفات الكمالية ، بل ترى ما كنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة ، فان زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشيء من الأمور الدنيوية ، ولم يكن متوجهاً الى الله ومستحضراً معرفته ومبتهجاً بحبه وأنسه ، لبقيت على تلك الحالة أبداً ، وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى .

فتيقظ - يا حبيبي - من سنة الغفلة ، وتنبه عن سكر الطبيعة ، واخرج حب الدنيا عن قلبك ، وتوجه بشراشرك الى جناب ربك ، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك ، واقنع من الطعام مايقيم صلبك ولا تكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك ، وارض من اللباس بما يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الأبصار ويدفع عنك حر الشمس وبرد الأمطار، فان جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك، واحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم، وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك . وبعد ذلك راقب قلبك

فى جميع الأوقات ، واياك أن تهمله لحظة من اللحظات ، واحفظه من ان يكون محلاً لغير معرفة الله وحبه ، وليكن القرب الى الله والانس به غاية همك ، إذ العاقل انما يميل ويشتاق الى ما هو الأشرف والأكمل ، ويسر ويرتاح بماله احسن وانفع ، ولا ريب فى ان اشرف الموجودات واكملها هو سبحانه ، بل هو الموجود الحقيق والكمال الواقعى ، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله ، وله غاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال ، وإن معرفته وحبه احسن الأشياء وانفعها لكل احد ، لأنه الباعث للسعادة الأبدية والبهجة الدائمية ، فلا ينبغى للعاقل ان يترك ذلك اشتغالاً بفضول الدنيا وخسائسها ، بل يلزم عليها ان يترك حبلها على غاربها ، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبها ، ويتوجه بكليته الى جناب ربه ، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وانسه .

فصل

(الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله)

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب فى الأمور المذكورة ، ولا ريب فى كونه فضيلة وكمالا ، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال ، ونقيضه نقص ورذيلة .

وأما الخوف الممدوح ، فضده الأمن من مكر الله ، وهو من المهلكات ، وقد ورد به الذم فى الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه :

« فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاّ القَوْمُ الخاسِرُونَ » (١)

وقد ثبت بالتواتر : أن الملائكة والأنبياء كانوا خائفين من مكره ، كما

(١) الاعراف ، الآية : ٩٩ .

روى : « انه لما ظهر على ابليس ما ظهر ، طفق جبرئيل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله اليهما : مالكما تبكيان ؟ فقالا : يارب ! لا نأمن مكرك . فقال الله: هكذا كونا ، لا تأمنا مكري » . وروى : « أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى ، فأوحى الله اليهما : لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟ » وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله (قد أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحاناً ، حتى أن سكن خوفهما (١) ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما ، كما أن ابراهيم ﷺ لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله . وكان هذا القول منه من الدعاوى العظيمة ، فامتحن وعورض بجبرئيل ﷺ في الهواء حتى قال : ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا . وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله ، فاخبر الله تعالى عنه وقال :

« وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ » (٢)

وبالجملة : ينبغي للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه ، كما لم يأمن منه الملائكة والأنبياء ، واذا لم يأمن منه كان خائفاً منه دائماً .

(تتميم)

(التلازم بين الخوف والرجاء)

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب ، وهو يلازم الخوف ، إذ الخوف - كما عرفت - عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول ، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضاً ، وما كان حصوله مكروهاً كان عدم حصوله محبوباً ، فكما انه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصوله أيضاً ، فالخوف عن شيء وجوداً يلزمه الرجاء عدماً ، وعنه عدماً يلزمه الرجاء

(١) هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان ، يعني : انهما يخشيان إذا سكن خوفهما أن يظهر انهما قد أمنا المكر ولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحاناً لهما .
(٢) النجم ، الآية : ٣٧ .

وجوداً . وقس عليه استلزام الرجاء للخوف ، فهما متلازمان ، وإن أمكن غلبة أحدهما نظراً الى كثرة حصول اسبابه . وان تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفاً ورجاءً ، بل سمى انتظار مكروه أو انتظار محبوب .

ثم كما أن الخوف من متعلقات قوة الغضب ، وان الممدوح منه من فضائلها ، لكونه مقتضى العقل والشرع ، وباعثاً للعمل من حيث الرهبة ، فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها ، لكونه مقتضاهما وباعثاً للعمل من حيث الرغبة. إلا أن الخوف لترتّبه على ضعف القلب يكون اقرب الى طرف التفريط ، والرجاء لترتّبه على قوته يكون أقرب الى طرف الافراط ،وإن كان كلاهما ممدوحين. ثم لابدّ أن يحصل اكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره. كتوقع الحصاد ممن ألقى بذراً جيداً فى أرض طيبة يصلها الماء . وأما انتظار مالم يحصل شيء من أسبابه فيسمى غروراً وحماقة ، كتوقع من ألقى بذراً فى أرض سبخة لا يصلها الماء . وانتظار ماكان أسبابه مشكوكة يسمى تمنياً ، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء .

وتفصيل ذلك: أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض ، والايمان كالبذر ،والطاعات هى الماء الذى تسقى به الأرض، وتطهير القلب من المعاصى والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والاحجار والنباتات الخبيثة،ويوم القيامة هو وقت الحصاد . فينبغى أن يقاس رجاء العبد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية) ،وكما أن من ألقى البذر فى أرض طيبة ، وساق اليها الماء فى وقته ، ونقاها الشوك والاحجار ، وبذل جهده فى قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع ، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملاً أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلاً ، سمى انتظاره رجاء ممدوحاً ، فكذلك العبد إذا طهّر أرض قلبه عن شوك الأخلاق الرّدية وبث فيه بذر الايمان بماء

الطاعات ، ثم انتظر من فضل الله تثبيته الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً فى نفسه . وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة ، أو ألقى البذر فى ارض سبخة مرتفعة لا ينصبّ اليها ماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر واصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع ، ثم جلس منتظراً الى أن ينبت له زرع يحصده ، سمى انتظاره حمقاً وغروراً . كذلك من لم يلق بذر الايمان فى أرض قلبه ، أو ألقاه فيه مع كونه مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً فى خسائس الشهوات واللذات ، ولم يسق اليها ماء الطاعات ، ثم انتظر المغفرة ، كان انتظاره حمقاً وغروراً . وكما أن من بثّ البذر فى ارض طيبة لاماء لها ، وجلس ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ، وإن لم يمتنع أيضاً ، سمى انتظاره تمنياً . كذلك من ألقى بذر الايمان فى أرض قلبه ، ولكنه لم يسق اليه ماء الطاعات ، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله ، كان انتظاره تمنياً .

فاذن ، اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالأحاديث الواردة فى الترغيب على الرجاء وفى سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته ، إنما هى مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعدّ لحصولها ، وترك الانهماك فى المعاصى المفوت لهذا الاستعداد . فاحذر أن يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل . وانظر الى حال الأنبياء والأولياء واجتهادهم فى الطاعات وصرفهم العمر فى العبادات ليلاً ونهاراً ، أماكان يرجون عفو الله ورحمته ؟ بلى والله ! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد ، ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل

غرور محض وسفه بحت ، فصرفوا فى العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم .

ونحن نشير (أولا) الى بعض ماورد فى الرجاء من الآيات والأخبار، ثم نورد نبذأ مما يدل على انه لا معنى للرجاء بدون العمل ، ليعلم أن اطلاق الأول محمول على الثانى . فنقول : الظواهر الواردة فى الرجاء أكثر من أن تحصى ، وهى على أقسام :

(الأول) ماورد فى النهى عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى:

« يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ » (١) .

وقول على ﷺ لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه : « أيا هذا ! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » . وما روى : « أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون الى ربكم. فهبط جبرئيل ﷺ فقال : إن ربك يقول: لم تقنط عبادى ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم » . وما ورد : « ان رجلاً من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، فيقول الله له يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها » .

(الثانى) ما ورد فى الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة، كما ورد فى أخبار يعقوب من « أنه تعالى أوحى اليه أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك :

« وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ » (٢)

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ . (٢) يوسف ، الآية : ١٣ .

لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظى ؟، وقول أمير المؤمنين عليه السلام لرجل قال عند النزع : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى : «ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وأمنه مما يخاف» (١) . وقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فان لقنه الله حجته ، قال : رب رجوتك وخفت الناس ، فيقول الله : قد غفرته لك» . وما روى عنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «ان رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان ، فيقول الله لجبرئيل : اذهب فأتنى بعبدى ، فيجيء به ، فيوقفه على ربه ، فيقول الله له : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان ، فيقول : رده الى مكانه . قال : فيمشى ويلتفت الى ورائه ، فيقول الله عز وجل : الى أى شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت ألا تعيدنى اليها بعد إذ أخرجتنى منها. فيقول الله تعالى :اذهبوا به الى الجنة». وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «قال الله تعالى : لا يتكل العاملون على أعمالهم التى يعملونها لثوابى ، فانهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم اعمارهم فى عبادتى ، كانوا مقصرين غير بالغين فى عبادتهم كنه عبادتى ، فيما يطلبون عندى من كرامتى ، والنعيم فى جناتى ، ورفيع الدرجات العلى فى جوارى ، ولكن برحمتى فليثقوا ، والى حسن الظن بى فليطمئنوا ، وفضلى فليرجوا (٢) ، فان رحمتى عند ذلك تدركهم ، ومنى يبلغهم رضوانى ، ومغفرتى تلبسهم عفوى ، فانى أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت» . وعن أبى جعفر عليه السلام قال :

(١) روى (احياء العلوم : ج ٤ ص ١٢٥) هذا الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ .

(٢) فى الكافى فى (باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا ، فقد جاء فيه : «وفضلى فليرجوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا» .

« وجدنا فى كتاب على ﷺ ان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال وهو على منبره : والذى لا إله إلا هو ما أعطى مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذى لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذى لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحيي (١) أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يختلف ظنه ورجاءه ، فاحسنوا بالله الظن وارغبوا اليه » .

(الثالث) ما ورد فى استغفار الملائكة والأنبياء للمؤمنين كقوله تعالى: « وَالمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ » (٢) .

وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « حياتى خير لكم ومونى خير لكم ، أما حياتى فاسن لكم السنن واشرع لكم الشرائع ، وأما موتى فان أعمالكم تعرض علىّ ، فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله لكم » .

(الرابع) ما ورد فى تأجيل المذنب الى ان يستغفر ، كقول الباقر ـ عليه السلام ـ : « إن العبد اذا أذنب أجل من غدوة الى الليل ، فان استغفر لم يكتب عليه » (٣) . وقول الصادق ﷺ : « من عمل سيئة أجل فيها سبع

(١) فى الكافى فى (باب حسن الظن) : (يستحى) .

(٢) الشورى ، الآية : ٥ .

(٣) روى الكافى فى (باب الاستغفار من الذنب) هذا الحديث عن الصادق ـ عليه السلام ـ .

ساعات من النهار ، فان قال : استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم واتوب اليه ثلاث مرات ، لم تكتب عليه » .

(الخامس) ما ورد فى شفاعة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كقوله تعالى :

« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » (١)

وقد ورد فى تفسيره انه لا يرضى محمد وواحد من أمته فى النار ، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » ، وكذا ما ورد فى شفاعة الأئمة والمؤمنين .

(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم فى النار ، ومن أن حب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والعترة الطاهرة ينجيهم من العذاب ، وان فعلوا ما فعلوا .

(السابع) ما دل على أن النار إنما أعدها الله لأعدائه من الكافرين ، وإنما يخوف بها أولياءه ، كقوله تعالى :

« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ » (٢) ، وقوله : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » (٣) وقوله : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ » (٤) .

---

(١) الضحى ، الآية : ٥ .
(٢) الزمر ، الآية : ١٦ .
(٣) آل عمران ، الآية : ١٣١ .
(٤) الليل ، الآية : ١٥ ـ ١٦ .

(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته ، كقوله:
« وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » (١)
وما روى في تفسير قوله تعالى :
« يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ » (٢) :
« ان الله أوحى الى نبيه : إني أجعل حساب أمتك اليك ، فقال : لا يا رب ! أنت خير لهم مني (٣) ، فقال : إذن لا أخزيك فيهم » . وما روى : « انه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال يوماً : يا كريم العفو ! فقال جبرئيل : أتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو : انه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه » (٤) . وما ورد : أن العبد إذا أذنب فاستغفر ، يقول الله لملائكته : انظروا الى عبدي أذنب ذنباً ، فعلم أنه له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أني قد غفرت له . وما ورد في الخبر القدسي : « إنما خلقت الخلق ليربحوا عليّ ، ولم أخلقهم لاربح عليهم » . وما ورد من « أنه لو لم يذنبوا ، لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون ليغفر لهم » ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « والذي نفسي بيده . الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » . وما ورد من « أنه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد ، حتى أن ابليس يتطاول لها رجاء أن تصيبه » . والآيات والأخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر .

(١) الرعد ، الآية : ٦ .
(١) التحريم ، الآية : ٨ .
(٣) في (احياء العلوم : ج ٤ ص ١٢٨) هكذا : « أنت أرحم بهم مني » ؛ وكذا بدل لا أخزيك : « لا نخزيك » .
(٤) في (احياء العلوم : ص ١٢٩ من ج ٤) هكذا : « هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه » .

(التاسع) ما دل على أن ابتلاء المؤمن فى الدنيا بالبلايا والأمراض كفارة لذنوبه ، كقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الحمى من فيح جهنم ، وهى حظ المؤمن من النار » .

(العاشر) ـ ما ورد فى أن الايمان لا يضر معه عمل ، كما أن الكفر لا ينفع معه عمل ، وفى أنه قد يغفر الله عبداً ويدخله الجنة لأجل مثقال ذرة من الايمان أو عمل جزئى من الأعمال الصالحة .

(الحادى عشر) ما ورد فى الترغيب على حسن الظن بالله ، كقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » ، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » . وقول الرضا عليه السلام : « أحسن الظن بالله ، فان الله عزوجل يقول : أنا عند ظن عبدى لى ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر » . وقول الصادق عليه السلام : « حسن الظن بالله : ألا ترجو إلا الله ، ولا تخاف إلا ذنبك » . وقد تقدم بعض أخبار أخر فى هذا المعنى . ثم ايجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له مما لا ريب فيه .

(الثانى عشر) ما دل على أن الكفار أو النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة ، كما روى انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « امتى امة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة ، وعجل عقابها فى الدنيا بالزلازل والفتن ، فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من امتى رجل من أهل الكتاب ، فقيل هذا فداؤك من النار » . وعن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ : « ان النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم اياهم ووقيعتهم فيهم » . وعن الصادق عليه السلام : « سيؤتى بالواحد من مقصرى شيعتنا فى أعماله ، بعد أن صان الولاية والتقية وحقوق اخوانه ، ويوقف بازائه ما بين مائة وأكثر من ذلك الى مائة الف من النصاب ، فيقال

له : هؤلاء فداؤك من النار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون الى الجنة وأولئك النصاب الى النار ، وذلك ما قال الله تعالى :

« رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » (١)

فى الدنيا منقادين للامامة ، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم » .

وأما (الثانى) - اعنى ما يدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما هو بعد العمل - فأكثر من أن يحصى ، كقوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ » (٢) . وقوله : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » (٣) .

وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة » . وما روى عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : قوم يعملون بالمعاصى ويقولون : نرجوا ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت ، فقال : « هؤلاء قوم يترجحون فى الامانى كذبوا ليسوا براجين ، « إن » (٤) من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شىء هرب منه » . وعن على بن محمد ، قال : قلت له عليه السلام : إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصى ويقولون نرجوا ، فقال : « كذبوا ، ليسوا لنا بموال ، أولئك قوم

(١) الحجر ، الآية : ٢ .
(٢) البقرة ، الآية : ٢١٨ .
(٣) الأعراف ، الآية : ١٦٩ .
(٤) روي الحديث فى الكافى (باب الرجاء) ، وليس فيه كلمة « إن » .

ترجحت بهم الأمانى . من رجا شيئاً عمل له ، ومن خاف شيئاً هرب منه » . وعنه قال : « لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو » .

فصل

(مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر)

قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان ، لكونهما باعثين على العمل ، ودوائين يداوى بهما أمراض القلوب ، ففضل كل منهما إنما هو بحسب مايترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض .

وهذا يختلف باختلاف الأشخاص : فمن كان تأثير الخوف فى بعثه على العمل اكثر من تأثير الرجاء فيه ، فالخوف له أصلح من الرجاء ، ومن كان بالعكس فبالعكس ومن غلب عليه مرض الأمن من مكر الله والاغترار به ، فالخوف له أصلح . ومن غلب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء له أصلح . ومن انهمك فى المعاصى ، فالخوف له أصلح . ومن ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه ، فالأصلح له ان يعتدل خوفه ورجاؤه .

والوجه فى ذلك : أن كل ما يراد به المقصود ، ففضله إنما يظهر بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه ، فلو فرض تساويهما فى البعث على العمل ولم يغلب شىء من المذكورات ، فالأصلح اعتدالهما ، كما قال امير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده : « يا بنى ! خف الله خوفاً ترى أنك إن اتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء كأنك لو اتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك » . وقال الباقر عليه السلام : « ليس من عبد مؤمن إلا وفى قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، وقد جمع

الله سبحانه بينهما في وصف من أثنى عليهم ، فقال : يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وقال : يدعوننا رغباً ورهباً . وعن الحارث بن المغيرة قال : قلت للصادق ﷺ : ماكان في وصية لقمان ؟ قال : «كان فيها الأعاجيب ، وكان أعجب ماكان فيها أن قال لابنه : خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك ، ثم قال ﷺ : «كان أبي ﷺ يقول : إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، ولو وزن هذا لم يزد على هذا » .

وقال ﷺ : « الخوف رقيب القلب ، والرجاء شفيع النفس ، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً واليه راجياً ، وهما جناحا الايمان ، يطير العبد المحقق بهما الى رضوان الله ، وعينا عقله ، يبصر بهما الى وعد الله ووعيده ، والخوف طالع عدل الله وناعي وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحيي القلب ، والخوف يميت النفس ... ومن عبدالله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل ، ويصل الى مأموله ، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته ، ولا له عمل يتوسل به استحقاقاً ، ولا قدرة له على شيء ولا مفر ، وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز ، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه ، من حيث لا تحصى ولا تعد ، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر (١) ، والزاهد يعبد على الخوف » (٢) .

وقد ظهر مما ذكر : أن الرجاء أصلح وأفضل في موضعين : (احدهما) في

---

(١) هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار ، ولم نعثر على استعمال كلمة (سهر) المبالغة في معنى ساهرة .

(٢) هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة . وقد تقدم رأي صاحب البحار في مصباح الشريعة ص ١٢١ في تعليقتنا . وهذه الرواية ظاهرة انها ليست من اسلوب كلام الامام ـ عليه السلام ـ .

حق من تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض ، وكان الرجاء باعثاً له على التشمير والنشاط للطاعات . ومثله ينبغى أن يرجّى نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين فى العليين ، حتى ينبعث من رجائه نشاط العباد . (وثانيهما) فى حق العاصى المنهمك إذا خطر له خاطر التوبة ، فيقنطه الشيطان من رحمة الله ، ويقول له : كيف تقبل التوبة من مثلك ؟ فعند هـذا يجب عليه أن يقمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه ، كقوله تعالى :

« لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » (١) . وقوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ » (٢) .

ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها ، إذ لو توقع المغفرة مع الاصرار كان مغروراً . والرجاء الأول يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير ، والثانى يقطع القنوط المانع من التوبة .

فصل

(العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف)

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد أحبهم اليه ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لعطائه ، ولذلك عير الله أقواماً يظنون السوء بالله ، قال :

« وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ »(٣).

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) طه ، الآية : ٨٢ .

(٣) فصلت ، الآية : ٢٣ .

وقال : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً » (٢) .

وورد فى الرجاء وحسن الظن ما ورد - كما تقدم - وفى الخبر : « ان الله تعالى أوحى الى داود : أحبنى واحب من يحبنى وحببنى الى خلق ، فقال : يا رب ! كيف احببك الى خلقك ؟ قال : اذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى واحسانى ، وذكرهم ذلك ، فانهم لا يعرفون منى إلا الجميل » . ورأى بعض الأكابر فى النوم - وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء - فقال : « أوقفنى الله بين يديه ، فقال : ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحببك الى خلقك ، فقال : قد غفرت لك » .

هذا مع ان الرجاء أفضل من الخوف للعبد بالنظر الى مطلعهما ، إذ الرجاء مستق من بحر الرحمة والخوف مستق من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التى تقتضى الغضب ، فلا تمازجه المحبة كممازجتها للرجاء . نعم ، لما كانت المعاصى والاغترار على الخلق أغلب ، (لا) سيما على الموجودين فى هذا الزمان ، فالأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط ألا يخرجهم الى اليأس وقطع العمل ، بل يحثهم على العمل ، ويكدر شهواتهم ، ويزعج قلوبهم عن الركون الى دار الغرور ، ويدعوهم الى التجافى عن عالم الزور ، إذ مع غلبة المعاصى على الطاعات لا ريب فى أصلحية الخوف ، (لا) سيما أن الآفات الخفية : من الشرك الخفى ، والنفاق ، والرياء ، وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة فى أكثر الناس موجودة ، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوى فى بواطنهم كامنة ، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ممكنة ، ومناقشات الحساب ورد أعمالهم الصالحة

(١) الفتح ، الآية : ١٢ .

لأسباب خفية محتملة . فمن عرف حقائق هذه الامور ، فان كان ضعيف القلب جباناً فى نفسه غلب خوفه على رجائه ، وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه . وأما أن يغلب رجاؤه فلا ، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر ، كما فى غالب الناس ، بل الأصلح لهم غلبة الخوف ، ولكن قبل الاشراف على الموت ، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقته ، وهو لا يطيق هنا أسباب الخوف ، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فيقوى قلبه ويحبب اليه ربه الذى اليه رجاؤه .

وينبغى ان لا يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله ، ليكون محباً للقائه . ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن أحب الله ولقاءه ، وعلم انه تعالى ايضاً يحب لقاءه ، اشتاق اليه تعالى ، وكان فرحاناً بالقدوم عليه ، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتد عذابه ومحنته ، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها فى الدنيا ، فكانت الدنيا جنته ، إذ الجنة هى البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فكان موته خروجاً عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه . وهذا أول ما يلقاه كل محب للدنيا ، فضلا عما أعد الله له من ضروب الخزى والنكال والسلاسل والأغلال . واما إذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وانسه ، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا أول سجنه ، إذ السجن هى البقعة المانعة عن الوصول الى محابه ، فموته خلاص له من السجن وقدوم على المحبوب ، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلى بينه وبين محبوبه ، وهذا أول ابتهاج يلقاه من كان محباً لله غير محب للدنيا وما فيها ، فضلا عما اعده الله

له مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فصل

(مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف امراضهم)

قد عرفت أن المحتاج الى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة ، أو غلب عليه الخوف فاسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله . وأما المنهمكون فى طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخوف ـ كأكثر أبناء زماننا ـ فأدوية الرجاء بالنسبه اليهم سموم مهلكة ، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تمادياً فى طغيانهم وفساداً فى فسادهم وعصيانهم ، فواعظ الخلق ينبغى أن يعرف أمراضهم وينظر الى مواقع عللهم ، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها ، فى مثل هذا الزمان ينبغى ألا يذكر لهم بواعث الرجاء ، بل يبالغ فى ذكر أسباب الخوف ، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس ، فينتقل الى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم .

وبالجملة : الطريق الى تحصيل الرجاء لمن يحتاج اليه : أن يتذكر الآيات والأخبار المتواترة الواردة فيه وفى سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته ـ كما تقدم شطر منها ـ ثم يتأمل فى لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده فى دار الدنيا ، حتى أعد لهم كل ما هو ضرورى لهم فى دوام الوجود ، بل لم يترك لهم شيئاً جزئياً يحتاجون اليه نادراً يفوت بفقده ما هو الأصلح الاولى لهم من الزينة والجمال . فاذا لم تقصر العناية الإلهية عن عباده فى جميع ما يجب ويحسن لهم من اللطف والاحسان فى دار الدنيا ـ وهى حقيقة دار البلية والمحنة

لا دار النعمة والراحة ـ ولم يرض أن يفوته شيء من المزائد والمزايا في الحاجة والزينة ، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم الى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد ، مع انه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة على غضبه ؟! وأقوى ما يجلب به الرجاء أن يعلم أن الله تعالى خير محض لا شرية فيه أصلا ، وفياض على الاطلاق ، وإنما أوجد الخلق لافاضة الجود والاحسان عليهم ، فلابد أن يرحمهم ولا يبقيهم في الزجر الدائم .

از خير محض جز نكوئى نايد　　خوش باش كه عاقبت نكو خواهد شد(١)

ومنها :

صغر النفس

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات ، وهو من نتائج الجبن ، ومن خبائث الصفات . وتلزمه الذلة والمهانة ، وعدم الاقتحام في معالي الامور ، والمسامحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والمخاوف . وقد ورد في الأخبار بأن المؤمن بريء عن ذلة النفس ، قال الصادق عليه السلام : « ان الله عز وجل فوض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوض اليه أن يكون ذليلا : أما تسمع الله تعالى يقول :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » ؟ (٢)

فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلا ، ان المؤمن أعز من الجبل ،

---

(١) وحاصل معنى هذا البيت : (ان الخير المحض لا يصدر عنه إلا الجميل ، فكن مطمئناً ان عاقبتك ستكون الى الجميل) .

(٢) المنافقون ، الآية : ٨ .

الجبل يستقل منه (٢) بالمعاول والمؤمن لا يستقلُ من دينه شيء » . وقال ﷺ : « إن الله فوض الى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه » . وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر . وعلاجه ما تقدم فى معالجة الجبن .

وصل

(كبر النفس وصلابتها)

وضده (كبر النفس وصلابتها) ، وقد عرفت أنه ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان . وقد دلت الأخبار على أن المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة ، وكل ذلك فرع كبر النفس . قال الباقر ﷺ : « المؤمن أصلب من الجبل » ، وقال ﷺ : « إن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال : العز فى الدنيا والآخرة ، والفلح فى الدنيا والآخرة ، والمهابة فى صدور الظالمين » . وصاحب هذه الملكة لا يبالى بالكرامة والهوان ، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والاعسار ، بل الصحة والمرض والمدح والذم ، ولا يتأثر بتقلب الامور والأحوال . وهى ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد ، ولا يصل اليها إلا واحد بعد واحد ، بل لا يحوم حولها إلا اوحدى من أفاضل الحكماء ، أو ألمعى قوى القلب من أماثل العرفاء . وطريق تحصيلها ـ بعد تذكر شرافتها ـ أن يتكلف فى المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها ، حتى تحصل بالتدريج .

---

(١) تقدم فى صفحة (٢٠٨) مضمون هذا الحديث ، ورجحنا فيه كلمة (يستقل) بدل (يستقل) وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم فى اصول الكافى فى باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) ـ بالقاف ـ وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك . وجاء فى البحار (الجزء الاول من المجلد ١٥ ـ باب علامات المؤمن وصفاته ص ٥٩٦) فى شرح هذا الحديث هكذا : « الجبل يستقل منه : من القلة ، أي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفأس والمعول ونحوهما » .

(تتميم)

(الثبات أخص من كبر النفس)

قد عرفت أن الثبات أخص من كبر النفس ، وهو ملكة التحمل على الخوض فى الأهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ، بحيث لا يعتريه الانكسار ، وإن زادت وكثرت . وضده الاضطراب فى الأهوال والشدائد، ومن جملة الثبات الثبات فى الايمان ، وهو اطمئنان النفس فى عقائدها ، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات ، قال الله تعالى :

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيٰوةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ » (١) .

وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الأعمال ، إذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها فى المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها ، فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتاً ومواظباً على شىء من الأعمال الفاضلة ، بل هو :

« كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ » (٢).

والمتصف به مواظب لها دائماً من غير فتور . وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة أو لضعف فى النفس . فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس ، فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب ، وعدمه من رذائل إحداهما أو كليهما .

---

(١) ابراهيم ، الآية : ٢٧ .

(٢) الانعام ، الآية : ٧١ .

ومنها :

دناءة الهمة

وهو قصور النفس عن طلب معالى الامور وقناعتها بادانيها ، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها . وضده (علو الهمة) ، وهو ملكة السعى فى تحصيل السعادة والكمال وطلب معالى الأمور ، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها ، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان ، بل لا يبالى فى طريق الطلب بالموت والقتل وأمثالها . وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيق الشائق للموت ، والموت تحفة له ، واعظم سرور يصل اليه ، كما ورد فى الأخبار . وهو الذى يقول :

آن مرد نيم كز عدمم بيم آيد
كان بيم مرا خوشتر از اين بيم آيد
جانى است مرا بعاريت داده خدا
تسليم كنم جو وقت تسليم آيد (١)

ويقول :

مرگ اگر مرد است گو نزد من آى
تا در آغوشش در آرم تنگ تنگ

(١) الأبيات كلها (لحافظ الشيرازي) المتقدم ذكره . ومعنى البيتين : (لست بذلك الرجل الذى يخشى من فناء نفسه ، فان ما اخشى منه ـ وهو الموت ـ أحسن عندى من نفس الخوف منه ، لأن نفسى قد أعارنيها الله تعالى ، فعلى ان اسلمها عندما يطالب تسليم العارية) .

من از آن عمرى ستانم جاودان

آن زمن دلق ستاند رنگ رنگ (١)

ويقول :

اين جان عاريت كه بحافظ سپرده دوست

روزى رخش ببينم وتسليم وى كنم (٢)

وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها ، وهى أعظم الفضائل النفسانية ، إذ كل من وصل الى المراتب العظيمة والأمور العالية فانما وصل اليها لأجلها ، إذ صاحبها لا يرضى بالمراتب الدنية ، ويشمر لتحصيل المراتب العالية والامور المتعالية ، وفى جوهر الانسان وجبلته أن يصل الى كل ما يجتهد فى طلبه :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٣) .

من طلب الشيء وجد وجد . ومن افراد علو الهمة الشهامة ، وهو الحرص على اقتناء عظائم الامور توقعاً لجيل الذكر على مر الدهور .

ومنها :

عدم الغيرة والحمية

وهو الاهمال فى محافظة ما يلزم محافظته : من الدين ، والعرض ، والأولاد ، والأموال . وهو من نتائج صغر النفس وضعفها ، ومن المهلكات العظيمة ، وربما يؤدى الى الديانة والقيادة . قال رسول الله ـ صلى الله عليه

(١) معنى البيتين : (لو ان الموت رجل ، فقل له : يأتينى حتى احتضنه شوقاً اليه ، وألزه لزاً . وذلك لأنى آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ منى هذه الزخارف الفانية الورات) .

(٢) معنى البيت : (إن هذه النفس العارية التى أمنها الحبيب عند حافظ ـ ويعنى نفسه ـ لابد أن أسلمها فى يوم من الايام عند ما أرى وجه الحبيب ـ يعنى بالحبيب : الله تعالى ـ) .

(٣) العنكبوت ، الآية : ٦٩ .

وآله وسلم ـ: «إذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «اذا غير الرجل فى أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر، بعث الله اليه طائراً يقال له (القندر) حتى يسقط على عارضة بابه، ثم يمهله اربعين يوماً، ثم يهتف به: إن الله غيور يحب كل غيور، فان هو غار وغير وانكر ذلك فأكبره، وإلاطار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه، فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان. وتسميه الملائكة: الديوث». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «كان ابراهيم غيوراً وأنا أغير منه، وجدع الله أنف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا أهل العراق! نبئت أن نساءكم يدافعن الرجال فى الطريق، أما تستحيون؟». وقال عليه السلام: «أما تستحيون ولا تغارون، نساؤكم يخرجن الى الاسواق ويزاحمن العلوج؟».

وصل

(الغيرة والحمية)

وضده (الغيرة والحمية)، وهو السعى فى محافظة ما يلزم محافظته، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها. وهى شرائف الملكات، وبها تتحقق الرجولية والفحلية، والفاقد لها غير معدود من الرجال. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «إن سعداً لغيور، وأنا أغير من سعد، والله أغير منى». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «إن الله لغيور، ولاجل غيرته حرم الفواحش». وقال: «إن الله يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتى الرجل المؤمن ما حرم الله عليه». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى غيور ويحب الغيرة، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها».

فصل

(الغيرة على الدين والحريم والاولاد)

مقتضى الغيرة والحمية فى (الدين) أن يجتهد فى حفظه عن بدع المبتدعين، وانتحال المبطلين، وقصاص المرتدّين، واهانة من يستخف به من المخالفين، وردّ شبه الجاحدين، ويسعى فى ترويجه ونشر أحكامه، ويبالغ فى تبيين حلاله وحرامه، ولا يتسامح فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألاّ يتغافل عن مبادىء الامور التى تخشى غوائلها، فيحفظهن عن أجانب الرجال، ويمنعهن عن الدخول فى الاسواق. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لفاطمة (ع): «أى شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل. فضمها اليه، وقال: ذرية بعضها من بعض». وكان أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يسدّون الثقب والكوى فى الحيطان، لئلا تطلع النساء على الرجال. وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «من أطاع امرأته أكبه الله على وجهه فى النار». وما روى أنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: أذن للنساء فى حضور المساجد، وقال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، فالظاهر أنه كان مختصاً بنساء عصره ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها. والصواب اليوم أن يمنعن من حضور المساجد والذهاب الى المشاهد إلا العجائز منهن، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر الى أى موضع كان. وسئل الصادق عليه السلام عن خروج النساء فى العيدين، فقال: «لا! إلا العجوز عليها منقلاها». يعنى الخفين. وفى رواية اخرى أنه عليه السلام: «سئل عن خروج النساء فى العيدين والجماعة، فقال: لا! إلا امرأة مسنة».

وبالجملة: من اطلع على أحوال نساء أمثال عصرنا يعلم أن مقتضى الغيرة أن يبالغ فى حفظهن عن جميع ما يحتمل أن يؤدى الى فتنة وفساد ، سواء كان فى نفسه محرماً ، كالنظر الى الرجال الأجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهى المحرمة ، أولا ، كالخروج عن البيت بلا داع شرعى أو ضرورى ، ولو الى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا ابى عبدالله الحسين عليه السلام ، إذ ذلك وإن كان فى نفسه راجحاً إلا أن الغالب عدم انفكاكه عما ينافى الغيرة والحمية على ما هو المشاهد فى عصرنا ، فان أقل مافى الباب أنه لا ينفك عن نظرهن الى الأجانب واستماع كلامهم ، بل عن نظرهم اليهن واستماع كلامهن ، وهذا خروج للطرفين الى الانحراف عن قانون العفة. مع أنا نعلم قطعاً أن خروج اكثرهن لا يخلو عن غرض فاسد أو مرجوح ، وما أقل فيهن أن يكون خروجها الى أحد المواضع المذكورة لمحض القربة والثواب . فالصواب أن يمنعن فى أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج ، إلا الى سفر واجب ، كالحج ، أو الى بيت عالم عادل لأخذ ما يجب عليهن من المسائل ، إذا لم يتمكن أزواجهن من أخذها وإيصالها اليهن . نعم ، لو فرض خروجها الى أحد المشاهد أو الى مجمع تعزية من مجامع النساء بل الى مجمع العرس ، على نحو اطمأن الزوج منها وتيقن بعدم حدوث ما ينافى الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه ، فالظاهر جواز الاذن بل رجحانه . وجميع ذلك إنما هو فى الشواب من النساء ، وأما العجائز فلا بأس بخروجهن الى المواضع المذكورة ! ومقتضى الغيرة أن يمنعن من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة ، وعن مجالسة العجائز اللاتى يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم ، لأنهن ناقصات العقل والايمان ، ومع ذلك شهوتهن فى غاية القوة والغلبة ، فاستماعهن لشىء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة

وهيجانها فيهن ، فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الايمان فربما أدى ذلك الى فساد عظيم . ولذلك ورد فى الأخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف ﷺ ، إذ استماعهن لأمثال القصة المذكورة فيها ربما أدى الى انحرافهن عن طريق العفة . قال أمير المؤمنين ﷺ : « لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤهن إياها فان فيها الفتن ، وعلموهن سورة النور فان فيها المواعظ » . وقال ﷺ : « لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور » . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور » .

وبالجملة : مقتضى العقل والنقل أن يمنعن عن جميع ما يمكن أن يؤدى الى فساد وريبة ، وعن مبادىء الامور التى تخاف غوائلها ، وينبغى لصاحب الغيرة أن يجعل نفسه مهيباً فى نظرها ، حتى تكون منه على خوف وحذر ، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها ، وأن يجعلها مشغولة فى كل وقت بأمر من الامور ، كتدبير المنزل وإصلاح أمر المعيشة ، أو بكسب من المكاسب ، حتى يكون لها دائماً شغل شاغل ، ولا تكون فارغة عنه فى وقت من الأوقات ، إذ لو خلت عن الأشغال وتعطلت عن المهمات أوقعها الشيطان فى أودية الأفكار الردية ، فتميل الى الزينة والخروج والتفرج ، والنظر الى أجانب الرجال ، والملاعبة والمضاحكة للنسوان ، فينجر أمرها الى الفساد . وينبغى أيضاً لصاحب الغيرة أن يعطى امرأته ما تحتاج اليه من القوت واللباس وسائر الضروريات ، حتى لا تضطر الى ارتكاب مالا ينبغى من الحركات والأفعال توصلاً الى أخذ شىء من ذلك من غير زوجها .

ثم ينبغى ألا توقعه الغيرة فى طرف الافراط فيبالغ فى اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن . فقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

« أن يتبع عورات النساء وأن يتعنت بهن ». وفي الخبر المشهور : « أن المرأة كالضلع ، إن أردت أن تقيمه كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » . وقال أمير المؤمنين ﷺ : « لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك » . وقال ﷺ في رسالته الى الحسن ﷺ : « إياك والتغاير في غير موضع الغيرة ، فان ذلك يدعوهن الى السقم ، ولكن احكم امرهن ، فان رأيت عيباً فعجل النكير على الصغير والكبير ، بأن تعاقب منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب » . وبالجملة : لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش ، إذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه ، فان بعض الظن اثم .

* * *

وأما مقتضى الغيرة على (الأولاد) : أن تراقبهم من أول أمرهم ، فاستعمل في حضانة كل مولود له وإرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال ، إذ الصبي الذي تتكون اعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه الى الخبائث ، لأن طينته انعجنت من الخبث .

وإذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي أن يؤدب بآداب الأخيار . ولما كان أول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغي أن يؤدب فيه بأن يؤمر بألا يأخذ إلا بيمينه ، ويقول (باسم الله) عند أكله ، ويأكل مما يليه ، ولا يبادر الى الطعام قبل غيره ، ولا يحدق الى الطعام ولا الى من يأكل ، ولا يسرع في الأكل ، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ، ولا يلطخ ثوبه ولا يده . ويُقبح عنده كثرة الأكل بأن يُذم كثير الأكل ويشبه بالبهائم ، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل ، ويحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به ،

والقناعة بأى طعام اتفق . ثم يؤدب فى أمر اللباس، حتى لا يخرج فيه عن زى الابرار وأهل الورع ، فيحبب اليه ثياب القطن والبيض ، دون الابريسم الملون ، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين ، والرجال يستنكفون منه ، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه والزينة . ثم يؤدب فى الأخلاق والافعال ويبالغ فى ذلك، لأن الصبى إذا اهمل فى أول نشوه خرج فى الاكثر ردى الأخلاق والأفعال ، فيكون كذاباً ، حسوداً ، لجوجاً ، عنوداً ، سارقاً ، خائناً ، ذا ضحك وفضول ، وربما صار مخنثاً مائلاً الى الفسوق والفجور . فينبغى أن يحفظ من قرناء السوء ، وهو الأصل فى تأديبه . ويسلم الى معلم دّين صالح ، يعلمه القرآن واحاديث الاخيار وحكايات الابرار ، لينغرس فى نفسه حب الصالحين . ويحفظ عن الاشعار التى فيها ذكر الفسوق وأهله ، إذ ذلك يغرس فى قلبه بذر الفساد. وينبغى أن يعود الصبر والسكوت إذا ضربه المعلم ، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ ، ويذكر له أن ذلك دأب الرجال والشجعان ،وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان . وينبغى أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل ، حتى يستريح من تعب الأدب ، ولا يموت قلبه ، ولا ينقص ذكاه . ويعلم محاسن الأخلاق والأفعال ، ويجنب عن خبائث الصفات ورذائل الأعمال . فيخوف من الحسد ، والعداوة ، والجبن ، والبخل ، والكبر ، والعجب . ويحذر من السرقة، وأكل الحرام ، والكذب، والغيبة ، والخيانة ، والفحش، واللعن ، والسب ، ولغو الكلام . . . وغير ذلك . ويرغب فى الصبر ، والشكر، والتوكل ،والرضا ،والشجاعة ، والسخاء ، والصدق ، والنصيحة ... وغير ذلك من محاسن الأخلاق وفضائلها . ويمدح عنده الاخيار ويذم الأشرار ، حتي يصير الخير عنده محبوباً ، ويصير الشر عنده مبغوضاً .

وإذا بلغ سن التمييز ، يؤمر بالطهارة والصلاة ، وبالصوم فى بعض الأيام من شهر رمضان ، ويعلم أصول العقائد وكل ما يحتاج اليه من حدود الشرع . ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود ، فينبغى أن يكرم عليه ويجازى لأجله بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس . وإن ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة ينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، (لا) سيما إذا ستره الصبي واجتهد فى اخفائه ، فان اظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة بعد ذلك ، فان عاد ثانياً الى مثله ، فينبغى أن يعاتب عليه سراً ويعظم الأمر فيه ، ويقال له : إياك أن يطلع على فعلك هذا احد فتفتضح عند الناس. ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظاً هيبته فى الكلام والحركات معه . وينبغى للأم أن تخوّفه بالأب . وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فاذا ترك يعوّد فعل القبيح . ويعوّد الوقار والطمأنينة فى المشى وسائر الحركات والافعال ، وعدم كشف اطرافه، والتواضع والاكرام لكل من عاشره ، والتلطف معه فى الكلام . ويعلّم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو اكبر سناً منه ، من قريب وبعيد ، ويعوّد النظر اليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم . ويمنع من الفخر على أقرانه بشيء مما تملكه نفسه أووالده . ويخوف من أخذ شيء من الصبيان أو الرجال ، أو يذكر له ان الرفعة فى العطاء ، والاخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة ، فانه دأب الكلب ، إذ هو يتبصبص فى انتظار لقمة ، ويقبح عنده حب الذهب والفضة ، ويحذر منهما اكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، إذ آفة حبهما اكثر من آفة السموم ، وقد هلك لاجله كل من هلك العالم . ويعوّد ألا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتمطط ، ولا

يتثاب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره . ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضرب كفه تحت ذقنه ، لأنه دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون . ويمنع من النوم فى النهار ، ومن التنعم فى المفرش والملبس والمطعم ، بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب اعضاؤه ، ولا يستخف بدنه ، ويذكر له انها خلقت لدفع الضرر والالم لا لاجل اللذة ، وان الاطعمة ادوية يتقوى الانسان بها على عبادة الله ، وان الدنيا كلها لا أصل لها ولا بقاء لها ، وان الموت يقطع نعيمها ، وانها دار ممر لا دار مقر . وأن الآخرة هى دار القرار ومحل الراحة واللذات ، والكيِّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة . وينبغى أن يمنع من كثرة الكلام ، ومن الكذب ، واليمين ولو كان صدقاً ، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح ، ومن أن يبتدىء بالكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر سناً منه ، وأن يقوم لمن هو اكبر منه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه .

فاذا تأدب الصبي بهذه الآداب فى صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة ، فيكون خيراً صالحاً . وإن نشأ على خلاف ذلك ، حتى ألف اللعب ، والفحش ، والوقاحه ، والخرق ، وشره الطعام . واللباس ، والتزين والتفاخر ، بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر ، وكان وبالاً لوالديه ، وصدر منه ما يوجب الفضيحة والعار . فيجب على كل والد ألا يتسامح فى تأديب ولده فى حالة الصبا ، لأنه أمانة الله عنده ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة ، وقابل للخير والشر ، وأبواه يميلان به الى أحدهما ، فان عود الخير نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب ، وان عود الشر وأهمل شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة أبيه

أو من كان قيما ووليا له .

ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر ، إلا فيما يتفاوت به الصبي والصبية ، فيستعمل ما يليق بها ، ويجب السعي في جعلها ملازمة للبيت ، والحجاب ، والوقار ، والعفة ، والحياء ، وسائر الخصال التي ينبغي أن تتصف بها النساء .

ثم ينبغي أن يتفرس من حال الصبي أنه مستعد لأي علم وصناعة ، فيجعل مشغولا باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره ، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة ، إذ كل أحد ليس مستعداً لكل صناعة ، وإلا لاشتغل الجميع باشرف الصناعات ، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه .

° ° ° °

وأما الغيرة على (المال) ، فلا تظن انها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الاخيار ، إذ كل إنسان ما دام في دار الدنيا محتاج اليه ، وتحصيل الآخرة أيضاً يتوقف عليه ، إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن ، وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الأغذية والأقوات . فلابد لكل عاقل أن يعتني بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه ، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة ، ومقتضى السعي في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته أو دنياه ، كانفاقه للرياء والمفاخرة والتضييف ، أو بذله على غير المستحقين بلا داع ديني أو دنيوي أو عادي ، أو تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية أو سراً ، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير أن يصل نفعه الى أحد ، أو اسرافه في بذله ، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ، ولا يعود اليه عوض في الآخرة والدنيا . بل مقتضى الغيرة عليه أن يصرف

جميع امواله فى حياته فى المصارف التى تعود فائدتها الى نفسه ، ولا يترك شيئاً منها لوراثه إلا للأخيار من أولاده ، إذ بقاؤهم بمنزلة بقائه ، ويترتب على وجودهم ـ مع حسن حالهم وعيشهم ـ جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته . وكيف يرضى صاحب الغيرة ان يترك ماله الذى أتعب نفسه فى اكتسابه وفنى عمره فى تحصيله ويحاسب عليه فى عرصات القيامة ، لزوج امرأته ، فيأكله ويجامعها ، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التى ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة الرجال ، أن يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها . وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة ، فضلا عن صاحب الغيرة والحمية . وقس على ذلك تخليف الأموال لسائر الورّاث الذين لايعرفون الحقوق ، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء ، من أولاد السوء وأزواج البنات ، وسائر الأقارب من الأخوان والأخوات والاعمام والعمات والاخوال والخالات . وهؤلاء وإن لم يكونوا بمثابة زوج امرأته ، إلا أن ترك الاموال لهم اذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش ، كما هو المشاهد فى زماننا هذا. ومنها :

العجلة

وهى المعنى الراتب فى القلب ، الباعث على الإقدام على الامور بأول خاطر ، من دون توقف واستبطاء فى اتباعها والعمل بها . وقد عرفت أنه من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وهو من الابواب العظيمة للشيطان ، قد أهلك به كثيراً من الناس . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « العجلة من الشيطان ، والتأنى من الله » . وقد خاطب الله تعالى نبيه ـ صلى الله

عليه وآله وسلم ـ بقوله :

« وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ » (١) .

وقد روى : « انه لما ولد عيسى ﷺ أتت الشياطين ابليس ، فقالت : أصبحت الاصنام قد نكست رؤسها . فقال : هـــذا حادث قد حدث ، مكانكم . فطار حتى جاء خافق الأرض ، فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى ﷺ قد ولد ، واذا الملائكة قد حفت حوله ، فرجع اليهم ، فقال : إن نبياً قد ولد البارحة ، ما حملت انثى قط ولا وضعت إلا وانا بحضرتها ، إلا هذا ، فايأسوا أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة » .

والظواهر فى ذم العجلة اكثر من أن تحصى ، ولذلك أفتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة . والسر فى شدة ذمها : ان الأعمال ينبغى أن تكون بعد المعرفة والبصيرة ، وهما موقوفان على التأمل والمهلة ، والعجلة تمنع من ذلك ، فمن يستعجل فى أمر يلقى الشيطان شره عليه من حيث لا يدرى . والتجربة شاهدة بأن كل أمر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران ، وكل ما يصدر على التأنى والتثبت لا تعرض بعده ندامة ، بل يكون مرضياً ، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون ، ولا وقع له عند القلوب . والمتأمل فى الامور يعلم ان العجلة هو السبب الأعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الأبد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها .

وبيان ذلك : انه لا ريب فى ان أحب اللذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء ، لأنها من صفات الربوبية التى هى مطلوبة بالطبع للنفوس المجردة .

(١) طه ، الآية : ١١٤ .

والسر فيه : ان كل معلول من سنخ علته ، ويناسبها في صفاتها وآثارها ، وغاية ابتهاجه ان يتصف بمثل كمالاتها ، ولذا قيل : «كل ما يصدر عن شيء لا يمكن أن يكون من جميع الجهات هو هو ، ولا أن يكون من جميع الجهات ليس هو ، بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو » . وهذا معنى كلام قدماء الحكمة : (الممكن زوج تركيبي) . ولا ريب في أن جميع الموجودات معلولة للواجب سبحانه ، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه وجوده ، فهو غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته ، إلا ان ما هو في سلسلة الصدور اليه أقرب والواسطة بينهما أقل ، تكون مناسبة له اتم وشوقه الى الاتصاف بكماله أشد . ولا ريب في ان الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الأمر مقتبسة من مشكاة نوره ، فلها غاية القرب اليه في سلسلة الصدور ، فتكون شديدة الشوق الى الاتصاف بنحو كماله . والنفس الانسانية لكونها منها ومن عالم الأمر – كما قال الله تعالى – :

« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (١)

تكون مثلها في القرب اليه تعالى أو في المناسبة له ، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء ، وليس ذلك مذموماً ، إذ ينبغي لكل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له ، وسعادة دائمة لا نفاد لها ، وبقاء لا فناء فيه ، وعزاً لا ذل معه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنى لا فقر معه ، وكمالا لا نقصان فيه . وهذه كلها من أوصاف الربوبية ، وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة .

فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء إنما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب تغرير اللعين المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسدها على كونها من عالم الأمر ،

(١) الاسراء ، الآية : ٨٥ .

فأضلها وأغواها من طريق العجلة ، فزين فى نظره الملك الفانى المشوب بانواع الآلام ، لكونه عاجلا ، وصده عن الملك المخلد الدائم الذى لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع ، لكونه آجلا . والمسكين المخذول ابن آدم لما خلق عجولا راغباً فى العاجلة ، لما جاءه المطرود من عالم الأمر ، وتوسل اليه بواسطة العجلة التى فى طبعه ، واستغواه بالعاجلة ، وأمال قلبه الى عدم الاعتناء بالآجلة ، وزين له الحاضرة . ووعده بالغرور وبالتمنى على الله فى باب الآخرة ، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها ، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها ، ولم يتأمل المسكين فى أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالا ولا علواً واستيلاء فى الحقيقة ، بل هو صفة نقص يصده عن الكمال الحقيقى والرئاسة المعنوية . مثال ذلك : أنه لا ريب فى أن الحب والعشق صفة كمال ، ولكن اذا وقع فى موقعه ، وذلك إذا كان المحبوب شريفاً كاملا فى ذاته وصفاته ، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية ، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية ، فكل من كان جاهلا بحقائق الأمور ينخدع بغروره ، ويختار الملك العاجل الفانى على السلطنة الآجلة الباقية ، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره . إذ علم مداخل مكره ، فاعرض عن العاجلة واختار الآجلة .

ولما استطار مكر اللعين فى كافة الخلق ، أرسل الله اليهم الانبياء ، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازى الذى لا أصل له ولا دوام إن سلم الى الملك الحقيقى الذى لا زوال له أصلا ، فنادوا فيهم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ

الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ » (١).

وذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية ، كما قال سبحانه : « إِنَّ هٰؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً » (٢). وقال : « كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ » (٣).

فالغرض من بعثه الرسل ليس إلا دعوة الخلق الى الملك المخلد ، ليكونوا ملوكا فى الآخرة بسبب القرب من الله تعالى ، ودرك بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل معه ، وقرة عين أخفيت لا يعلمها أحد . والشيطان يدعوهم من طريق العجلة الى ملك الدنيا الفانى ، لعلمه بأن ما سمى ملك الدنيا ، مع انه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم فى التدبيرات ، يفوت به ملك الآخرة ، إذ الدنيا والآخرة ضرتان . بل يفوت به الملك الحاضر الذى هو الزهد فى الدنيا ، إذ معناه ان يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان . وهذا ملك بالاستحقاق ، إذ به يصير صاحبه حراً ، وباستيلاء الشهوة يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر اعضائه ، فيكون مسخراً مثل البهيمة ، مملوكا يسخره زمام الشهوة ، آخذ المخنقة الى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الانسان ، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا ، وينال الربوبية بأن يصير عبداً . ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً فى الدنيا منكوساً فى الآخرة ؟. فقد ظهر أن منشأ الخسران فى الدنيا والآخرة هو العجلة .

---

(١) التوبة ، الآية : ٣٨ .

(٢) الدهر ، الآية : ٢٧ .

(٣) القيامة ، الآية : ٢٠ — ٢١ .

والطريق فى علاجها : أن يتذكر فسادها ، وسوء عاقبتها ، وايجابها للخفة والمهانة عند الناس ، وتأديتها الى الندامة والخسران . ثم يتذكر شرافة الوقار الذى هو ضده ، وكونه صفة الأنبياء والأخيار . فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلا إلا بعد التأمل والمهلة ، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطناً وظاهراً فى جميع أفعاله وسكناته ، فاذا فعل ذلك مدة ، ولو بالتكلف والتعمل ، يصير ذلك عادة له ، فتزول عنه هذه الصفة ، وتحدث صفة الوقار والسكينة .

وصل

(الاناة والتوقف والوقار والسكينة)

ضد العجلة ﴿ الاناة ﴾ (١) ، وهو المعنى الراتب فى القلب ، الباعث على الاحتياط فى الامور والنظر فيها ، والتأنى فى اتباعها والعمل بها .

ثم ﴿ التوقف ﴾ قريب من التأنى والأناة ، والفرق بينهما : أن التوقف هو السكون قبل الدخول فى الامور حتى يستبين له رشدها ، والتأنى سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها ، حتى يؤدى لكل جزء منها حقه ، وضد التوقف والتعسف .

و ﴿ الوقار ﴾ يتناول الأناة والتوقف كليهما ، فهو طمأنينة النفس وسكونها فى الأقوال والأفعال والحركات قبل الدخول فيها وبعده . وهو من نتائج قوة النفس وكبرها . وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته فى الشرافة . ولذا يمدح به الانبياء والأصفياء ، وورد فى الأخبار : « ان المؤمن متصف به ألبتة » . فينبغى لكل مؤمن أن يتكلف آثاره فى الحركات

(١) فى النسخ (الاناءة) ، فصححناه كما هنا .

والافعال ، حتى يصير بالتدريج ملكة ، وتكلف الطمأنينة في الأفعال والحركات قبل أن تصير ملكة يختص باسم الوقار ، واذا صارت ملكة سميت سكينة ، إذ هي طمأنينة الباطن ، والوقار اطمئنان الظاهر .

ومنها :

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس ، إذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه ، وقد يترتب عليه الخوف والغم ، وهو من المهلكات العظيمة ، وقد قال الله سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » (١) . وقال تعالى : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » (٢) . وقال : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً » (٣) .

وقال امير المؤمنين عليه السلام : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملا » . ولا ريب في أن من حكم بظنه على غيره بالشر . بعثه الشيطان على أن يغتابه أو يتوانى في تعظيمه وإكرامه ، أو يقصر فيما يلزمه من القيام بحقوقه ، أو ينظر اليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه . وكل ذلك من

(١) الحجرات ، الآية : ١٢ .
(٢) فصلت ، الآية : ٢٣ .
(٣) الفتح ، الآية : ١٢ .

المهلكات . على أن سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته ، كما أن حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته ، فكل من يسيء الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد ، وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن ، فالمؤمن يظهر محاسن أخيه ، والمنافق يطلب مساويه ، وكل إناء يترشح بما فيه .

والسر فى خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان : أن اسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لأحد أن يعتقد فى حق غيره سوءاً إلا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل ، إذ حينئذ لا يمكنه ألا يعتقد ما شاهده وعلمه ، وأما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع فى قلبه ، فالشيطان ألقاه اليه ، فينبغى أن يكذبه ، لأنه أفسق الفسقة . وقد قال الله :

«إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ» (١).

فلا يجوز تصديق اللعين فى نبأه ، وإن حف بقرائن الفساد ، ما احتمل التأويل والخلاف . فلو رأيت عالماً فى بيت أمير ظالم لا تظنن أن الباعث طلب الحطام المحرمة ، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم . ولو وجدت رائحة الخمر فى فم مسلم فلا تجزمن بشرب الخمر ووجوب الحد ، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه ، أو شربه اكراهاً وقهراً . فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال ، وهو صريح المشاهدة ، أو قيام بينة فاضلة .

ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم ، وجب عليك أن تتوقف فى

(١) الحجرات ، الآية : ٦ .

إخباره من غير تصديق ولا تكذيب ، إذ لو كذبته لكنت خائناً على هذا العدل ، إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضاً من سوء الظن ، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة ، فترد شهادته . ولو صدقته لكنت خائناً على المسلم المخبر عنه ، إذ ظننت به السوء ، مع احتمال كون العدل المخبر ساهياً ، أو التباس الأمر عليه بحيث لا يكون فى اخباره بخلاف الواقع آثماً وفاسقاً . وبالجملة : لا ينبغى أن تحسن الظن بالواحد وتسيء بالآخر ، فتذكر المذكور حاله على ما كان فى الستر والحجاب ، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع ، ولا بحجة شرعية يجب قبولها ، وتحمل خبر العدل على امكان تطرق شبهة بجوزة الإخبار ، وإن لم يكن مطابقاً للواقع .

ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس ، بل الشك أيضاً ، إذ المنهى عنه فى الآيات والأخبار إنما هو ان يظن . والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس اليه . والامارات التى بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس ، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألف والمحبة الى الكراهة والنفرة ، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة فى المعاشرات الى خلافها . والدليل على ان المراد هو ما ذكر ، قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « ثلاث فى المؤمن لاتستحسن وله منهن مخرج . فمخرجه من سوء الظن ألا يحققه » ، أى لا يحقق فى نفسه بعقد ولا فعل ، لا فى القلب ولا فى الجوارح .

ثم لكون سوء الظن من المهلكات ، منع الشرع من التعرض للتهمة ، صيانة لنفوس الناس عنه ، فقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « إتقوا مواقع التهم » . وقال امير المؤمنين عليه السلام : « من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن » . وروى : « انه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يكلم زوجته صفية

بنت حي ابن أخطب ، فمر به رجل من الأنصار ، فدعاه رسول الله ، وقال : يا فلان ! هذه زوجتي صفية . فقال : يا رسول الله ! أفنظن بك إلا خيراً ؟ قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فخشيت أن يدخل عليك » . فانظر كيف أشفق رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على دينه فحرسه ، وكيف علم الامة طريق الاحتراز عن التهمة ، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أن الناس لا يظنون به إلا خيراً ، اعجاباً منه بنفسه ، فان ما لا جزم بتحققه فى حق سيد الرسل وأشرفهم ، فكيف يجزم بتحققه فى حق غيره ، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ . والسر فى ذلك : أن أورع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة ، بل إن نظر اليه بعضهم بعين الرضا ينظر اليه بعض آخر بعين السخط :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فكل عدو وحاسد لا ينظر إلا بعين السخط ، فيكتم المحاسن ويطلب المساوى ، وكل شرير لا يظن بالناس كلهم إلا شراً ، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب أن يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم ، لأن البلية إذا عمت هانت ، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه . فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس فى المعصية بسوء الظن ، فيكون شريكا فى معصيتهم ، إذ كل من كان سبباً لمعصية غيره يكون شريكا له فى هذه المعصية . ولذا قال الله تعالى :

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » (١) .

(١) الانعام ، الآية : ١٠٨ .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « كيف ترون من يسب ابويه ؟ ! فقالوا : هل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : نعم ! يسب أبوَي غيره فيسبون أبويه » .

ثم طريق المعالجة في ازالته ـ بعد تذكر ما تقدم من فساده وما يأتي من فضيلة ضده ـ : أنه اذا خطر لك خاطر سوء على مسلم ، لا تتبعه ، ولا تحققه ، ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة اليه ، من المراعاة والتفقد والاكرام والاعتماد بسببه ، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته واعظامه وتدعو له بالخير ، فان ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلق اليك خاطر السوء خوفاً من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام . ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصحه في السر ولا تبادر الى اغتيابه ، واذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه ، لتنظر اليه بعين الحقارة ، مع أنه ينظر اليك بعين التعظيم ، بل ينبغي أن يكون قصدك استخلاصه من الاثم ، وتكون محزوناً كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان ، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب اليك من تركه بنصيحتك ، واذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته واجر الحزن بمصيبته واجر الاعانة على آخرته .

وصل

(حسن الظن)

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما) . ولما كان الأول من لوازم ضعف النفس وصغرها ، فالثاني من نتائج قوتها وثباتها ، وفوائده أكثر من أن تحصى ، وقد تقدمت الظواهر الواردة في مدحه ، فينبغي لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله ، ولا يظن أنه لا يرحمه

ويعذبه ألبتة ولا يخلصه من العقاب ، وأن ما يرد عليه فى الدنيا من البلايا والمصائب هو شر له وعقوبة ، بل ينبغى أن يعلم أنه أرحم وأرأف به من والديه ، وإنما خلقه لأجل الفيض والجود ، فلابد أن يرحمه فى دار الآخرة، ويخلصه من عذاب الأبد ويوصله الى نعيم السرمد ، وما يرد عليه من المصائب والبلايا فى دار الدنيا خير له وصلاح ، وذخيرة له فى يوم المعاد .

وكذا لا يظن السوء والشر بالمسلمين ، ولا يحملن ماله وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد ، بل يجب أن يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها ، ما لم يجزم بفساده ، ويكذب وهمه وسائر حواسه ، فيما يذهب اليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة ، ويكلف نفسه على ذلك ، حتى يصير ذلك ملكة له ، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية . نعم ، الحمل على الوجه الصحيح على تقدير عدم مطابقته للواقع ، لو كان باعثاً لضرر مالى أو فساد دينى أو عرضى ؛ لزم فيه الحزم والاحتياط ، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه ، لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار ، وتلزمه الفضيحة والعار .

ومنها :

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة، ومبدؤه شهوة الانتقام ، وهو من جانب الافراط ، واذا اشتد يوجب حركة عنيفة ، يمتلىء لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم ، فيستر نور العقل ويضعف فعله ، ولذا لا يؤثر فى صاحبه الوعظ والنصيحة ، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة . قال بعض علماء الأخلاق : « الغضب شعلة نار اقتبست من نار

الله الموقدة ، إلا أنها لا تطلع إلا على الافئدة ، وأنها لمستكنة فى طى الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين ، التى لها عرق الى الشيطان اللعين ، حيث قال :

« خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١) .

فمن شأن الطين السكون والوقار ، ومن شأن النار التلظى والاستعار .

ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها إما الى دفع المؤذيات إن كان قبل وقوعها ، أو الى التشفى والانتقام إن كان بعد وقوعها ، فشهوتها الى أحد هذين الأمرين ولذتها فيه ، ولا تسكن إلا به . فان صدر الغضب على من يقدر أن ينتقم منه ، واستشعر باقتداره على الانتقام ، انبسط الدم من الباطن الى الظاهر ، واحمر اللون ، وهو الغضب الحقيقى . وإن صدر على من لا يتمكن أن ينتقم منه لكونه فوقه ، واستشعر باليأس عن الانتقام ، انقبض الدم من الظاهر الى الباطن ، وصار حزناً . وإن صدر على من يشك فى الانتقام منه انبسط الدم تارة أو انقبض أخرى ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

فصل

(الافراط والتفريط والاعتدال فى قوة الغضب)

الناس فى هذه القوة على افراط وتفريط واعتدال . فالافراط : أن تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما ، ولا تبقى له فكرة وبصيرة . والتفريط : أن يفقد هذه القوة أو تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغى الغضب عليه شرعا وعقلا . والاعتدال : أن يصدر غضبه فيما ينبغى

---

(١) الاعراف ، الآية : ١٢ . وص ، الآية : ٧٦

ولا يصدر فى ما لا ينبغى ، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل ، بل يكون تابعاً لهما فى الغضب وعدمه ، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما . ولا ريب فى أن الاعتدال ليس مذموماً ، ولا معدوداً من الغضب ، بل هو من الشجاعة . والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة ، وربما كان أخبث من الغضب ، إذ الفاقد لهذه القوة لا حمية له ، وهو ناقص جداً . ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس ، والجور ، وتحمل الذل من الاخساء ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والفحشاء . ولذا قيل : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » (١) . وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة ، فقال :

« أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » (٢)

وخاطب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقوله :

« وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » (٣)

والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب ، ففقد هذه القوة بالكلية أو ضعفها مذموم . وقد ظهر أن الغضب المعدود من الرذائل هو حد الافراط الذى يخرجه عن مقتضى العقل والدين ، وحد التفريط وإن كان رذيلة إلا أنه ليس غضباً ، بل هو ضد له معدود من الجبن ، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة ، فانحصر الغضب بالأول .

ثم الناس كما هم مختلفون فى أصل قوة الغضب ، كذلك مختلفون فى حدوثه وزواله سرعة وبطأ ، فيكونان فى بعضهم سريعين ، وفى بعضهم بطيئين وفى بعضهم يكون أحدهما سريعاً والآخر بطيئاً ، وفى بعضهم يكون كلاهما

---

(١) هذه الكلمة منسوبة للشافعى ـ على ما فى احياء العلوم : ج ٣ ص ١٤٥ و ١٥٦ ـ .

(٢) الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٣) التوبة ، الآية : ٧٣ .

أو أحدهما متوسطاً بين السرعة والبطء . وما كان من ذلك باشارة العقل فهو ممدوح معدود من أوصاف الشجاعة ، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب أو الجبن .

فصل

(الغضب)

(الغضب) من المهلكات العظيمة ، وربما أدى الى الشقاوة الأبدية ، من القتل والقطع ، ولذا قيل : (إنه جنون دفعي) . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الحدة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فان لم يندم فجنونه مستحكم » . وربما أدى الى اختناق الحرارة ، ويورث الموت فجأة . وقال بعض الحكماء : « السفينة التي وقعت فى اللجج الغامرة ، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الأمواج الهائلة ، أرجى الى الخلاص من الغضبان الملتهب » . وقد ورد به الذم الشديد فى الأخبار ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل » . وقال الباقر عليه السلام : « إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد فى قلب ابن آدم ، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه ، فاذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض ، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك » . وقال الصادق عليه السلام : « وكان أبي عليه السلام يقول : أى شيء أشد من الغضب ؟ إن الرجل يغضب فيقتل النفس التي حرم الله ، ويقذف المحصنة » . وقال عليه السلام (١) : « إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار » . وقال الصادق عليه السلام :

(١) أي : الباقر ـ عليه السلام ـ وقد روى هذه الاخبار المذكورة هنا الكافى فى باب الغضب ، فروى هذا الخبر عنه ـ عليه السلام ـ لا عن الصادق ـ عليه السلام ـ .

« الغضب مفتاح كل شر » . وقال ﷺ : « الغضب ممحقة لقلب الحكيم » . وقال ﷺ : « من لم يملك غضبه لم يملك عقله » .

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة ، والاغراض المضرة القبيحة: انطلاق اللسان بالشتم والسب، واظهار السوء والشماتة بالمساءة وإفشاء الاسرار وهتك الاستار والسخرية والاستهزاء ،وغير ذلك من قبيح الكلام الذى يستحيي منه العقلاء ،وتوثب الأعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل، وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ومما تلزمه :الندامة بعد زواله ، وعداوة الأصدقاء ، واستهزاء الاراذل ، وشماتة الأعداء ، وتغير المزاج ، وتألم الروح وسقم البدن ، ومكافاة العاجل وعقوبة الآجل .

والعجب ممن توهم أن شدة الغضب من فرط الرجولية،مع أن ما يصدر عن الغضبان من الحركات القبيحة إنما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين ، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة ، من الشتم والسب بالنسبة الى الشمس ، والقمر ، والسحاب ، والمطر ، والريح ، والشجر ، والحيوانات والجمادات ، وربما يضرب القصعة على الأرض ، ويكسر المائدة ، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء ، واذا عجز عن التشفي ، ربما مزق ثوبه ، ولطم وجهه ، وقد يعدو عدو المدهوش المتحير ، وربما اعتراه مثل الغشية ، أو سقط على الأرض لا يطيق النهوض والعدو . وكيف يكون مثل هذه الأفعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « الشجاع من يملك نفسه عند غضبه » .

فصل

(امكان إزالة الغضب وطرق علاجه)

قد اختلف علماء الأخلاق فى إمكان إزالة الغضب بالكلية وعدمه، فقيل: قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن، لأنه مقتضى الطبع، إنما الممكن كسر سورته وتضعيفه، حتى لا يشتد هيجانه. وأنت خبير بأن الغضب الذى يلزم إزالته هو الغضب المذموم، إذ غيره مما يكون باشارة العقل والشرع ليس غضباً فيه كلامنا، بل هو من آثار الشجاعة، والاتصاف به من اللوازم، وان اطلق عليه اسم الغضب أحياناً حقيقة أو مجازاً، كما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كان النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يغضب للدنيا، وإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له». ولا ريب أن الغضب الذى يحصل لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يكن غضباً مذموماً، بل كان غضباً ممدوحاً يقتضيه منصب النبوة، وتوجيه الشجاعة النبوية. ثم الغضب المذموم ممكن الزوال، ولولا امكانه لزم وجوده للانبياء والأوصياء، ولا ريب فى بطلانه.

ثم علاجه يتوقف على امور، وربما حصل ببعضها:

(الأول) إزالة أسبابه المهيجة له، إذ علاج كل علة بحسم مادتها، وهى: العجب، والفخر، والكبر، والغدر، واللجاج، والمراء، والمزاح، والاستهزاء، والتعيير، والمخاصمة، وشدة الحرص على فضول الجاه والاموال الفانية، وهى باجمعها أخلاق رديه مهلكة، ولا خلاص من الغضب مع بقائها، فلابد من ازالتها حتى تسهل إزالته.

(الثانى) أن يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته، وما ورد فى الشريعة

من الذم عليه، كما تقدم.

(الثالث) أن يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارده، ويتأمل فيما ورد من فوائد عدم الغضب، كقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة». وقول الباقر ﷺ: «مكتوب في التوراة: فيما ناجى الله به موسى: أمسك غضبك عمن ملكتك عليه أكف عنك غضبي». وقول الصادق ﷺ: «أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه: يا ابن آدم! اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي، ولا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك، فان انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك». وقوله ﷺ: «سمعت أبي يقول: أتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رجل بدوي، فقال: إني اسكن البادية، فعلمني جوامع الكلم. فقال: آمرك ألا تغضب. فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات، حتى رجع الرجل الى نفسه، فقال: لا أسأل عن شيء بعد هذا، ما أمرني رسول الله - صلى الله عليه وآله - إلا بالخير». وقوله ﷺ: «إن رسول الله - صلى الله عليه وآله - أتاه رجل، فقال: يا رسول الله! علمني عظة أتعظ بها، فقال له: انطلق ولا تغضب، ثم عاد عليه، فقال له: انطلق ولا تغضب.. ثلاث مرات». وقوله ﷺ: «من كف غضبه ستر الله عورته»... الى غير ذلك من الأخبار.

(الرابع) أن يتذكر فوائد ضد الغضب، أعني الحلم وكظم الغيظ، وما ورد من المدح عليهما في الأخبار - كما يأتي - ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف، فيتحلم وإن كان في الباطن غضباناً، واذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس، فتنقطع عنها أصول الغضب.

(الخامس) أن يقدم الفكر والروية على كل فعل أو قول يصدر عنه،

ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه .

(السادس) أن يحترز عن مصاحبة أرباب الغضب ، والذين يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقولون : نحن لا نصبر على كذا وكذا ، ولا نحتمل من أحد أمراً . ويختار مجالسة أهل الحلم ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس .

(السابع) أن يعلم أن ما يقع إنما هو بقضاء الله وقدره ، وأن الأشياء كلها مسخرة فى قبضة قدرته ، وأن كل ما فى الوجود من الله ، وأن الأمر كله لله ، وأن الله لا يقدر له ما فيه الخيرة ، وربما كان صلاحه فى جوعه ، أو مرضه ، أو فقره ، أو جرحه أوقتله ، أو غير ذلك . فاذا علم بذلك غلب عليه التوحيد ، ولا يغضب على أحد ، ولا يغتاظ عما يرد عليه ، إذ يرى - حينئذ - أن كل شيء فى قبضة قدرته أسير ، كالقلم فى يد الكاتب . فكما أن من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم ، فكذلك من عرف الله وعلم أن هذا النظام الجلى صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة ، ولو تغيرت ذرة منه عما هى عليه خرجت عن الأصلحية ، لا يغضب على أحد ، إلا أن غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول اليه من الله الاكبر . ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف ، ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعاً طبيعياً ، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور لفرق الأنبياء ، مع أن التفاتهم فى الجملة الى الوسائط مما لا يمكن انكاره .

(الثامن) أن يتذكر أن الغضب مرض قلب ونقصان عقل ، صادر عن ضعف النفس ونقصانها ، لا عن شجاعتها وقوتها ، ولذا يكون المجنون أسرع غضباً من العاقل ، والمريض أسرع غضباً من الصحيح . والشيخ الهرم أسرع

غضباً من الشاب، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ،وصاحب الأخلاق السيئة والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، والبخيل يغاظ لبخله إذا فقد الحبة ، حتى يغضب لفقد أدنى شيء على أعزة أهله وولده . والنفس القوية المتصفة بالفضيلة أجل شأناً من أن تتغير وتضطرب لمثل هذه الامور ، بل هي كالطود الشاهق لاتحركه العواصف ، ولذا قال سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر الى طبقات الناس الموجودين ، ثم ارجع الى كتب السير والتواريخ ، واستمع الى حكايات الماضين ، حتى تعلم : أن الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الأنبياء والحكماء وأكابر الملوك والعقلاء ، والغضب خصلة الجهلة والأغبياء .

(التاسع) أن يتذكر أن قدرة الله عليه أقوى وأشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه ، وهو أضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته ، فليحذر ، ولم يأمن اذا أمضى غضبه عليه أن يمضي الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة ، وقد روى : « أنه ما كان في بني اسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : (ارحم المساكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة) ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه » . وفي بعض الكتب الإلهية : « يا ابن آدم ! اذكرني حين تغضب اذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق » (١) .

---

(١) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق ـ عليه السلام ـ بهذه العبارة : « إن في التوراة مكتوبا : يا بن آدم ! اذكرني حين تغضب اذكرك عند غضبي ، فلا امحقك فيمن أمحق . . . » وقد تقدم مثله ص ٢٩١ .

(العاشر) أن يتذكر أن من يمضى عليه غضبه ربما قوى وتشمر لمقابلته ، وجرد عليه لسانه باظهار معائبه والشماتة بمصائبه ، ويؤذيه فى نفسه وأهله وماله وعرضه .

(الحادى عشر) أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه الى الغيظ والغضب ، فان كان خوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس ، فليتنبه ان الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة ، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها ، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتها . وأضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها . فدفع الغضب عن نفسه لا يخرجه من كبر النفس فى الواقع ، ولو فرض خروجه به منه فى أعين جهلة الناس فلا يبالى بذلك ، ويتذكر أن الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض اراذل البشر أولى من خزى يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر . وإن كان السبب خوف أن يفوت منه شىء مما يحبه ، فليعلم أن ما يحبه ويغضب لفقده إما ضرورى لكل أحد ، كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن ، وهو الذى أشار اليه سيد الرسل ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقوله : « من أصبح آمناً فى سربه ، معافى فى بدنه ، وله قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها » . أو غير ضرورى لأحد ، كالجاه والمنصب وفضول الأموال . أو ضرورى لبعض الناس دون بعض ، كالكتاب للعالم ، وأدوات الصناعات لأربابها . ولا ريب أن كل ماليس من هذه الاقسام ضروريا فلا يليق أن يكون محبوباً عند أهل البصيرة وذوى المروات ، إذ مالا يحتاج اليه الانسان فى العاجل لابدله من تركه فى الآجل ، فما بال العاقل أن يحبه ويغضب لفقده ، واذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم ألبتة . وأما ما هو ضرورى للكل أو البعض ، وإن كان الغضب والحزن من فقده مقتضى الطبع لشدة الاحتياج

اليه . إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن ما فقد عنه من الأشياء الضرورية إن امكن رده والوصول اليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب أيضاً ،وإن لم يمكن لم يمكن معهما أيضاً . وعلى أى حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لا ثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل ، وحينئذ لا يغضب ، وان غضب يدفعه عن نفسه بسهولة .

(الثانى عشر) أن يعلم ان الله يحب منه ألا يغضب . والحبيب يختار البتة ما يحب محبوبه ، فإن كان محباً لله فليطفىء شدة حبه له غضبه .

(الثالث عشر) أن يتفكر فى قبح صورته وحركاته عند غضبه ، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب .

(تتميم)

اعلم أن بعض المعالجات المذكورة يقتضى قطع أسباب الغضب وحسم مواده ، حتى لا يهيج ولا يصدر ، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه إذا صدر وهاج . ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس إن كان قائماً ، والاضطجاع إن كان جالساً ، والوضوء أو الغسل بالماء البارد . وإن كان غضبه على ذى رحم فليدن منه وليمسه ، فان الرحم إذا مست سكنت ، كما ورد فى الأخبار (١) .

وصل

(فضيلة الحلم وكظم الغيظ)

قد عرفت أن الحلم هو طمأنينة النفس، بحيث لايحركها الغضب بسهولة ولا يزعجه المكروه بسرعة ،فهو الضد الحقيقى للغضب،لأنه المانع من حدوثه،

(١) روى ذلك فى الكافى فى باب الغضب عن الباقر — عليه السلام — .

وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه ، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضاً ضداً له . فنحن نشير الى فضيلة الحلم وشرافته، ثم الى فوائد كظم الغيظ ومنافعه ، ليجتهد طالب إزالة الغضب فى الاتصاف بالأول ، فلا يحدث فيه أصلاً ، وبالثانى ، فيدفعه عند هيجانه . فنقول :

أما (الحلم) — فهو أشرف الكمالات النفسية بعد العلم ، بل لا ينفع العلم بدونه أصلاً ، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به ، قال رسول - صلى الله عليه وآله وسلم -: « اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « خمس من سنن المرسلين » . .. وعد منها الحلم . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ابتغوا الرفعة عند الله » . قالوا : وما هى يا رسول الله !؟ قال : « تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله يحب الحيي الحليم ،ويبغض الفاحش البذى» .وقال - صلى الله عليه وآله وسلم-: « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصى الله . وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به فى الناس » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا جمع الخلائق يوم القيامة ، نادى مناد : أين أهل الفضل ؟فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون سراعاً الى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إنا نراكم سراعاً الى الجنة ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل . فيقولون : ما كان فضلكم ؟ فيقولون : كنا إذا ظُلمنا صبرنا ، واذا اسيء الينا عفونا ، واذا جهل علينا حلمنا . فقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما أعز الله بجهل قط ، ولا أذل بحلم قط » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « ليس الخير أن يكثر مالك

وولدك . ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك » . وقال علي بن الحسين — عليهما السلام — : « إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه » . وقال الصادق ﷺ : « كفى بالحلم ناصراً » . وقال ﷺ : « وإذا لم تكن حليماً فتحلّم » . وقال ﷺ : « اذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان ، فيقولان للسفيه منهما : قلت وقلت وأنت أهل لما قلت ، وستجزى بما قلت . ويقولان للحليم منهما : صبرت وحلمت سيغفر لك إن اتممت ذلك . قال ﷺ : فان ردّ الحليم عليه ارتفع الملكان » . وبعث ﷺ غلاماً له في حاجة فأبطأ ، فخرج على اثره فوجده نائماً ، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه ، فقال له : « يا فلان ! والله ما ذلك لك ! تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار » . وقال الرضا ﷺ : « لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً » .

وأما (كظم الغيظ) — فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة ، لأنه التحلم : أي تكلف الحلم ، إلا انه اذا واظب عليه حتى صار معتاداً تحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي ، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج الى كظمه . ولذا قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » . فمن لم يكن حليماً بالطبع لابد له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه ، حتى تحصل له صفة الحلم . وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه ، وتواترت الأخبار على شرافته وعظم اجره . قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « من كظم غيظاً ولو شاء ان يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً » (١) . وقال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ما جرع عبد جرعة أعظم اجراً من جرعة غيظ كظمها إبتغاء وجه الله تعالى » . وقال — صلى الله عليه وآله وسلم — : « ان لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى » .

---

(١) روى الحديث الكافي في باب كظم الغيظ عن ابي عبدالله — عليه السلام — .

وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق ، حتى يخير من أي الحور شاء » (١). وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من أحب السبيل (٢) الى الله تعالى جرعتان : جرعة غيظ يردها بحلم ، وجرعة مصيبة يردها بصبر » . وقال سيد الساجدين ﷺ : « وما تجرعت جرعة أحب إلى من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها » . وقال الباقر ﷺ : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه ، حشا الله تعالى قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة » . وقال ﷺ لبعض ولده (٣) : « يابني ! مامن شيء اقرّ لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر ، وما يسرّني أن لي بذل نفسي حمر النعم » . وقال الصادق ﷺ : « نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها ، فان عظيم الأجر البلاء ، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم » . وقال ﷺ : « ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله ـ عز وجل ـ عزاً في الدنيا والآخرة » وقد قال الله ـ عز وجل ـ :

« وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (٤) .

---

(١) صححنا هذا الحديث على ما في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ ـ في باب الحلم) رواه عن جامع الأخبار للشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسي . وفيه اختلاف كثير عما في نسخ جامع السعادات .

(٢) كذا وجدنا الحديث في البحار والكافي ونسخ جامع السعادات . والظاهر أن الاصح (السبل) .

(٣) في الكافي في باب كظم الغيظ روي هذا الحديث هكذا : « عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال: قال لي أبي : يابني ! ما من شيء . . . » الى آخر الحديث ، فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر ـ عليهما السلام ـ .

(٤) آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

وأثابه الله مكان غيظه ذلك ». وقال أبو الحسن الأول عليه السلام: « اصبر على اعداء النعم، فانك لن تكافى من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه ».

ومنها :

الانتقام

بمثل مافعل به، أو بالأزيد منه - وإن كان محرّماً ممنوعاً من الشريعة - وهو من نتائج الغضب، إذ كل انتقام ليس جائزاً، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، والفحش بالفحش، والبهتان بالبهتان، والسعاية الى الظلمة بمثلها... وهكذا في سائر المحرمات. قال سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن امرؤ عيّرك بما فيك فلا تعيّره بما فيه ». وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « المستبان شيطانان يتهاتران ». وقد ورد: أن رجلاً شتم ابا بكر بحضرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ساكت، فلما ابتدأ لينتصر منه، قام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال مخاطباً له: « إن الملك كان يجيب عنك، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم اكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان ».

فكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة الى غيره ظلماً، إن كان له في الشرع قصاص وغرامة، فيجب ألا يتعدى عنه، وإن كان العفو عن الجائر أيضاً أفضل وأولى وأقرب الى الورع والتقوى، وان لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة، وجب أن يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفي على ما ليس فيه حرمة ولا كذب، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الأذايا التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة، بقوله: يا قليل الحياء! ويا سيء الخلق! ويا صفيق الوجه!... وامثال ذلك، اذا كان متصفاً بها. ومثل

قوله : جزاك الله وانتقم منك ! ومن أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ ومثل قوله : يا جاهل ! ويا أحمق ! . وهذا ليس فيه كذب مطلقاً ، اذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق ، (أما الأول) فظاهر ، (وأما الثانى) فلما ورد من أن الناس كلهم حمق فى ذات الله .

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام ، قول النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم » (١) . وقول الكاظم عليه السلام فى رجلين يتسابان : « البادىء منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه مالم يتعد المظلوم » (٢) . وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادىء من دون وزر مالم يتعد ، ومعلوم ان المراد بالسب فيهما امثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة ، ولا ريب فى ان الاقتصار على مجرد ما وردت به الرخصة بعد الشروع فى الجواب مشكل ، ولعل السكوت عن اصل الجواب وحوالة الانتقام الى رب الارباب أيسر وأفضل، مالم يؤد الى فتور الحمية والغيرة، إذ أكثر الناس لا يقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب ، لاختلاف حالهم فى حدوث الغضب وزواله . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى : منهم بطىء الغضب سريع الفىء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفىء ، فتلك بتلك . ومنهم سريع الغضب بطىء الفىء ، ومنهم بطىء الغضب بطىء الفىء . ألا وإن خيرهم البطىء الغضب السريع الفىء ، وشرهم السريع الغضب البطىء الفىء » . وقد ورد فى خبر آخر : « إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ، فهذه بتلك » .

---

(١) صححنا الحديث على ما فى احياء العلوم (ج ٣ ص ١٠٦) وعلى نسختنا الخطية . وفى المطبوعة : « حتى يعتذر الى المظلوم » .

(٢) صححنا الحديث على ما فى اصول الكافى فى باب السفه . وفى نسختنا الخطية والمطبوعة : « مالم يعتذر الى المظلوم » .

ثم طريق العلاج فى ترك الانتقام : أن يتنبه على سوء عاقبته فى العاجل والآجل ، ويتذكر فوائد تركه ، ويعلم أن الحوالة الى المنتقم الحقيقى أحسن وأولى،وأن انتقامه أشد وأقوى، ثم يتأمل فى فوائد العفو وفضيلته، كما يأتى:

وصل

(العفو)

ضد الانتقام (العفو) ،وهو إسقاط ما يستحقه من قصاص أو غرامة، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر ، والآيات والأخبار فى مدحه وحسنه اكثر من أن تحصى ، قال الله تعالى سبحانه :

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » (١) . وقال : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا » (٢) . وقال : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ » (٣) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ثلاث والذى نفسى بيده إن كنت حالفاً لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال فتصدّقوا ، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ، ولافتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « العفو لا يزيد العبد إلا عزاً ، فاعفوا يعزكم الله » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعقبة : « ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل

(١) الاعراف ، الآية: ١٩٩ .

(٢) النور ، الآية :٢٢ .

(٣) البقرة، الآية : ٢٣٧ .

الدنيا والآخرة: تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»(١). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «قال موسى : يارب ! أى عبادك أعز عليك ؟ قال : الذى إذا قدر عفى» . وقال سيد الساجدين عليه السلام «إذا كان يوم القيامة ، جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ثم ينادى مناد : أين أهل الفضل ؟ قال : فيقوم عنق من الناس ، فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : وما فضلكم ؟ فيقولون : كنا نصل من قطعنا ، ونعطى من حرمنا ، ونعفو عمن ظلمنا ، قال : فيقال لهم : صدقتم ، ادخلوا الجنة» . وقال الباقر عليه السلام : «الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة» . وقال الصادق عليه السلام : «ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمن ظلمك ...» الى آخر الحديث. وقال ابو الحسن عليه السلام «ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفواً» . وكفى للعفو فضلاً وشرافة أنه من اجمل الصفات الإلهية ، وقد يمدح الله تعالى به فى مقام الخضوع والتذلل ، قال سيد الساجدين عليه السلام : «أنت الذى سميت نفسك بالعفو ، فاعف عنى» . وقال عليه السلام : «أنت الذى عفوه أعلى من عقابه» .

ومنها :

العنف

وهو الغلظة والفظاظة فى الأقوال أو الحركات أيضاً ، وهو من نتائج الغضب ، وضده (الرفق) ، أى اللين فيهما ، وهو من نتائج الحلم . ولا ريب فى أن الغلظة فى القول والفعل ينفر الطباع ويؤدى الى اختلال أمر المعاش والمعاد ، ولذلك نهى الله - سبحانه - نبيه عنه فى مقام الارشاد ، وقال :

(١) فى اصول الكافى فى باب العفو : «ألا أدلكم على خير اخلاق الدنيا والآخرة : تصل من قطعك . . .» الى آخر الحديث .

« وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » (١).

وروى عن سلمان : « أنه قال : اذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء، فاذا نزع منه الحياء، لم يلقه إلا خائناً مخوناً ، واذا كان خائناً مخوناً نزعت منه الأمانة ، فاذا نزعت منه الأمانة لم يلقه إلا فظاً غليظاً ، فاذا كان فظاً غليظاً نزعت منه ربقة الايمان، فاذا نزعت منه ربقة الايمان لم يلقه إلا شيطاناً ملعوناً ».

ويظهر من هذا الكلام أن من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة ، فيجب على كل عاقل ان يجتنب عن ذلك كل الاجتناب ، ويقدم التروى على كل ما يصدر عنه من القول والفعل ، ليحافظ نفسه عن التعنف والغلظة فيه ، ويتذكر ما ورد فى فضيلة الرفق ، ويرتكبه فى حركاته ، ولو بالتكلف ، الى ان يصير ملكة ، وتزول عن نفسه آثار العنف بالكلية .

وصل

(فضيلة الرفق)

الأخبار فى فضيلة الرفق وفوائده أكثر من أن تحصى ، ونحن نشير الى شطر منها هنا ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لو كان الرفق خلقاً يرى ، ما كان فيما خلق الله شىء أحسن منه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الرفق لم يوضع على شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لكل شىء قفل ، وقفل الايمان الرفق » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الله رفيق يحب

---

(١) آل عمران ، الآية: ١٥٩ .

الرفيق ، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف »(١). وقال – صلى الله عليه وآله وسلم – : « ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما الى الله تعالى ، أرفقهما بصاحبه ». وقال – صلى الله عليه وآله وسلم – : « الرفق يمن ، والخرق شؤم ». وقال – صلى الله عليه وآله وسلم – : « من كان رفيقاً فى أمره نال ما يريده من الناس ». وقال – صلى الله عليه وآله وسلم – : « اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق ». وقال – صلى الله عليه وآله وسلم – : « من أعطى حظه من الرفق اعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة ». وقال – صلى الله عليه وآله وسلم – : « إذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كاه ». وقال – صلى الله عليه وآله وسلم – : « أتدرون من يحرم على النار ؟ كل هين لين سهل قريب ». وقال الكاظم عليه السلام : « الرفق نصف العيش ». وقال عليه السلام لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام : « إرفق بهم ، فان كفر أحدكم فى غضبه ، ولا خير فيمن كان كفره فى غضبه ».

ثم التجربة شاهدة بان إمضاء الامور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق ، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه ،وان كان فظاً غليظاً اختل أمره وانفض الناس من حوله ، وزال ملكه وسلطانه فى أسرع زمان. وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والامراء وغيرهما ، من ذوى المناصب الجليلة ، وارباب المعاملة والمكاسبة ، واصحاب الصنايع والحرف .

---

(١) روى هذان الحديثان فى اصول الكافى ، فى باب الرفق ، عن أبى جعفر الباقر – عليهما السلام – .

تكملة

(المـــداراة)

(المداراة) : قريب من الرفق معنى ، لأنها ملائمة الناس ، وحسن صحبتهم ، واحتمال أذاهم ، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الأذى فى المداراة دون الرفق ، وقد ورد فى مدحها وفوائدها الدنيوية والأخروية أخبار كثيرة كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « المداراة نصف الايمان » ، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله : ورع يحجزه عن معاصى الله ، وخلق يدارى به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل » ، وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أمرنى ربى بمداراة الناس كما أمرنى باداء الفرائض » . وقول الباقر عليه السلام : « فى التوراة مكتوب : فيما ناجى الله ـ عز وجل ـ به موسى بن عمران عليه السلام : يا موسى ! اكتم مكتوم سرى فى سريرتك وأظهر فى علانيتك المداراة عنى لعدوى وعدوك من خلق ... الى آخر الحديث » (١) . وقول الصادق عليه السلام : « جاء جبرئيل الى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد ! ربك يقرئك السلام ، ويقول : دار خلقى » . وقوله عليه السلام : « إن قوماً من الناس قلت مداراتهم للناس فنفوا (٢) من قريش ، وأيم الله ماكان

---

(١) وتمام الحديث فى اصول الكافى فى باب المداراة : « ولا تستسب لى عندهم باظهار مكتوم سرى ، فتشرك عدوى وعدوك فى سبى » . قال فى الوافى : « ولا تستسب لى : أى لا تطلب سبى ، فان من لم يفهم السر يسب من تكلم به ، فتشرك : أى تكون شريكا له ، لانك أنت الباعث له عليه » .

(٢) هكذا فى النسخة المطبوعة . وفى بعض نسخ الكافى المصححة « فانفوا » ، وفى بعضها « فالقوا » . قال فى الوافى : « فانفوا ، كأنه صيغة مجهول من الأنفة ، بمعنى الاستنكاف ، إذ لم يأت الانفاء بمعنى النفى . وفى بعض النسخ : فالقوا من الالقاء ، ولعله الأصح » .

باحسابهم بأس ، وإن قوماً من غير قريش حسنت مداراتهم فالحقوا بالبيت الرفيع ... ثم قال : من كف يده عن الناس ، فانما يكف عنهم يداً واحدة ويكفون عنه ايدى كثيرة » .

ومنها :

سوء الخلق بالمعنى الاخص

وهو التضجر ، وانقباض الوجه ، وسوء الكلام . وامثال ذلك .

وهو أيضاً من نتائج الغضب ، كما أن ضده ـ اعنى (حسن الخلق بالمعنى الأخص) وهو أن تلين جناحك ، وتطيب كلامك ، وتلق أخاك ببشر حسن ـ من نتائج الحلم ، وأكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه فى الأخبار يراد به هذا المعنى ، ولا ريب فى أن سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق ، والتجربة شاهدة بأن الطباع متنفرة عن كل سيء الخلق ، ويكون دائماً اضحوكة للناس ، ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم ، ولذا قال الصادق عليه السلام : « من ساء خلقه عذب نفسه » ، وقد يعتريه لأجله الضرر العظيم . هذا كله مع سوء عاقبته فى الآخرة وادائه الى العذاب الابدى ، ولذا ورد به الذم الشديد من الشريعة . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لما خلق الله الايمان قال : اللهم قونى ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر قال : اللهم قونى ، فقواه بالبخل وسوء الخلق » . وروى أنه قيل له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها . قال : لا خير فيها ! هى من أهل النار » . وعنه ـ صلى الله

عليه وآله وسلم ـ : « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل »(١) . وعنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم » . وعنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أبى الله لصاحب الخلق السيء بالتوبة ، قيل : فكيف ذاك يا رسول الله ؟! قال : « لأنه اذا تاب من ذنب وقع فى ذنب أعظم منه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « سوء الخلق ذنب لا يغفر » . وقال الامام جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ : « إذا خلق الله العبد فى أصل الخلق كافراً لم يمت حتى يحبب الله اليه الشر ، فيقرب منه ، فابتلاه بالكبر والجبروت ، فقسى قلبه ، وساء خلقه ، وغلظ وجهه ، وظهر فحشه ، وقل حياؤه ، وكشف الله تعالى سره ، وركب المحارم ولم ينزع عنها ، ثم ركب معاصى الله ، وابغض طاعته ، ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات ، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه » . وقال بعض الأكابر : « لئن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلىّ من أن يصحبنى عابد سيء الخلق » .

وطرق العلاج فى إزالته : أن يتذكر أولا أنه يفسد آخرته ودنياه ، ويجعله ممقوتاً عند الخالق والخلق ، فيعد نفسه لإزالته ، ثم يقدم التروى والتفكر عند كل حركة وتكلم ، فيحفظ نفسه عنده ـ ولو بالتحمل والتكلف ـ من صدور سوء الخلق ، ويتذكر ما ورد فى مدح حسن الخلق الذى هو ضده ـ كما يأتى ـ ويواظب حتى تزول على التدريج آثاره بالكلية .

وصل

(طرق اكتساب حسن الخلق)

قد عرفت أن ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الأخص) ، فمن

(١) روى هذا الحديث اصول الكافى فى باب سوء الخلق عن الصادق ـ عليه السلام ـ ولكن جاء فيه « ليفسد العمل » بدل « يفسد العمل » .

معالجاتها أن يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالكلية . وأقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه أن يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلا ونقلا : أما حكم العقل على مدحه فظاهر لا يحتاج الى بيان ، وأما النقل فالأخبار التى وردت به أكثر من أن تحصى ، ونحن نورد شطراً منها تذكرة لمن أراد أن يتذكر ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما يوضع فى ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق » وقال : « يا بنى عبدالمطلب ! إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم . فالقوهم بطلاقة الوجه ، وحسن البشر » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ، ألا فزينوا دينكم بهما » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « حسن الخلق خلق الله الأعظم » . وقيل له - صلى الله عليه وآله وسلم - : أى المؤمنين أفضلهم ايماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشىء من علمه : تقوى تحجزه عن محارم الله ، وحلم يكف به السيئة ، وخلق يعيش به فى الناس » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الخلق الحسن يميت الخطيئة ، كما تميت الشمس الجليد »(١). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل ، وإنه يضعف العبادة » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لأم حبيبة : « إن حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة »

---

(١) روى هذا الحديث فى الكافى فى باب حسن الخلق عن أبى عبدالله الصادق - عليه السلام - ، وفى نهاية ابن الاثير : « فى الحديث : حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » ، ويذيب بمعنى يميت .

وقال لها ـ بعد ما سألته أن المرأة يكون لها زوجان فى الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما هى ؟ ـ : « إنها لأحسنهما خلقاً » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم » (١) . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أكثر ما يلج به امتى الجنة تقوى الله وحسن الخلق » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً ، الموطؤن أكنافاً (٢) الذين يألفون ويؤلفون » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » . ولا ريب فى أن سيء الخلق تتنفر عنه الطباع ، فلا يكون مألوفاً . وقال الامام ابو جعفر الباقر ـ عليهما السلام ـ : « إن اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً » ، وقال عليه السلام : « أتى رجل رسول الله ، فقال : يا رسول الله ! اوصنى فكان فيما أوصاه ان قال : (الق أخاك بوجه منبسط) » . وقال الصادق عليه السلام : « ما يقدم المؤمن على الله ـ عز وجل ـ بعمل بعد الفرائض احب الى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه » . وقال عليه السلام : « البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار » . وقال عليه السلام : « إن الله تبارك وتعالى ليعطى العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطى المجاهد فى سبيل الله يغدو عليه ويروح » . وقال عليه السلام : « ثلاث من اتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة : الانفاق من إقتار ، والبشر لجميع العالم ، والانصاف من نفسه » . وقال عليه السلام : « صنايع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار » .

(١) هذا الحديث مروي في الكافي في باب حسن الخلق عن ابى عبدالله ـ عليه السلام ـ

(٢) قال المبرد في الكامل ص ٣ : « قوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : الموطؤن اكنافاً ، مثل ، وحقيقته : ان التوطئة هى التذليل والتمهيد . . . فاراد القائل بقوله : موطأ الاكناف ، ان ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى ولا ناب به موضعه » .

ومن تأمل فى هذه الأخبار ، ورجع الى الوجدان والتجربة ، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه ، يجد أن كل سيء الخلق بعيد من الله ومن رحمته ، والناس يبغضونه ويشمئزون منه ، ولذا يحرم من برهم وصلتهم ، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس ، فلا يزال محلا لرحمة الله وفيوضاته ، ومرجعاً للمؤمنين بايصال نفعه وخيره اليهم ، وانجاح مقاصده ومطالبه منهم ، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبياً إلا وأتم فيه هذه الفضيلة ، بل هي أفضل صفات المرسلين وأشرف أعمال الصديقين ، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » (١)

ولعظم شرافته بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيه ما بلغ من غايته ، وتمكن على ذروته ونهايته ، حتى ورد : « بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ذات يوم جالس فى المسجد ، إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم (٢) فاخذت بطرف ثوبه ، فقام لها النبي ﷺ فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي ﷺ شيئاً ، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات ، فقام لها النبي ﷺ فى الرابعة ، وهي خلفه ، فاخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت ، فقال لها الناس : فعل الله بك وفعل ! (٣) حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً ولا هو يقول لك شيئاً ! ما كانت حاجتك اليه ؟ قالت : إن لنا مريضاً فارسلنى

---

(١) القلم ، الآية : ٤ .

(٢) قال فى البحار ـ ج ١٥ فى باب حسن الخلق ص ٢٠٧ ـ : « حال عن بعض الانصار » أى أن القائم هذا البعض صاحب الجارية لا النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ .

(٣) قال فى البحار ـ فى الموضع المتقدم ـ : « كناية عن كثرة الدعاء عليها بايذائها النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وهذا شائع فى عرف العرب والعجم » .

أهلي لآخذ هدبة من ثوبه يستشفي (١) بها ، فلما أردت أخذها رآني فقام ، استحييت أن آخذها وهو يراني ، وأكره أن أستأمره في أخذها ، فأخذتها (٢) .

ومنها :

الحقد

وقد عرفت أنه إضمار العداوة في القلب ، وهو من ثمرة الغضب ، لأن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، وهو من المهلكات العظيمة . وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « المؤمن ليس بحقود » . والغالب أن الحقد يلزمه من الآفات : الحسد ، والهجرة ، والانقطاع عن المحقود ، وإيذاؤه بالضرب ، والتكلم فيه بما لا يحل : من الكذب ، والغيبة ، والبهتان ، وإفشاء السر ، وهتك الستر ، وإظهار العيوب ، والشماتة بما يصيبه من البلاء والسرور به ، والانبساط بظهور عثراته وهفواته ، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية ، والاعراض عنه استصغاراً له ، ومنع حقوقه من دين أو رد مظلمة أو صلة رحم . وكل ذلك حرام يؤدي الى فساد الدين والدنيا . وأضعف مراتبه أن يحترز عن الآفات المذكورة ، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به ، ولكن يستثقله بالباطن ، ولا ينتهي قلبه عن بغضه .

(١) قال في البحار ـ في الموضع المذكور ص ٢٠٨ ـ : « في بعض النسخ ـ بل أكثرها ـ : ليستشفي » .

(٢) صححنا الحديث على أصول الكافي في باب حسن الخلق . وفي نسخ جامع السعادات اختلاف كثير عما أثبتناه ، وقد جاء في أصول الكافي في صدر الحديث : « قال أبو عبدالله ـ عليه السلام ـ : يا بحر حسن الخلق يسر ... ثم قال : ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة ؟ قلت : بلى ! قال : بينا رسول الله ... الى آخر الحديث » .

وهو أيضاً من الأمراض المؤلمة للنفس ، المانعة لها عن القرب الى الله والوصول الى الملأ الأعلى . ويمنع صاحبه عما ينبغى أن يصدر عنه بالنسبة الى أهل الايمان : من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة الى إعانتهم ومواساتهم ... وغير ذلك . وهذا كله مما ينقص درجته فى الدين ، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين .

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة ، فجميع الأخبار الواردة فى ذم المعاداة تدل على ذمه ، كقول النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ماكان جبرئيل يأتينى إلا قال : يا محمد ! اتق شحناء الرجال وعداوتهم » . وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما عهد الىّ جبرئيل قط فى شىء ماعهد إلىّ فى معاداة الرجال » . وقول الصادق عليه السلام : « من زرع العداوة حصد ما بذر » ... وقس عليها غيرها .

وطريق العلاج فى إزالته : أن يتذكر أن هذه العداوة الباطنة تؤلمه فى العاجل ، إذ الحقود المسكين لا يخلو عن التألم والهم لحظة ، ويعذبه فى الآجل ، ومع ذلك لا يضر المحقود أصلا ، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة لنفسه ونافعة لعدوه . وبعد هذا التذكر ، فليجتهد فى أن يعامله معاملة احبائه : من مصاحبته بالانبساط والرفق ، والقيام بحوائجه ، وغير ذلك ، بل يخصه بزيادة البر والاحسان ، مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان ، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية . ثم لما كان الحقد عبارة عن العداوة الباطنة ، وحقيقتها إضمار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه ، فضده (النصيحة) التى هى قصد الخير وكراهة الشر ، لا المحبة - كما يتراءى فى بادى الرأى - إذ هى ضد الكراهة دون العداوة - كما يأتى فى محله - فمن معالجات الحقد أن يتذكر فوائد النصيحة ومدحها - كما يأتى - ليعين على إزالته .

ومنها :

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد ، لأنه إذا قوى قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة . والأخبار الواردة في ذمها كثيرة ، وقد تقدم بعضها . وعلاجها كما تقدم في الحقد ، وضدها النصيحة الظاهرة ، أعني فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما ، فليكلف نفسه عليها ، حتى تصير ملكة له ويزول ضدها .

ومنها :

الضرب والفحش واللعن والطعن

وهذه ناشئة غالباً عن العداوة والحقد ، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق ، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وفقده المعدود من رذائل قوة الشهوة . إلا أن الفاعل المباشر لهذه الأمور هي القوة الغضبية ، أو النفس لهيجان قوة الغضب . وإن كان الهيجان حاصلا بوساطة فعل قوة الشهوة . وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا ، ولذا أدرجناها تحتها فقط .

ثم لا ريب في كون هذه الامور مذمومة محرمة في الشريعة ، موجبة لحبط الأعمال وخسران المآل . وجميع ما يدل على ذم الايذاء والاضرار يدل على ذمها ، لكونها بعض أفرادهما . والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وايجابه للهلاك :

أما ﴿ الضرب ﴾ — فلأنه لا ريب فى أن ضرب مسلم بلا داع شرعى مما يقبحه كل عاقل ، ويذمه جميع طوائف العالم . حتى نفاة الاديان ، والأخبار الواردة فى ذمه كثيرة ، وفى عدة منها : « أن من ضرب رجلا سوطاً لضربه الله سوطاً من النار » .

وأما ﴿ الفحش والسب وبذاءة اللسان ﴾ — فلا ريب فى كونه صادراً عن خباثة النفس . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ، ولا الفاحش ولا البذى » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إياكم والفحش ، فان الله لا يحب الفحش والتفحش » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام فى شىء » وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » وروى : أن المراد بالبيان : كشف ما لا يجوز كشفه . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى » ... وعدّ منهم : رجلا يسيل فوه قيحاً ، وهو من كان فى الدنيا فاحشاً . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا تسبوا الناس فتكتسبوا العداوة منهم » (١) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذى قليل الحياء لا يبالى ما قال ولا ما قيل له ، فانك إن فتشته لم تجده إلا لغيَة (٢) أو شرك شيطان » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اذا رأيتم الرجل لا يبالى ما قال ولا ما قيل فيه فانه لغية أو شرك شيطان » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله ليبغض الفاحش البذى والسائل الملحف » . وقال

---

(١) وفى بعض نسخ الكافى فى باب السباب : (بينهم) بدل (منهم) .

(٢) قال فى القاموس فى مادة (غوى) : « ولد غية — ويكسر — أى زنية » ، فيكون معنى (لغية) أى (لزنية) .

ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن من شرار عباد الله من تكره مجالسته لفحشه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية ، وحرمة ماله كحرمة دمه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « المتسابان شيطانان متعاديان ومتهاتران » . وقال الصادق عليه السلام : « من علامات شرك الشيطان الذى لايشك فيه أن يكون فحاشاً لا يبالى ما (١) قال ولا ما (١) قيل فيه » . وقال عليه السلام : « البذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار » . وقال عليه السلام : « من خاف الناس لسانه فهو فى النار » ، وقال : « إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه » . وعن الكاظم عليه السلام فى رجلين يتسابان : « فقال : البادى منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم » (٢) .

(تنبيه) اعلم أن حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة . ويجرى أكثر ذلك فى ألفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما ، فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها ، بل يكنون عنها ويعبرون عنها بالرموز . قال بعض الصحابة : « إن الله حيي كريم يعف ويكنى ، كنى باللمس عن الجماع » . فالمس ، واللمس ، والدخول ، والصحبة ، كنايات عن الوقاع ، وليست بفاحشة ، وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها . وليس هـــذا يختص بالوقاع ، بل

(١) وفي بعض نسخ الكافى فى باب البذاء (بما) في الموضعين .

(٢) قد مضى فى الصفحة (٣٠٠) تصحيح الحديث على ما فى أصول الكافى فى باب السفه . فصححناه هنا أيضاً .

الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما، وكذا التعبير عن المرأة، فهذا أيضاً مما يخفى ويستحيى منه، فلا ينبغى أن تذكر ألفاظه الصريحة باللسان. بل يكنى عنها، فلا يقال: قالت زوجك أو امرأتك، بل يقال: قيل فى الحجرة، أو قيل من وراء الستر، وقالت أم الأولاد، وأمثال ذلك. وكذلك من به عيوب يستحى منها، فلا ينبغى أن يعبر عنها بصريح لفظها، كالبرص، والقرح، والبطن، وأمثال ذلك، بل يكنى عنها بعبارات غير صريحة، مثل العارض الذى عرض وما يجرى مجراه، إذ التصريح بجميع ذلك داخل فى الفحش.

ثم ألفاظ الفحش لا ريب - حينئذ - فى كونها محظورة بأسرها مذمومة، وإن كان بعضها أفحش من بعض، فيكون اثمه أشد، سواء استعمل فى الشتم والايذاء أو لا يستعمل فيه، بل فى المزاح والهزل وغيرهما. وحينئذ لما كانت هذه العبارات متفاوتة فى الفحش بعضها أفحش من بعض، وربما اختلف بعادة البلاد، فيكون بعضها مكروهاً وبعضها محظوراً، فان من قال لغيره مزاحاً أو اعتياداً حاصلا من مخالطة الفساق: (فرج امرأتك ضيق أم لا؟) لا ريب فى كونه فحشاً محرماً مذموماً، مع أنه لم يستعمل فى الشتم. وبالجملة: أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة، وبينهما درجات تتردد بين الكراهة والحرمة.

وأما ﴿ اللعن ﴾ — فلا ريب فى كونه مذموماً، لأنه عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة. وقد ورد عليه الذم الشديد فى الأخبار، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: «المؤمن ليس بلعان». وعن الباقر عليه السلام قال: «خطب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الناس، فقال: ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا:

بلى يا رسول الله ! قال : الذى يمنع رفده ، ويضرب عبده . ويتردد وحده . فظنوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من ذلك ، ثم قال : ألا اخبركم بمن هو شر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : المفتحش اللعان الذى إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم ، وإذا ذكروه لعنوه » . وقال الباقر عليه السلام : « إن اللعنة إذا خرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فإن وجدت مساغاً وإلا رجعت الى صاحبها » .

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد أو طلب الإبعاد من الله . (والأول) غيب لا يطلع عليه إلا الله . (والثانى) لا يجوز إلا على من اتصف بصفة تبعده منه ، فينبغى ألا يلعن أحداً إلا من جوز صاحب الشرع لعنه ، والمجوز من الشرع انما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاسقين ، كما ورد فى القرآن ولا ريب فى جواز ذلك بالوصف الأعم ، كقولك : لعنه الله على الكافرين . أو بوصف يخص بعض الأصناف ، كقولك : لعنة الله على اليهود والنصارى.

والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق . (وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وأبى جهل ، لأن كل شخص معين كان على احدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها ، فيموت مسلماً أو تائباً ، فيكون مقرباً عند الله لا مبعداً عنه (كلام ينبغى) أن يطوى ولا يروى ، إذ المستفاد من كلام الله تعالى وكلام رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكلام أئمتنا الراشدين : جواز نسبته الى الشخص المعين ، بل المستفاد منها أن اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات وأقرب القربات ، قال الله سبحانه :

« أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ » (١) . وقال : « أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » (٢) .

وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - في جواب ابي سفيان حين هجاه بألف بيت : « اللهم إني لا احسن الشعر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة » . وقد لعن امير المؤمنين ﷺ جماعة . وروى أنه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وابي موسى الأشعري وابي أعور الاسلمي ، مع أنه أحلم الناس وأشدهم صفحاً عمن يسوء به ، فلولا أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضات . وروى الشيخ الطوسي : « أن الصادق ﷺ كان ينصرف من الصلاة بلعن أربعة رجال » . ومن نظر الى ما وقع للحسن ﷺ مع معاوية وأصحابه وكيف لعنهم ، وتتبع ما ورد من الأئمة في الكافي وغيره من كتب الأخبار والأدعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح باسمائهم ، يعلم أن ذلك من شعائر الدين ، بحيث لا يعتريه شك ومرية . وما ورد من قوله - عليه السلام - « لا تكونوا لعانين » ، ومثله : نهى عن اللعن على غير المستحقين ، وما روى : أن امير المؤمنين - عليه السلام - نهى عن لعن أهل الشام ، فإن صح ، فلعله كان يرجو اسلامهم ورجوعهم اليه ، كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية .

وبالجملة : اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز ، بل مستحب ، وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز ، إلا أن يتيقن

---

(١) البقرة ، الآية : ١٦١ .

(٢) البقرة ، الآية : ١٥٩ .

باتصافه باحدى الصفات الموجبة له . وينبغي ألا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين ، إذ لا يجوز أن يرمى مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يرمى رجل رجلا بالكفر فلا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه إن لم يكن كذلك » .

ثم اللعن على الأموات أشد وزراً وأعظم إثماً ، لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا تسبوا الأموات ، فانهم قد افضوا الى ما قدموا » . ولا ينبغي أن يلعن الجماد والحيوان أيضاً . لما روى : « أنه ما لعن أحد الأرض إلا قالت : اللعن على أعصانا لله » ، وما روى : « أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنكر على امرأة لعنت ناقة ، وعلى رجل لعن بعيراً » . ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه ، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم ، إلا اذا اضطر اليه لشره واضراره ، وقد ورد أن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه ، ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة . وقال علي بن الحسين - عليهما السلام - : « إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا : بئس الأخ أنت لاخيك ! كف أيها المستر على ذنوبه وعورته ، واربع على نفسك ، واحمد الله الذي ستر عليك ! » (١) .

ثم ضد ذلك - اعني الدعاء للأخ المسلم بما يحب لنفسه - من أحب الطاعات وأقرب القربات ، وفوائده اكثر من أن تحصى ، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اذا دعا الرجل لاخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » . وقال علي بن الحسين - عليهما السلام - : « إن الملائكة إذا

(١) هذه الرواية من تتمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين - عليهما السلام - .

سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير ، قالوا : نعم الأخ انت لأخيك ! تدعو له بالخير وهو غائب عنك ، وتذكره بالخير . قد اعطاك الله ـ عز وجل ـ مثلی ما سألت له ، واثنی علیك مثلی ما اثنيت عليه ، ولك الفضل عليه » . ومثله ورد عن الباقر ـ عليه السلام ـ أيضاً . والاخبار فی فضيلة الدعاء للاخوان اكثر من أن تحصی ، وای كرامة اعظم لك من أن تصل منك الى المؤمن وهو تحت اطباق الثرى هدايا الاستغفار والادعية ، وهل تدری كيف تسر روحه منك بهذا العمل ؟ فان اهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف ، وانت متفرد بحزنك تدعو له فی ظلمة الليل ، وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « مثل الميت فی قبره مثل الغريق يتعلق بكل شیء ، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب ، وانه ليدخل علی قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال ، وهو للاموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك علی الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور ، فيقول : هذه هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان ، فيفرح كما يفرح الحی بالهدية (١) .

وأما ﴿ الطعن ﴾ ـ فهو أيضاً من ذمائم الافعال ، ويورث الضرر فی الدنيا والعذاب فی الاخری . قال الباقر ـ عليه السلام ـ : « إياكم والطعن على المؤمنين » . وقال ـ عليه السلام ـ : « ما من انسان يطعن فی عين مؤمن إلا مات شر ميتة ، وكان قمنا ألا يرجع الى خير » .

واعلم أن هذه الامور ـ اعنی الفحش واللعن والطعن وامثالها مما يأتی

(١) هذا الكلام من بعد الحديث الذی وضعناه بين قوسين رواه فی احياء العلوم — ج ٢ ص ١٦٤ — عن بعض السلف ، وبمضمونه احاديث مروية عن آل البيت (ع) . روی منها فی الوسائل فی ابواب الاحتضار من كتاب الطهارة (باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج) .

فى موضعه : من الغيبة ، والكذب ، والبهتان ، والاستهزاء ، والمزاح ، والخوض فى الباطل ، والتكلم بالفضول وما لا يعنى : من آفات اللسان ، ويأتى أن جميع آفات اللسان ضداً عاماً هو الصمت ، ويأتى بيان فضيلته وكثرة فوائده ، ويأتى أيضاً ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان - اعنى ما ورد فى ذم اللسان ، وكون شره أعظم من شر سائر الأعضاء - فانه بعمومه يدل على ذم هذه الأمور .

ومنها - أى ومن رذائل القوة الغضبية - :

العجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة فى الواقع أم لا . وسواء كانت صفة كمال فى نفس الأمر أم لا ، وقيل : « هو اعظام النعمة والركون اليها مع نسيان إضافتها الى المنعم » وهو قريب مما ذكر ، ولا يعتبر فى مفهومه رؤية نفسه فوق الغير فى هذا الكمال وهذه النعمة ، وبذلك يمتاز عن الكبر ، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه مزية على غيره فى صفة كمال ، وبعبارة أخرى هو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، فالكبر يستدعى متكبراً عليه ومتكبراً به .

والعُجب لا يستدعى غير المعجب ، بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفة الكمال . ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً ، فانه قد يستعظم نفسه ، ولكن يرى فى غيره اعظم من نفسه أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه ، فهو معجب وليس متكبراً . ولا يكفى أن يستحقر غيره ، فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل

نفسه لم يكن متكبراً ، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره .

والحاصل: أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان إضافتها الى الله ، فان لم يكن معه ركون وكان خائفاً على زوال النعمة مشفقاً على تكدرها أو سلبها بالمرة ، أو كان فرحه بها من حيث أنها من الله من دون إضافتها الى نفسه لم يكن معجباً ، فالمعجب ألا يكون خائفاً عليها ، بل يكون فرحاً بها مطمئناً اليها ، فيكون فرحه بها من حيث انها صفة كمال منسوبة اليه ، لا من حيث انها عطية منسوبة الى الله تعالى . ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها زال العجب .

ثم لو انضاف الى العجب ـ أى غلب على نفس المعجب ـ أن له عندالله حقاً ، وأنه منه بمكان ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه ، وكان متوقعاً منه كرامة لعمله ، سمى ذلك (ادلالاً) بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، فهو وراء العجب وفوقه ، إذ كل مدل معجب ، ورب معجب لا يكون مدلاً ، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الاضافة الى الله من دون توقع جزاء على عمله ، والادلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله ، إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه ، فالادلال عجب مع شيء زائد .

وعلى هذا ، فمن أعطى غيره شيئاً ، فان استعظمه ومنّ عليه كان معجباً ، وان استخدمه مع ذلك أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه . وكما أن المعجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطىء فيه ويراه حسناً ، كما قال سبحانه :

« أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً » (١)

(١) الفاطر ، الآية : ٨ .

وقال أبو الحسن ـ عليهما السلام ـ : « العجب درجات : ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً ، فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً . ومنها ان يؤمن العبد بربه ، فيمنّ على الله ـ عز وجل ـ ولله عليه فيه المنّ » .

فصل

(ذم العجب)

العجب من المهلكات العظيمة وأرذل الملكات الذميمة ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك : العجب العجب » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « بينما موسى ﷺ جالس (١) ، إذ أقبل عليه ابليس وعليه برنس ذو ألوان ، فلما دنى منه خلع البرنس ، وقام الى موسى ﷺ فسلم عليه ، فقال له موسى : من أنت ؟ فقال : انا ابليس ، قال أنت ! فلا قرّب الله دارك ، قال : إنى إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله ، فقال له موسى ﷺ : فما هذا البرنس ؟ قال : به اختطف قلوب بنى آدم ، فقال موسى : فاخبرنى بالذنب الذى اذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ، قال : اذا اعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر فى عينه ذنبه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « قال الله ـ عز وجل ـ : يا داود ! بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين ، قال : كيف ابشر المذنبين وانذر الصديقين ؟ قال : بشر المذنبين انى أقبل التوبة وأعفو عن الذنب ، وأنذر

---

(١) وفى بعض نسخ الـكافى فى باب العجب هكذا : (جالساً) ـ بالنصب ـ

الصديقين ألا يعجبوا باعمالهم ، فانه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك » .
وقال الباقر عليه السلام : « دخل رجلان المسجد ، أحدهما عابد والآخر فاسق ، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق ، وذلك انه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها ، فتكون فكرته فى ذلك ، وتكون فكرة الفاسق فى الندم على فسقه ، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب » . وقال الصادق عليه السلام : « إن الله علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب ابداً » . وقال عليه السلام : « من دخله العجب هلك » . وقال عليه السلام : « ان الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ، ويعمل العمل فيسره ذلك ، فيتراخى عن حاله تلك ، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه » . وقال عليه السلام : « أتى عالم عابداً فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلى يسأل عن صلاته وانا اعبد الله منذ كذا وكذا ، قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : ابكى حتى تجرى دموعى ، فقال له العالم : فان ضحكك وأنت خائف افضل من بكائك وأنت مدل ، ان المدل لا يصعد من عمله شىء » . وقال عليه السلام : « العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدرى بما يختم له ، فمن أعجب بنفسه وفعله ، فقد ضل عن نهج الرشاد ، وادعى ما ليس له ، والمدعى من غير حق كاذب وان أخفى دعواه وطال دهره . وإن أول ما يفعل بالمعجب نزع ما عجب به ليعلم انه عاجز حقير ، ويشهد على نفسه ليكون الحجة عليه أوكد ، كما فعل بابليس . والعجب نبات حبها الكفر ، وأرضها النفاق ، وماؤها البغى ، وأغصانها الجهل ، وورقها الضلالة ، وثمرها اللعنة والخلود فى النار ، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ، ولا بد أن يثمر » (١) .
وقيل له عليه السلام : الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ، ثم يعمل شيئاً من البر

---

(١) صححنا هذه الرواية على ما فى البحار — الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر فى باب العجب — وقد نقلها عن مصباح الشريعة ، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات .

فيدخله شبه العجب به ، فقال : « هو فى حالة الأولى وهو خائف أحسن حالا منه فى حال عجبه » . وقال ﷺ : « إن عيسى بن مريم - عليهما السلام - كان من شرائعه السيح فى البلاد ، فخرج فى بعض سيحه ومعه رجل من اصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى الى البحر قال : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على ظهر الماء . فقال الرجل القصير حين نظر الى عيسى جازه : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على الماء ، ولحق بعيسى - صلى الله عليه - ، فدخله العجب بنفسه ، فقال : هذا عيسى روح الله يمشى على الماء وانا امشى على الماء ، فما فضله على؟ ! قال : فرمس فى الماء ، فاستغاث بعيسى ﷺ ، فتناوله من الماء فأخرجه ، ثم قال له : ماقلت ياقصير ؟ ! قال قلت : هذا روح الله يمشى على الماء وانا أمشى ، فدخلنى من ذلك عجب . فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك فى غير الموضع الذى وضعك الله ، فمقتك الله على ما قلت ، فتب الى الله - عز وجل - مما قلت ، قال : فتاب الرجل ، وعاد الى مرتبته التى وضعه الله فيها » (١) .

فصل

(آفات العجب)

العجب آفاته كثيرة : (منها) الكبر لأنه أحد أسبابه - كما يأتى - (ومنها) أنه يدعو الى نسيان الذنوب وإهمالها ، فلا يتذكر شيئاً منها ، وإن تذكر بعضاً منها يستصغرها ولا يستعظمها ، فلا يجتهد فى تداركها وتلافيها ، بل يظن أنها تغفر له . وأما العبادات ، فيستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، واذا اعجب بها عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال ضل سعيه ، إذ الأعمال الظاهرة اذا

(١) صححنا اكثر هذه الاحاديث على الكافى فى باب العجب والحسد .

لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ،وإنما يتفقد الخائف المشفق دون المعجب ، لأنه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله حقاً بأعماله التى هى من عطاياه تعالى ونعمه ، وربما يخرجه العجب الى تزكية نفسه والثناء عليها . وإن أعجب برأيه وعقله وعلمه منعه ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الأعلم ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتنى بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر الى غيره بعين الاستحقار والاستجهال ، فإن كان رأيه الفاسد متعلقاً بامر دنيوى أضره وفضحه ، وإن كان متعلقاً بامر دينى -(لا) سيما فى أصول العقائد- أضله وأهلكه . ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه، واستعان بعلماء الدين وسؤال أهل البصيرة، لكان خيراً له وأحسن ، وموصلا له الى الحق المتيقن . ومن آفاته أنه يفتر فى الجد والسعى ، لظنه أنه قد استغنى وفاز بما ينجيه ، وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه .

فصل

(علاج العجب اجمالا وتفصيلا)

إعلم أن للعجب علاجين : اجمالياً وتفصيلياً (١) :

أما العلاج الاجمالى - فهو أن يعرف ربه، وأنه لا تليق العظمة والعزة إلا به ، وأن يعرف نفسه حق المعرفة ، ليعلم أنه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، ولا تليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة ، فما له والعجب

(١) وفى النسخ : (اجمالي وتفصيلي) .

واستعظام نفسه ، فانه لاريب فى كونه ممكناً ،وكل ممكن فى ذاته صرف العدم ومحض اللاشىء ، كما ثبت فى الحكمة المتعالية . ووجوده وتحققه وكماله وآثاره جميعاً من الواجب الحق.فالعظمة والكبرياء انما تليق بفيض وجوده وكمالاته، لا لذاته التى هى صرف العدم ومحض الليس ، فان شاء أن يستعظم شيئاً ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر ، ويستحقر نفسه غاية الاستحقار وحتى يراها صرف العدم ومحض اللاشىء . وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائناً من كان .

وأما المهانة والذلة التى تخص هذا المعجب وبنى نوعه ، فكون أوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة ، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة ، وقد مرّ على مجرى البول ثلاث مرات . وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة ، وهى قوله تعالى :

« قُتِلَ ٱلإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إذا شاءَ أَنْشَرَهُ »(١) .

فقد أشارت الآية الى انه كان أولا فى كتم العدم غير المتناهى،ثم خلقه من أقذر الأشياء الذى هو نطفة مهينة ، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة .

وأى شىء أخس وأرذل ممن بدايته محض العدم ، وخلقته من أنتن الأشياء وأقذرها ، ونهايته الفناء وصيرورته جيفة خبيثة . وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل ، لم يفوض اليه أمره ، ولم يقدر على شىء لنفسه ولا لغيره ، إذ سلطت عليه الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات

(١) عبس الآية : ١٧ ــ ٢٢ .

المختلفة ، والطبائع المتضادة ، من المرة والدم والريح والبلغم ، فيهدم بعض أجزائه بعضاً ، شاء أم أبى ، رضى أم سخط . فيجوع كرهاً ، ويعطش كرهاً ، ويمرض كرهاً ، ويموت كرهاً ، لا يملك لنفسه نفعاً وضراً ولا خيراً وشراً . يريد أن يعلم الشىء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشىء فينساه ، ويريد أن ينسى الشىء فلا ينساه ، ويريد أن ينصرف قلبه الى ما يهمه فيجول فى أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار . فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه . يشتهى الشىء وفيه هلاكه ويكره الشىء وفيه حياته . يستلذ ما يهلكه ويرديه ، ويستبشع ما ينفعه وينجيه ، ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته . وتفلج أعضاؤه ، ويختلس عقله ، وتختطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه فى دنياه ، وهو مضطر ذليل ، إن ترك فنى ، وإن خلى ما بقى ، عبد مملوك ، لا يقدر على شىء من نفسه ولا من غيره . فأى شىء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأنى يليق العجب به لولا جهله ؟ . وهذا وسط أحواله .

وأما آخره ، فهو الموت - كما عرفت - فيصير جيفة منتنة قذرة ، ثم تضمحل صورته ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، وتتفتت أجزاؤه ، فيصير رميماً رفاتاً ، ثم يصير روثاً فى أجواف الديدان ، يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل انسان ، وأحسن أحواله أن يعود الى ما كان ، فيصير تراباً تعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، فما أحسنه لو ترك تراباً ، بل يحيى بعد طول البلى ليقاسى شدائد البلا ، فيخرج من قبره بعد جمع اجزائه المتفرقة ، ويساق الى عرصات القيامة ، فيرى سماء مشققة ، وأرضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة ، ونجوماً منكدرة ، وشمساً منكسفة ، وجحيماً مسعرة ، وجنة مزينة ، وموازين منصوبة ، وصحائف منشورة ، فاذا هو فى معرض المؤاخذة والحساب وعليه ملائكة غلاظ شداد ، فيعطى كتابه إما بيمينه أو شماله ،

فيرى فيه جميع أعماله وأفعاله ، من قليل وكثير ونقير وقطمير . فان غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقاً للعذاب والنار، تمنى ان يكون كلباً أو خنزيراً، لصير مع البهائم ترابا ولا يلقى عقابا ولا عذابا . ولا ريب فى أن الكلب والخنزير أحسن وأطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب فى النار ، إذ أولهما وآخرهما التراب ، وهو بمعزل عن العقاب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق،ولو رأى أهل الدنيا من يعذب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته .ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقاه فى بحار الدنيا صارت أنتن من الجيفة المنتنة .

فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه ! وما أغفله من التدبر فى أحوال يومه وأمسه ! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به الى النار فانما ذلك للعفو ، لأنه ما من عبد إلا وقد أذنب ذنباً ، وكل من أذنب ذنباً استحق عقوبة . فلو لم يعاقب فانما ذلك للعفو . ولا ريب فى أن العفو ليس يقيناً ، بل هو مشكوك فيه ، فمن استحق عقوبة ولا يدرى أيعفى عنها أم لا ، يجب ان يكون ابداً محزوناً خائفاً ذليلاً . فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب ، ألا ترى أن من جنى على بعض الملوك بما استحق به الف سوط مثلا ، فأخذ وحبس فى السجن وهو منتظر أن يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدرى أيعفى عنه أم لا ، كيف يكون ذله فى السجن ؟ أفترى أنه مع هذه الحالة يكون معجباً بنفسه ؟! ولا اظنك ان تظن ذلك . فما من عبد مذنب ، ولو اذنب ذنباً واحداً ، إلا وقد استحق عقوبة من الله ، والدنيا سجنه ، ولا يدرى كيف يكون امره . فيكفيه ذلك خوفا ومهانة وذلة . فلا يجوز له ان يعجب ويستعظم نفسه .

هذا هو العلاج الاجمالى للعجب .

واما التفصيلي — فهو ان يقطع اسبابه — اعنى ما به العجب — وهى العلم، والمعرفة، والعبادة، والطاعة، وغير ذلك من الكمالات النفسية، كالورع، والشجاعة، والسخاوة، والنسب، والحسب، والجمال، والمال، والقوة، والبطش، والجاه، والاقتدار، وكثرة الأعوان والأنصار، والكياسة، والتفطن لدقائق الأمور، والرأى الخطأ.

أما (العجب بالعلم): فعلاجه أن يعلم ان العالم الحقيق هو الذى يعرف نفسه وخطر الخاتمة، وان من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله سبحانه، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات. وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة، والاعتراف بالقصور والتقصير فى اداء حقوق الله، والشكر بازاء نعمه، ولذا قيل: «من ازداد علماً ازداد وجعاً». فالعلم الذى لا يوجب ذلك ويورث العجب، إما ليس علماً حقيقياً، بل هو من العلوم الدنيوية التى ينبغى ان تسمى صناعات لا علوماً، إذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس ردى الأخلاق لم يهذب نفسه أولا ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها فى عبادة ربه، فيبق خبيث الجوهر، فاذا خاض فى العلم وإن كان علماً حقيقياً صادف من قلبه منزلا خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر فى الخير أثره، فان العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافياً، فاذا شربته الاشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة، كذلك العلم اذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخباثة، والطيب الصافى طيباً وصفاء.

واذا علم ذلك، يعرف أنه لا ينبغى العجب بالعلم، ويجب أيضاً ان يعلم أنه اذا أعجب بنفسه صار ممقوتاً عند الله مبغوضاً لديه، لما تقدم من الأخبار، وقد أحب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه. وقال بواسطة سفرائه: «إن لك عندى قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فان رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك

عندى » (١) . وقال : « صغروا أنفسكم ليعظم عندى محلكم » . فلا بد ان يكلف نفسه مايحب مولاه ، وأن يعلم ان حجة الله على أهل العلم أوكد ، وانه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشره من العالم ، لأن العالم اذا زل زل بزلته كثير من الناس ، ولأن من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته أفحش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم ، ولذلك قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتابه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون : مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه » . وقد مثل الله تعالى علماء (اليهود) بالحمار (٢) ، وبلعم بن باعوراء بالكلب (٣) ، لعدم عملهم بما علموه . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون قد قرأنا القرآن فمن اقرأ منا ومن أعلم منا » ، ثم التفت الى أصحابه فقال : « أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله فاستجاب له وقبل منه ، فاطاع الله فادخله الله الجنة ، وادخل الداعى النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل » وقال روح الله عليه السلام : « ويل لعلماء السوء (٤) كيف

(١) هذا كلام بنصه مذكور فى احياء العلوم ـ ج ٣ ص ٣١٢ ـ ويظهر منه انه من كلامه هو أو مقتبس من مضامين الأخبار ، لا انه نص حديث ، وكذا ما بعده وهو قوله : « صغروا . . . » .

(٢) اشارة الى قوله تعالى ـ فى سورة الجمعة الآية ٥ ـ : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » .

(٣) اشارة الى قوله تعالى ـ فى سورة الاعراف الآية ١٧٦ ـ : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

(٤) فى النسخ المصححة للكافى ـ باب لزوم الحجة على العالم ـ هكذا : « لعلماء السوء » ـ

تتلظى عليهم النار » . وقال الصادق ﷺ : « يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد » .

ولا ريب فى أن كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها، وينهاهم عن العجب والكبر ، وهو معجب متكبر ، يكون من علماء السوء ، وممن لم يعمل بعلمه ، فيكون داخلا تحت هذه الأخبار . وأى عالم يتصور فى أمثال هذه الأزمنة أن يجزم بأنه عمل بجميع ما علم وامر به ، ولم يضع شيئاً من أوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة ، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك ؟ وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما امر به من التكاليف العامة والخاصة به؟ لخطره اعظم من خطر غيره، كيف وقد روى: « أن حذيفة صلى بقوم ، فلما سلم قال : لتلتمسن إماماً غيرى أو لتصلن وحداناً ، فإنى رأيت فى نفسى أنه ليس فى القوم أفضل منى » . فإذا كان مثله لا يسلم ، فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة ، فما أعز على بسيط الأرض فى هذه الأعصار علماء الآخرة الذين أقبلوا على شأنهم، واستوحشوا من أوثق اخوانهم ، وشغلهم عظيم الأمر عن الالتفات الى الدنيا وزهرتها ، وازعجهم خوف الرحمن عن مضاجعهم فى حنادس الليالى وظلمتها . ولا يشتهون من نعيم الدنيا حاراً ولا بارداً ، وصارت همومهم هماً واحداً ، هيهات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم أرباب الاقبال وأصحاب الدول ، وقد انقرضوا فى القرون الأول . بل يعز أن يوجد فى زماننا هذا عالم لا تكون له استطالة وخيلاء ، ولم يكن متكبراً على الفقراء ، ومتواضعاً للأغنياء . فينبغى لكل

— بتعريف العلماء — ونحن رجعنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فاثبتناه بلا تعريف . قال صاحب مجمع البحرين — مادة (سوء) — : « تقول هذا رجل سوء بالاضافة ، ثم تدخل عليه الالف واللام ، فتقول هذا رجل السوء . ولا يقال الرجل السوء . كذا قاله الجوهرى » .

عالم أن يتفكر فى أحواله وأعماله وما أريد منه ، وفى عظم خطره حتى تنكسر نفسه ، ويظهر خوفه وحزنه ويبطل كبره وعجبه .

وأما (العجب بالعبادة والطاعة) : فعلاجه أن يعلم أن الغرض من العبادة هو إظهار الذل والانكسار ، وصيرورتهما ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها ، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها ، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها . وايضاً آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة ، وكذلك شرائطها وآدابها التى لايصح بدونها كثيرة ، فيمكن ان تدخلها بعض الآفات ، أو تفقد عنها بعض الشرائط والآداب ، فلا تكون مقبولة عندالله ، ومع إمكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها ؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الافات ؟ ومن قطع بذلك فهو فى غاية الجهل بحقائق الأمور . على أن فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيداً ، ومن جوز أن يكون عند الله شقياً ، وقد سبق القضاء الإلهى بشقوته ، فأى نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها ؟ ولا ريب فى انه لا يخلو عبد عن هذا التجويز ، فما لأحد الى العجب والتكبر فى حال من الأحوال سبيل .

وأما (العجب بالورع ، والتقوى ، والصبر ، والشكر ، والسخاوة ، والشجاعة ، وغيرها من الفضائل النفسية) : فعلاجه أن يعلم أن هذه الفضائل إنما تكون نافعة ومنجية إذا لم يدخلها العجب ، وإذا دخلها العجب أبطلها وأفسدها ، فما للعاقل أن يرتكب رذيلة تضيع ماله من الفضائل ، وأنى له لا يظهر الذلة والتواضع فى نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها ، ويختم لأجلها الجميع بالخير ، وتصير عاقبته محمودة ، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة . وينبغى أن يعلم أن كل واحد من الفضائل التى يثبتها لنفسه موجودة مع الزيادة فى كثير من بنى نوعه ، واذا علم اشتراك الناس معه فى هذه الفضيلة زال اعجابه بها . وقد نقل أن

واحداً من مشاهير الشجعان اذا قابل خصمه اصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه . فقيل له : ما هذه الحالة وانت اشجع الناس واقواهم ؟ فقال: إنى لم امتحن خصمى ، فلعله أشجع منى . وأيضاً النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة ، لا مع الاعجاب بالقوة والشجاعة ، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم .

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية : أن يقابل سببه بضده ،اذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده ، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة له ، فنقول :

الكمال الذى به يعجب إما أن يكون يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه ، أو من حيث أنه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته . فإن كان (الأول) ، فهو محض الجهل ، لأن المحل مسخر ، وإنما يجرى ما يجرى فيه وعليه من جهة غيره ، ولا مدخل له فى الايجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس له . وإن كان (الثانى) ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته وارادته واعضائه ،وسائر الاسباب التى بها يتم كماله وعمله ، أنها من اين كانت له : فإن كان علم أن جميع ذلك نعمة من الله اليه من غير حق سبق له ، فينبغى أن يكون اعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه مالا يستحقه ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فإن ظن أنه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة ، كحبه له تعالى أو مثله ، فيقال له : الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فليكن الاعجاب بجوده ، إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك واعمالك واسباب اعمالك .

فاذن لا معنى لعجب العالم بعلمه ،وعجب العابد بعبادته ، وعجب الشجاع

بشجاعته ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بماله ، لأن كل ذلك من فضل الله ،وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده. والمحل أيضاً من فضله وجوده، فانه هو الذى خلقك، وخلق اعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم والارادة ، ولو أردت أن تنفى شيئاً من ذلك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات فى اعضائك مستبدأ باختراعها من غير مشاركة لك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقها على ترتيب ، فلم يخلق الحركة مالم يخلق فى العضو قوة وفى القلب ارادة ، ولم يخلق العلم مالم يخلق القلب الذى هو محله ، فتدريجه فى الخلق شيئاً بعد شيء هو الذى خيل اليك أنك مستقل بايجاد عملك، وقد غلطت ، فان تحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب ، كلها من الله ، ليس شيء منها اليك .

ومن العجائب أن تعجب بنفسك ، ولا تعجب بمن اليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وكرمه ، وفضله فى ايثاره إياك على الفساق من عباده ، إذ مكنهم من اسباب الشهوات واللذات ،وزواها عنك،وصرف عنهم بواعث الخير وهيأها لك ، حتى يتيسرلك الخير من غير وسيلة سابقة منك .

روى : « أن أيوب ﷺ قال : (إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء ، وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواى) ، فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت : يا ايوب! أنى لك ذلك ؟قال : فأخذ رماداً فوضعه على رأسه ، وقال: منك يا رب ! فرجع عن نسيانه ، واضاف ذلك الى الله تعالى ، ولذلك قال الله تعالى :

« وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً » (١) » .

---

(١) النور ، الآية : ٢١ .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «ما منكم من أحد ينجيه عمله»، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ! قال : «ولا أنا إلا ان يتغمدنى الله برحمته» .

(فإن قيل) : ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال ومحلها جميعاً الى الله تعالى يؤدى الى الجبر ونفى التكليف، وبطلان الثواب والعقاب، (قلنا): هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر، ولا يليق بيانها هنا (١). ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالكلية فى متعلق التكليف ـ اعنى افعاله المرضية ـ بل نفينا استقلاله فيها . نعم، فى غيرها من المحال والأسباب والصفات اللازمة، والتوفيق، وتحريك البواعث، وصرف الموانع، لا قدرة له فيها اصلاً، ولا يلزم منه فساد .

وأما (العجب بالحسب النسب) : فعلاجه يتم بمعرفة امور :

الأول ـ أن يعلم أن التعزز بكمال الغير غاية السفاهة والجهل، فإنه لو كان خسيساً فى صفات ذاته، فمن أين يجبر خسته كمال غيره، ولو كان أباه أوجده، بل لو كان الذى يعجب به بالانتساب حياً لكان له ان يقول : الفضل لى لا لك وأنت دودة خلقت من فضلتى، أفترى ان الدودة التى خلقت من فضلة الانسان اشرف من الدودة التى خلقت من فضلة حمار؟! هيهات! فانهما متساويان فى الخسة، إن الشرف للانسان لا للدودة، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام :

انا ابن نفسى وكنيتى ادبى　　من عجم كنت أو من العرب
إن الفتى من يقول هاأنذا　　ليس الفتى من يقول كان أبى

وقيل :

---

(١) تقدم ذكر هذا الأمر ص ١٤١ .

لئن فخرت بآباء ذوي شرف　　لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد روى : « أن اباذر قال بحضرة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لرجل : (يا ابن السوداء !) ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : (يا اباذر ! طف الصاع طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل). فاضطجع ابو ذر وقال للرجل : قم فطأ على خدي » . وروى : « أن بلالاً لما أذن يوم الفتح على الكعبة . قال جماعة : هذا العبد الأسود يؤذن ! فنزل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ » (١) » .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ـ أي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب » . ونقل : أن واحداً من رؤساء اليونان افتخر على غلام ، فقال له : إن كان منشأ افتخارك آباؤك فالتفوق لهم لا لك ، وإن كان لباسك فالشرافة له دونك ، وإن كان مركوب فالفضيلة له لالك . فليس لك شيء يصلح للعجب والمفاخرة. ولذا قال متمم مكارم الأخلاق ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا تأتوني بأنسابكم وائتوني بأعمالكم » .

الثاني ــ أن يعرف نسبه الحقيقي ، فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله نسبه فقال :

« وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ

(١) الحجرات ، الآية : ١٣ .

نَشْأَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ » (١).

والأصل الذى يوطأ بالأقدام أو تغسل منه الاجسام أى رفعة يكون لفرعه !

الثالث ــ أن يعلم أن من يعجب بهم بالانتساب من اسلافه ، إن كانوا من أهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية ، فظاهر أنه ماكان من أخلاقهم العجب ، بل الذلة والازراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق، فان اقتدى بهم فى اخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز ، وإلا كان طاعناً فى نسبه بلسان حاله. وإن لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية ، بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية ، كالسلاطين الظلمة وأعوانهم ، فأف لمن يفتخر بهم ويعجب بنفسه لأجلهم ! إذ الانتساب الى الكلاب والخنازير أحسن من الانتساب اليهم ، كيف وأنهم ممقوتون عند الله معذبون فى النار ، بحيث لو نظر الى صورهم فى النار وما لحقهم فيها من النتن والقذارة، لاستنكف منهم وتبرأ من الانتساب اليهم . ولذلك قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً فى جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدوف بآنافهم القذر » وروى : أنه افتخر رجلان عند موسى عليه السلام ، فقال احدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عدّ تسعة ، فأوحى الله تعالى الى موسى : «قل للذى افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم!».

وأما (العجب بالجمال) : فعلاجه أن يعلم أنه فى معرض الزوال بالعلل والآلام والأمراض والأسقام ، وأى عاقل يعجب بشىء تزيله حمى يوم أو قرحة أو جدرى !

---

(١) السجدة ، الآية : ٧ ــ ٨ .

بر مال وجمال خويشتن غرة مشو

كآن را بشبي برندواين را به تبي (١)

ولو لم يرتفع بها ،فهل يشك عاقل بزواله بذهاب الشباب ومجيء الشيب وبالموت الذي لابد ان تذوقه كل نفس ؟ فانظر الى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة، كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور ، بحيث استقذرتها الطباع.

على انه لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله ، لرأى من الفضائح ما يكدّر عليه العجب والتعزز به ، فإنه وكلت اليه (٢) الاقذار في جميع اجزائه : (البصاق) في فمه ، (والمخاط) في انفه ، (والوسخ) في اذنه ، (والنتن) تحت ابطه ، (والصديد) تحت بشرته ، (والفضلات) في معدته ، (والرجيع) في امعائه ، (والديدان) في احشائه ، (والبول) في مثانته ، (والصفراء) في مرارته ، يتردد الى الخلاء كل يوم مرتين ، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين ، يخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً ان يمسه أو يشمه . وفي أول امره خلق من الاقذار الشنيعة الصور : من النطفة ودم الحيض ، وخرج من مجارى الاقذار ، اعنى الصلب والذكر والرحم والفرج .ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهده بالغسل والتنظيف، لثارت منه الانتان والاقذار ، وصار اقذر وأنتن من الدواب المهملة . هذا أوله ووسطه ، وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار . فما للعاقل أن يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته !

وأما (العجب بالمال) : فهو عجب بأمر خارج عن ذات الانسان ، فهو اقبح انواع العجب . وعلاجه ان يتفكر في آفات المال ، وكونه في معرض

(١) معنى البيت : (لا تغتر بمالك وجمالك ، فان ذاك يذهب بليلة وهذا بحمى واحدة).

(٢) وفي النسخ : « وكل به » ، ورجحنا ما اثبتناه .

الفناء والزوال ، من الغضب والنهب والحرق والغرق ، وغير ذلك من الآفات السماوية والارضية ، ويتذكر أن فى اليهود والهندو من يزيد عليه فى المال . واف لشرف يسبقه اليهود والهندو ! واف لشرف يأخذه السارق فى لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلساً ! ! ويتذكر ما ورد فى ذم المال وحقارة الاغنياء ، وفى فضيلة الفقر وشرافة الفقراء ، وسبقهم الى الجنة فى القيامة ، وما ورد فى عقوبة المعجب بالمال بخصوصه ، كقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « بينما رجل يتبختر فى حلة له قد اعجبته نفسه ، اذ أمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » (١) ، أشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه . وكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح به ، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله ، وايجابه المؤاخذة وطول المحاسبة فى القيامة ، والعقوبة والنكال إن كان حراماً ، وانحطاط المرتبة والدرجة إن كان حلالاً ، بل ينبغى له ألاّ يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره ، فى القيام بحقوقه ، وأخذه من حله ، ووضعه فى حقه .

وأما (العجب بالقوة وشدة البطش) : فعلاجه أن يتذكر ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأن حمى يوم تضعف قوته ويتحلل منها مالا ينجبر فى مدة ، وأنه لو وجع عرق واحد من بدنه صار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه ، وأن بقة لو دخلت فى أنفه أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته . ثم أقوى إنسان لا يكون اقوى من حمار أو جمل أو فيل أو بقر ، واى عجب وافتخار فى صفة يسبقه البهائم فيها ، هذا مع ان الغالب ان من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه .

(١) هذا الحديث صححناه على مافى احياء العلوم ـ ٣ : ٣٠٢ ـ .

وأما (العجب بالجاه ، والمنصب ، وولاية السلاطين ، وكثرة الأتباع والأنصار : من الأولاد والأقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان) : فعلاجه أن يعلم ان كل ذلك فى معرض الانقطاع،وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة ، إما بفنائه وموته أو بفنائها وهلاكها ، بل العاقل يجدها كسراب بقيعة ، وإنما هى خيالات تظن شيئاً وليست بشيء ، وستفترق عنه اذا مات ودفن فى قبره ذليلا مهيناً وحده، لا يرافقه أهل وأولاد ولا أعوان وأتباع، فيسلمونه الى البلاء والى العقارب والحيات والديدان ، ولا يغنون عنه شيئاً ، وهو فى أحوج أوقاته اليهم.وكيف يعجب العاقل بمن يفارقه فى أشد احواله! على انهم فى الدنيا يتبعونه ما دام يحصل منه ما يشتهونه من البذل والاعطاء ، فلا بد له من ايقاع نفسه فى المهالك وتعرضه لسخط الله وعقوبته ، لتحصيل الاموال من الوجوه المحرمة وصرفها اليهم ، ليستمروا على متابعته واعانته ، ولو نقص شيء مما يتمنونه تعرضوا لمقته وعداوته ، فضلا عن بقائهم على حمايته واطاعته . ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، إذ لو تغير عليه كان أذل الخلق .

وأما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور) : فعلاجه أن يعلم أن ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه، وربما زال عقله دفعة. مع أنه إن كان فى الواقع فطناً كيساً فى الأمور يلزم عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك ، ويستصغر (١) عقله وفطانته ، ليبقى الله تعالى عليه تلك النعمة ، ولا يسلبها عنه لأجل عجبه .

وأما (العجب بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله) : فهو أقبح أنواع العجب ،إذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة

---

(١) فى النسخ : « يستغفر » ، فرجحنا ما اثبتناه .

وآراء فاسدة إنما أصروا عليها لعجبهم بها ، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم ، وبذلك هلكت الامم إذا افترقت فرقا ، وكل معجب برأيه ، و :

« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (١)

فكل من استحسن ما يسوقه اليه الهوى والشبهة ـ مع ظن كونه حقاً ـ يكون له هذا العجب،وقد أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:ه أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة. وعلاجه أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطأه ، ولو عرفه لتركه. ولا يعالج الداء الذى لا يعرف ، إذ العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه اذا لم يكن معجباً برأيه وجهله ، وإذا كان معجباً به يتهمه ولا يصغى اليه حتى يعالجه ، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن أنها نعمة . وكيف يطلب الهرب مما يعتقد أنه سبب سعادته ! وانما علاجه فى الجملة أن يكون متهما لرأيه لا يغتر به ، إلا أن يشهد له قاطع عقلى أو نقلى لا يعتريه ريب وشبهة .

ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت ، وقريحة تامة مستقيمة ، مع جد وتشمير فى الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة أهل العلم ، ومدارسة العلوم طول العمر ، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط . فالصواب للكل — إلامن أيده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض فى غمرات العلوم — ألا يخوض فى المذاهب الباطلة ولا يصغى اليها . ويتبع أهل الوحى فيما جاؤا به من عند الله فى الأصول والفروع .

---

(١) المؤمنون ، الآية : ٥٣ .

وصل

(انكسار النفس)

ضده العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها فى نظره ذليلة مهينة. وكما ان العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه، فكذا ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط اعظام الغير معه ، إذ الأول مع اعتبار الثانى تكبر ، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع ، وهما ضدان .

ثم لا ريب فى فوائد انكسار النفس واستصغارها ، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فانما بلغ بهذه الصفة ، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة (١) يمسكانها ، فان هو رفع نفسه جبذاها (٢) ثم قالا : اللهم ضعه ، وإن وضع نفسه قالا : اللهم ارفعه » (٣) . وروى : « أنه أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام : أن يا موسى ! أتدرى لم اصطفيتك بكلامى دون خلقى ؟ قال : يا رب ! ولم ذلك ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى اليه : أنى قلبت عبادى ظهراً لبطن ، فلم اجد فيهم احداً اذل نفساً لى منك ، يا موسى ! إنك اذا صليت وضعت خدك على التراب » . وروى : « انه لما اوحى الله تعالى الى الجبال : أنى واضع سفينة نوح عبدى على جبل منكن، فتطاولت وشمخت، وتواضع الجودى ، وهو جبل عندكم ، فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل ، فقال نوح عند ذلك : (يا مارى اتقن) وهو بالسريانية : رب اصلح » (٤).

---

(١) الحكمة بالتحريك : ما احاط بحنكى الفرس من لجامه .

(٢) بمعنى جذباها .

(٣) صححنا الحديث على مافى احياء العلوم ــ ج ٢ ص ٣٢٩ — .

(٤) هذا الحديث وما قبله رواهما السكافى فى باب التواضع ، فصححناها عليه .

ومنها :

الـكبر

وقد عرفت : أنه الركون الى رؤية النفس فوق الغير . وبعبارة أوضح : هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاد المزية والرجحان عليه ، فهو يستدعى متكبراً عليه . وبه ينفصل عن العجب ، إذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير . فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه .

ثم الكبر — أى العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير — هو خلق الباطن يقتضى اعمالا فى الظاهر هى ثمراته ، وتسمى تلك الأعمال الظاهرة الصادرة منه تكبراً ، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطناً فوق الغير ، من دون صدور فعل على جوارحه ، يقال له (كبر) ، وإذا ظهرت الأعمال يقال له (تكبر) . وهذه الأعمال الظاهرة التى هى ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والازراء به ، كالترفع عن مواكلته ومجالسته ، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته ، وابعاده عن نفسه ، وإبائه عن الجلوس بجنبه ، وانتظاره ان يسلم عليه ، وتوقعه أن يقوم ماثلا بين يديه ، والاستنكاف من قبول وعظه ، وتعنيفه فى ارشاده ونصحه ، وتقدمه عليه فى المحافل والطرقات ، وعدم الالتفات اليه فى المحاورات ، وتوقع التقديم عليه فى كل ما يدل على التعظيم عرفا . وبالجملة : الأعمال الصادرة عن الكبر كثيرة ، ولا حاجة الى احصائها ، لكونها مشهورة معروفة . ومن جملتها الاختيال فى المشى وجر الثياب ، إذ فاعلهما يرى نفسه فوق الاكثر ويقصد بهما استحقارهم ، فهما يقتضيان متكبراً عليه ، فيكونان من انواع التكبر ، وما ورد فى ذمهما يدل

أيضاً على ذمه ، كما يأتي . وهذه الأفعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدر عن الحقد أو الحسد أو الرياء ، وإن لم تكن في النفس عزة وتعظم .

فصل

(ذم الكبر)

الكبر آفته عظيمة وغائلته هائلة ، وبه هلك خواص الأنام فضلا عن غيرهم من العوام . وهو الحجاب الأعظم للوصول الى أخلاق المؤمنين ، إذ فيه عز يمنع عن التواضع ، وكظم الغيظ ، وقبول النصح ، والدوام على الصدق ، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والازراء بالناس ، وغير ذلك . فما من خلق مذموم إلا وصاحب الكبر مضطر اليه ، ليحفظ به عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه . خوفا من فوات عزه . ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه :

« كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »(١) وقال : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ » (٢) . وقال : « وَٱلْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ... الى قوله : وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » (٣) . وقال : « ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ »(٤) . وقال : « فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ

(١) غافر ، الآية : ٣٥ .
(٢) الاعراف ، الآية : ١٤٦ .
(٣) الانعام ، الآية : ٩٣ .
(٤) الزمر ، الآية : ٧٢ .

مُسْتَكْبِرُونَ » (١). وقال : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (٢). وقال : « إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ » (٣).

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » (٤)، وقال : « من تعظم في نفسه واختال في مشيته، لقي الله وهو عليه غضبان ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطراً ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « قال الله : الكبرياء ردائي والعظمة ازاري، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق، يقول وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « لا يدخل الجنة جبار، ولا بخيل، ولا سيء الملكة ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان، وملك جبار، ومقل مختال ». وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي

(١) النحل، الآية : ٢٣ .
(٢) غافر، الآية : ٦٠ .
(٣) غافر، الآية : ٥٦ .
(٤) روي الحديث في الكافي عن احد الصادقين ـ عليهما السلام ـ في باب الكبر، وجاء فيه هكذا : « الكبر » بتعريف كبر .

الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تبختر واختال ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ألا أخبركم باهل النار : كل عتل جواظ جعظرى متكبر » (١) . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إن أبغضكم الينا وأبعدكم منا فى الآخرة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » : أى المتكبرون . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة فى مثل صور الذر ، تطأهم الناس ذراً فى مثل صور الرجال ، يعلوهم كل شىء من الصغار ، ثم يساقون الى سجن فى جهنم يقال له (بولس) ، تعلوهم نار شر أنيار (٢) ، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى » ، وقال : « إن فى جهنم وادياً يقال له (هبهب) ، حق على الله أن يسكنه كل جبار » ، وقال: « إن فى النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » ، وقال : « إذا مشت امتى المطيطاء وخدمتهم (فارس) و (الروم) سلط الله بعضهم على بعض » ، والمطيطاء : مشية فيها اختيال . وقال عيسى بن مريم : « كما أن الزرع ينبت فى السهل ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر فى قلب المتواضع ولا تعمر فى قلب المتكبر ، ألا ترون أنه من يتشمخ برأسه الى السقف شجه ، ومن يطأطىء أظله وأكنه » . ولما حضرت نوحا الوفاة ، دعا ابنيه فقال :

(١) صححنا الحديث على كنز العمال ـ ج ٢ ص ١٠٧ ـ . والجواظ : المتكبر الجافى ، والجعظري : الفظ الغليظ .

(٢) كذا فى النسخ . وفى نسخة احياء العلوم ـ ج ٢ ص ٢٩٠ ـ : (نار الانيار) ؛ ولم نعثر على جمع نار على انيار ، وانما من جملة جموعها (نيار) .

« إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده » . وقال سليمان بن داود يوماً للطير والجن والأنس والبهائم : « اخرجوا ، فخرجوا فى مائتى الف من الانس ومائتى الف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السماوات ، ثم خفض حتى مست اقدامه البحر ، فسمع صوتاً يقول : لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته » .

وقال الباقر عليه السلام : « الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه » ، وقال : « العز رداء الله والكبر ازاره ، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله فى جهنم » . وقال الصادق عليه السلام : « إن فى جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقر) شكى الى الله شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس ، فتنفس فاحرق جهنم » . وقال عليه السلام : « إن المتكبرين يجعلون فى صور الذر ، يتوطاهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب » . وقال عليه السلام : « ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها فى نفسه » . وقال عليه السلام : « إن فى السماء ملائكة موكلين بالعباد ، فمن تواضع رفعاه ، ومن تكبر وضعاه » . وقال عليه السلام : « الجبار الملعون من غمص الناس وجهل الحق » ، قال الراوى : أما الحق فلا أجهله ، والغمص لا أدرى ما هو قال : « من حقّر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار » . وقال عليه السلام : « ما من عبد إلا وفى رأسه حَكَمَة وملك يمسكها ، فاذا تكبر قال له : اتضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس فى نفسه وأصغر الناس فى أعين الناس ، واذا تواضع رفعها الله ـ عز وجل ـ ثم قال له : انتعش نعشك الله ، فلا يزال أصغر الناس فى نفسه وارفع الناس فى أعين الناس » .

فصل

(التكبر على الله وعلى الناس)

التكبر قد يكون على الله ، كما كان لنمرود وفرعون ، وسببه الطغيان ومحض الجهل ، وهو أخش أنواع الكبر ، إذ هو أعظم افراد الكفر ، ولذا تكررت فى ذمه الآيات ، كقوله تعالى :

« إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ »(١). وقوله : « وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعاً» (٢) . وقوله تعالى : « ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أيُّهُمْ أشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً»(٣) وقوله : « فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » (٤) .

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم ، كما كان لمن يقول :

« أهؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا » (٥) . ولمن يقول: « أنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا » (٦) . « إنْ أنْتُمْ إلا بَشَرٌ

(١) غافر ، الآية : ٦٠ .
(٢) النساء ، الآية : ١٧٢.
(٣) مريم ، الآية : ٦٩ .
(٤) النحل ، الآية : ٢٣ .
(٥) الانعام ، الآية : ٥٣ .
(٦) المؤمنون ، الآية : ٤٧ .

مثلنا » (١) . « وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ » (٢) . ولمن قال : « لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً » (٣) .

وهذا فى الشناعة قريب من التكبر على الله ، وإن كان دونه .

وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم ، وهذا وإن كان دون الأولين ، إلا أنه من المهلكات العظيمة ، من حيث أنه يؤدى الى مخالفة الله سبحانه ، إذ صاحبه إذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشمأز بجحده ، ومن حيث أن العز والعظمة والعلى لا يليق إلا بالعلى الأعلى ، فمهما تكبر العبد نازع الله فى صفة من صفاته . ولذا قال الله سبحانه : « والعظمة ازارى والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمته » .

فصل

(درجات الكبر)

للكبر درجات ثلاث :

(الاولى) أن يكون مستقراً فى قلبه ، يرى نفسه خيراً من غيره ، ويظهره فى أفعاله : بالترفع فى المجالس ، والتقدم على الأقران ، وأن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم ، ويعبس وجهه ، ويقطب جبينه . وفى أقواله :

---

(١) ابراهيم ، الآية : ١٠ .
(٢) المؤمنون ، الآية : ٣٤ .
(٣) الفرقان ، الآية : ٢١ .

باظهار الانكار على من يقصر فيما يتوقعه . من التعظيم ، وابداء الدعوى ، والمفاخرة والمباهاة ، وتزكية النفس ، والتشمير لغلبة الغير فى العلم والعمل . وهذه الدرجة أقبح الدرجات وأشدها ، إذ صاحبها قد رسخت فى قلبه شجرة الكبر وارتفعت أغصانها وفروعها ، بحيث أحاطت على جميع جوارحه .

(الثانية) كالأولى ، إلا فى إظهاره على اللسان . وهى دون الأولى ، لكونها أقل اغصاناً منها .

(الثالثة) أن يكون مستقراً فى قلبه بحيث رأى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد فى التواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه . وهذا وإن رسخت فى قلبه شجرة الكبر ، إلا أنه قطع أغصانها بالكلية . فان كان مع ذلك منكراً على نفسه فيما رسخ فيها ، ومغضباً عليها ومتشمراً لازالتها ، إلا أنه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة ، وتميل النفس الى ما تشتهيه فى بعض الأحيان بدون اختيار ، ولكنه كان فى مقام المجاهدة ، فلعله لم يكن عليه كثير إثم . ومثله يوفقه الله للوصول الى ما يطلبه بمقتضى وعده .

فصل

(علاج الكبر علماً وعملا)

الكبر كالعجب فى كيفيه العلاج اجمالا وتفصيلا ، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب ـ أى استعظام النفس ـ وكان العجب منشأ له ، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر أيضاً . ولكن ما به الكبر ـ اعنى بواعثه ـ هى بواعث العجب بعينها ، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما .

ومن المعالجات المختصة بالكبر : أن يتذكر ما ورد فى ذمّه من الآيات

والأخبار المذكورة وغيرها ، ويتأمل فيما ورد فى مدح ضده ـ اعنى التواضع ـ كما يأتى . ولكون الكبر مشتملا على شىء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير ، فينبغى أن يعلم أن الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة ، فلعل فى الغير من خفايا الأخلاق الكريمة ما ينجيه . وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه . وكيف يجترىء صاحب البصيرة أن يرجح نفسه على الغير ، مع ابهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل فى الانتساب الى الله تعالى ، وفى صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له . فالواقف بخطر الخاتمة واناطة النجاة والهلاك بالبواطن لايرى لنفسه مزية على غيره ، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثراً من آثار ذاته ولمعة من لمعات انوار صفاته ، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده ، لا ينظر الى أحد بنظر السوء والعداوة ، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة .

اشكال وحل

﴿فإن قيل﴾ : كيف يحسن أن يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيراً من نفسه ، مع ظهور جهله وفسقه ، وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما ؟ وكيف يجوز له أن يحب فاسقاً أو كافراً أو مبتدعاً ويتواضع له ولا يعاديه ، مع أنه مبغوض عند الله ، فيكون مأموراً ببغضه ، والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين ؟

﴿أجبنا﴾ عن (الأول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير ، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه فى الصفات الظاهرة التى يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها ، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الأموال المحرمة وغير ذلك ، إذ العالم ببعض

العلوم لا يمكنه أن يدفع عن نفسه القطع بكونه عالماً بها وكون فلان العامى غير عالم بها . لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الأمرية إنما هو بالتقرب الى الله والوصول الى السعادة الدائمية ، ولا شك فى أن ذلك لا يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات أو غير ذلك من الصفات المحمودة ، بل المناط فيه حسن الخاتمة . وهو أمر مبهم ، إذ العواقب مطوية عن العباد ، فيمكن أن يسلم الكافر ويختم له بالايمان ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر ، فعلى كل عبد إن رأى من هو شراً منه ظاهراً أن يقول : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا يراه شراً من نفسه فى الواقع خائفاً من العاقبة ، ويقول : لعل برّ هذا باطن . بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، وبرّى ظاهر لا آمن أن تدخله الآفات فتحبطه . وبالجملة : ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال فى القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر فى الدنيا من الأعمال الظاهرة يوجب نفى الكبر والتواضع لكل أحد .

وعن (الثانى) إن الحب ينبغى أن يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة ، وبغضه وغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق . وأى منافاة بين الغضب لله فى صدور معصية من عبد ، وبين عدم الكبر والاذلال ؟! إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك ، إذ أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر ، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر الى نفسك ، ألا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً فى حال غضبك عليه لأمر الله ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك اكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه ، وترى قدرك فوق قدره .

ومثال ذلك : أن يكون لملك غلام وولد ، وقد وكل الملك الغلام على ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه ، ويغضب عليه إذا اشتغل بما لا يليق به . فإن كان الغلام مطيعاً محباً لمولاه يغضب عليه إذا ساء أدبه امتثالا لأمر مولاه ، ومع ذلك يحبه لانتسابه الى مولاه بالولادة . ولا يتكبر عليه ويتواضع له ، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لامحالة من الغلام .

تذنيب

(العلاج العملى للكبر)

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلمى ، وأما (العلاج العملى) ، فهو أن يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق ، ويواظب على اخلاق المتواضعين ، ويكلف نفسه على ذلك الى أن تقطع عن قلبه شجرة الكبر باصولها وفروعها ، ويصير التواضع ملكة له . وللقطع الكلى وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها ، فلابد أن يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع ، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر ، فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت وعدها :

(الأول) أن يناظر مع أقرانه فى بعض المسائل ، فاذا ظهر شىء من الحق على لسانهم ، فإن اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم إياه على ما غفل عنه فهو علامة التواضع ، وإن ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانهم فهو دليل بقاء الكبر بعد . فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخباثتها ، من حيث إن قبول الحق يثقل عليها ، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على مايثقل عليها من الاعتراف بالحق واطلاق اللسان بالثناء والشكر ، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور ، ويقول : ما أحسن فطانتك ! لقد أرشدتنى الى الحق ، فجزاك الله خيراً . فإذا

واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله . وإن لم يثقل عليه فى الخلوة وثقل عليه فى الملأ ، فليس فيه كبر ، بل فيه رياء ، فليعالج بما يأتى فى معالجة الرياء .

(الثانى) أن يقدم الأقران والامثال على نفسه فى المحافل ، ويمشى خلفهم فى الطرق ، فإن لم يثقل ذلك عليه فهو متواضع ، وإلا فمتكبر ، فليقدمهم بالتكلف ، ويجلس تحتهم ، ويظهر السرور والارتياح بذلك ، حتى يسقط عنه ثقله . قال ابو عبدالله الصادق عليه السلام : « إنّ من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه » . وقال عليه السلام : « من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، وأن تسلم على من تلقى ، وأن تترك المراء وان كنت محقاً ، ولا تحب أن تحمد على التقوى » . ومن المتكبرين من اذا لم يجد مكاناً فى الصدر يجلس فى صف النعال ، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل ولا يجلس تحتهم ، وغرضهم من ذلك استحقار الأقران أو ايهام أن تركهم للصدر انما هو بالتفضل ، فهو أشد انواع التكبر .

(الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر الى السوق فى حاجة الرفقاء والأقارب ، ويحمل حاجتهم وحاجة نفسه منه الى البيت ، فإن لم يثقل عليه ذلك فى الخلوة والملأ فليس فيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء ، وان ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء الى عياله » . وروى : « أنه اشترى لحماً بدرهم فحمله فى ملحفته ، فقال له بعضهم : احمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال : لا ! ابو العيال أحق أن يحمل » . وروى : « أن الصادق عليه السلام : نظر الى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله ، فلما رآه الرجل استحيى منه ، فقال له أبو عبدالله عليه السلام : اشتريته

لعيالك وحملته اليهم ، أما والله لو لا أهل المدينة لأحببت ان اشترى لعيالى الشىء ثم أحمله اليهم » .

(الرابع) أن يلبس ثيابا بذلة ، فان لم يثقل عليه ذلك أصلاً فليس فيه كبر ورياء ، وإلا كان متكبراً أو مرائياً ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إنما أنا عبد آكل فى الأرض ، وألبس الصوف ، وأعقل البعير ، وألعق أصابعى ، وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » . وقيل لسلمان : لم لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال : « إنما أنا عبد ، فاذا اعتقت يوماً لبست جديداً » : أشار به الى العتق فى الآخرة . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « البذاذة ـ أى الدون من اللباس ـ من الايمان » . وعوتب أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى ازار مرقوع ، فقال : « يقتدى به المؤمن وتخشع له القلوب » .

(الخامس) أن يأكل مع خدامه وغلمانه ، فان لم يثقل عليه فهو متواضع ، وإلا فمتكبر . وروى رجل من أهل بلخ ، قال : «كنت مع الرضا ﷺ فى سفره الى خراسان ،فدعا يوماً بمائدة ،فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقلت : جعلت فداك ! لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فقال ﷺ : إن الرب تعالى واحد ، والدين واحد ، والأم واحدة ، والأب واحد ، والجزاء بالأعمال » .

والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر ، بل هى كثيرة : كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ، قال أمير المؤمنين ﷺ : « من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام » . وقال بعض الصحابة : « لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله ،

وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك ».

وأن يحب أن يمشي خلفه غيره ، وقد روى « أنه لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه » . وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في بعض الأوقات يمشي مع بعض الاصحاب ، فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم .

وألا يزور غيره ، وإن كان في زيارته فائدة دينية . وان يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى . روى أنه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس عند أحد إلا قام من جنبه . فاجلسه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الى جنبه . وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفر من أصحابه يأكلون في بيته ، إذ دخل عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها ، فأجلسه رسول الله على فخذه وقال له : « اطعم » ، وكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكرهه ، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . ومرّ سيد الساجدين - عليه السلام - على المجذومين (١) وهو راكب حماره ، وهم يتغدون ، فدعوه الى الغداء ، فقال : « أما أني لولا أني صائم لفعلت » ، فلما صار الى منزله أمر بطعام فصنع ، وأمر أن يتنوقوا فيه ، ثم دعاهم ، فتغدوا عنده وتغدى معهم ... وقس على هذه غيرها من الامتحانات .

ولقد كانت سيرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع ، بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الأفعال والحركات ، فينبغي لكل مؤمن أن يقتدى به . وقد روى أبو سعيد الخدري : « أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقمّ

(١) وفي بعض نسخ الكافي المصححة في باب التواضع هكذا : (المجذمين) .

البيت . ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه اذا أعي، ويشترى الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله فى طرف ثوبه وينقلب الى أهله . يصافح الغنى والفقير والصغير والكبير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه ، لايستحيي من أن يجيب اذا دعى ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعى اليه ، وإن لم يجد إلا حشف الرّقل (١) ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساماً من غير ضحك،محزونا من غير عبوس ، شديداً فى غير عنف . متواضعاً فى غير مذلة ، جواداً من غير سرف ، رحيما لكل ذى قربى ، قريباً من كل ذمى ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الاطراق ، لم يبسم قط من شبع ، ولا يمد يده الى طمع » . هذا وقال ابو الحسن ـ عليهما السلام ـ : « التواضع : أن تعطى الناس ما تحب أن تعطاه ». وسئل عن حد التواضع الذى إذا فعله العبد كان متواضعاً ، فقال : « التواضع درجات : منها أن يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتى الى أحد إلا مثل مايؤتى اليه ، إن رأى سيئة درأها بالحسنة ،كاظم الغيظ عاف عن الناس، والله يحب المحسنين».

وصل

(التواضع ومدحه)

قد أشير الى ان ضد الكبر (التواضع) ، وهو انكسار للنفس يمنعها من أن يرى لذاتها مزية على الغير ، وتلزمه افعال وأقوال موجبة لاستعظام

(١) في احياء العلوم ـ ج ٣ ص ٣٠٦ ـ هكذا : (الدقل) ، وكل من النسختين يصح به المعنى .

الغير وإكرامه ، والمواظبة عليها أقوى معالجة لإزالة الكبر . ولابد من الاشارة الى الأخبار الواردة فى مدح التواضع وفوائده ، تحريكا للطالبين الى السعى فى تحصيله الموجب لازالة ضده ، وهذه الأخبار كثيرة خارجة عن حد الاحصاء ، فنكتفى بايراد بعض منها :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ، وانفق مالاً جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » . وروى : « أن الله سبحانه أوحى الى موسى : إنما اقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى » . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأصحابه : « مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة! قالوا : وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: « اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اذا هدى الله عبداً الاسلام وحسن صورته وجعله فى موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً ، فذلك من صفوة الله » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « اربع لا يعطيهن الله إلا من يحبه : الصمت وهو اول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد فى الدنيا » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله ، ومن اقتصد فى معيشة رزقه الله ، ومن بذر حرمه الله . ومن اكثر ذكر الموت أحبه الله ، ومن اكثر ذكر الله اظله الله فى جنته » . وروى : « أنه أتى رسول الله ـ صلى الله عليه

وآله وسلم ـ ملك، فقال : إن الله تعالى يخيرك أن تكون عبداً رسولا متواضعاً أو ملكا رسولا . فنظر الى جبرئيل ﷺ وأومى بيده أن تواضع . فقال : عبداً متواضعاً رسولا ، فقال الرسول ـ يعنى الملك ـ : مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً » . وقال عيسى بن مريم ﷺ : « طوبى للمتواضعين فى الدنيا ! هم اصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا ! هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة. طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا! هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرحمكم الله » . واوحى الله تعالى الى داود ﷺ : « ياداود ! كما أن اقرب الناس الى الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون » . وروى : « أن سليمان بن داود اذا أصبح تصفح وجوه الاغنياء والأشراف حتى يجىء الى المساكين فيقعد معهم ، ويقول مسكين مع مساكين » . وروى : « أنه ورد على أمير المؤمنين ﷺ اخوان له مؤمنان ، أب وابن، فقام اليهما وأكرمهما وأجلسهما فى صدر مجلسه وجلس بين ايديهما، ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وابريق خشب ومنديل، وجاء ليصب على يد الرجل ، فوثب أمير المؤمنين وأخذ الأبريق ليصب على يد الرجل ، فتمرغ الرجل فى التراب ، وقال : يا أمير المؤمنين ! الله يرانى وانت تصب على يدى ! قال : اقعد واغسل ، فإن الله ـ عز وجل ـ يراك واخوك الذى لايتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك، يريد بذلك فى خدمته فى الجنة مثل عشرة اضعاف عدد أهل الدنيا. فقعد الرجل . وقال له على ﷺ : أقسمت عليك بعظيم حقى الذى عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر ، ففعل الرجل ذلك ، فلما فرغ ناول الابريق محمد بن الحنفية ، وقال : يابنى ! لو كان هذا الابن حضرنى دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله ـ عز وجل ـ يأبى أن يسوى بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان ،

لكن قد صبّ الأب على الأب فليصب الابن على الابن ، فصب محمد بن الحنفية على الابن ، (١) .

وقال الصادق عليه السلام : « التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب . والتواضع ما يكون لله وفي الله ، وما سواه فكبر . ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده . ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين . قال الله عز وجل :

« وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ » (٢) .

وأصل التواضع من اجلال الله وهيبته وعظمته . وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع . ولا يعرف ما في معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته ، قال الله عز وجل :

« وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » (٣) .

وقد أمر الله ـ عز وجل ـ أعزّ خلقه وسيد بريته محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ بالتواضع ، فقال عز وجل :

« وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (٤)

---

(١) روي هذا الحديث في البحار ـ في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ص ١٤٩ باب التواضع ـ عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام العسكري عليه السلام .

(٢) الاعراف ، الآية : ٤٦ .

(٣) الفرقان ، الآية : ٦٣ .

(٤) الشعراء ، الآية : ٢١٥ .

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء ، وإنهن لا يأتين إلا منها وفيها ، ولا يسلم الشرف التام الحقيق إلا للمتواضع فى ذات الله تعالى (١) . وقال الإمام ابو محمد الحسن بن على العسكرى عليهم السلام : « أعرف الناس بحقوق اخوانهم واشدهم قضاء لهم اعظمهم عند الله شأناً ،ومن تواضع فى الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصدّيقين ومن شيعة على بن ابى طالب ـ عليه السلام ـ حقاً » (٢) .

تتميم
(الذلــــة)

لما عرفت أن كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان،فأحد طرفى التواضع (الكبر) ـ كما عرفت ـ وهو من طرف الافراط،وآخرهما (الذلة) والتخاسس، وهو من طرف التفريط . فكما أن الكبر مذموم ، فكذلك المذلة والتخاسس أيضاً مذموم ، اذ كلا طرفى الأمور ذميم ، والمحمود : هو التواضع من دون الخروج الى شىء من الطرفين ، اذ أحب الأمور الى الله أوسطها . وهو أن يعطى كل ذى حق حقه،وهو العدل، فلو وقع فى طرف النقصان فليرفع نفسه، إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه . فالعالم إذا دخل عليه إسكاف تخلى له مجلسه وأجلسه فيه ، وترك تعليمه وإفادته ، وإذا قام عدا الى الباب خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو غير محمود ، بل هو رذيلة فى طرف التفريط . فاللازم اذا وقع فيه أن يرفع نفسه الى أن يعود الى الوسط الذى هو الصراط المستقيم . فإن العدل أن يتواضع بمثل ماذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته . فأما تواضعه للسوق ، فبالبشر فى الكلام ، والرفق فى السؤال ، واجابة دعوته ، والسعى

(١) روى هذا الحديث فى البحار أيضاً فى الوضع المتقدم عن مصباح الشريعة .
(٢) هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام

فى حاجته ، وامثال ذلك ، وألا يرى نفسه خيراً منه ، نظراً الى خطر الخاتمة.

ثم ينبغى ألا يتواضع للمتكبرين ، إذ الإنكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذلة المذمومة يوجب اضلال هذا المتكبر ، وتقريره على تكبره ،واذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبه وترك التكبر ، اذ المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والاهانة من الناس ، ولذا قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « اذا رأيتم المتواضعين من امتى فتواضعوا لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم . فإن ذلك لهم مذلة وصغار » .

ومنها :

الافتخار

أى المباهاة باللسان بما توهمه كمالا ، والغالب كون المباهاة بالأمور الخارجة عن ذاته ، وهو بعض أصناف التكبر - كما اشير اليه - فكل ما ورد فى ذمه يدل على ذمه ، والأسباب الباعثة عليه هى أسباب التكبر . وقد تقدم أن شيئاً منها لا يصلح لأن يكون منشأ للافتخار ، فهو ناش من محض الجهل والسفاهة . قال سيد الساجدين عليه السلام : « عجباً المتكبر الفخور الذى كان بالأمس نطفة ثم (هو) (١) غداً جيفة » . وقال الباقر عليه السلام : « عجباً للمختال الفخور ، وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة ، وهو فيما بين ذلك لا يدرى ما يصنع به » . وقال عليه السلام : « صعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المنبر يوم فتح مكة ، فقال : أيها الناس ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، ألا إنكم من آدم وآدم من طين ، ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه » . وقال له عليه السلام عقبة بن بشير الأسدى : أنا فى الحسب الضخم عزيز

---

(١) فى بعض نسخ الكافى فى باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو) .

في قومي ، فقال له : « تمنّ علينا بحسبك ! إن الله تعالى رفع بالايمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً ، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً اذا كان كافراً. فليس لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله». وقال الصادق ﷺ : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: آفة الحسب الافتخار والعجب ». وقال ﷺ : «أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ رجل ، فقال : يا رسول الله! أنا فلان بن فلان ... حتى عدّ تسعة. فقال رسول الله: أما انك عاشرهم في النار ! ». ونقل: أن قريشاً تفاخروا عند سلمان ، فقال : « لكني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم الى الميزان ، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم ». ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول . ومنها :

البغي

ويسمى البذخ أيضاً ، وهو صعوبة الانقياد والتابعية لمن يجب أن ينقاد (له) ، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة ، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) . أو في ضمن أحد أفعال الكبر ، أو في ضمن الظلم والتعدي على الغير . وعلى أي تقدير هو أخس أنواع الكبر ، إذ عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد(له) ـ كالأنبياء وأوصيائهم ـ يؤدي الى الكفر الموجب للهلاك الأبدي . ولقد هلك بذلك اكثر طوائف الكفار ، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم . وكذا الظلم والتعدي على المسلم وإذلاله بالمقهورية والمغلوبية من المهلكات العظيمة ، ولذا ورد في ذمه ما ورد ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : « إن أعجل الشر عقوبةً البغي » . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « حق على الله عز وجل ألا يبغي شيء على شيء

إلا أذله الله ، ولو أن جبلاً بغى على جبل لهد الله الباغي منهما » . وقال أمير المؤمنين ﷺ : « أيها الناس ! إن البغي يقود اصحابه الى النار . وإن أول من بغى على الله عناق بنت آدم ، وأول قتيل قتله الله عناق ، وكان مجلسها جريباً فى جريب ، وكان لها عشرون اصبعاً فى كل اصبع ظفران مثل المنجلين ، فسلط الله عليها اسداً كالفيل ، وذئباً كالبعير ، ونسراً كالبغل ، فقتلنها . وقد قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل احوالهم وأمن ما كانوا » . وقال الصادق ﷺ : « يقول ابليس لجنوده : القوا بينهم الحسد والبغي فانهما يعدلان عند الله الشرك » . وكتب ﷺ الى بعض اصحابه : « انظر ألا تكلمن بكلمة بغى ابداً ، وإن اعجبتك نفسك وعشيرتك » .

وعلاجه : ان يتذكر ـ اولا ـ هذه الأخبار الواردة فى ذمه ، وـ ثانياً ـ ما ورد فى مدح ضده ـ اعنى التسليم والانقياد لمن يلزم اطاعته وتابعيته ـ كقولهم عليهم السلام : « شيعتنا المسلمون » . والآيات والأخبار الواردة فى وجوب اطاعة الله واطاعة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ واولى الأمر ، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الأئمة فى زمن الغيبة . وبعد ذلك يكلف نفسه التابعية والاطاعة لمن يجب ان يطاع ، ويتخضع له قولاً وفعلاً ، حتى يصير ذلك له ملكة .

ومنها :

تزكية النفس

أي نفى النقائص عنها ، واثبات الكمالات لها . وهو من نتائج العجب . وقبحه اظهر من ان يخفى ، إذ من عرف حقيقة الامكان ، ثم اطلع على خلق الانسان ، يعلم انه عين القصور والنقصان ، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان .

على أنه يتضمن بخصوصه قبحاً يشهد به الذوق والوجدان ، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : « تزكية المرء لنفسه قبيحة » . وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الانسان وخساسته .

ثم ضد التزكية عدم تبرئة نفسه من العيوب والاقرار بها واثبات النقائص لها ، فاذا كاف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية،يصير معتاداً له، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه .

ومنها :

العصبية

وهي السعي في حماية نفسه أو ماله اليه نسبة : من الدين ، والأقارب، والعشائر ، وأهل البلد ، قولا أو فعلا : فان كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته ، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الانصاف والوقوع في مالا يجوز شرعاً ، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من فضائل قوة الغضب ـ كما مر ـ . وإن كان مما يلزم حمايته ، أو كانت حمايته بالباطل ، بأن يخرج عن الانصاف وارتكب ما يحرم شرعاً ، فهو التعصب المذموم ، وهو من رداءة قوة الغضب . والى ذلك يشير كلام سيد الساجدين عليه السلام حيث سئل عن العصبية ، فقال : « العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم » .

والغالب اطلاق العصبية في الأخبار على التعصب المذموم ، ولذا ورد بها الذم ، كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الايمان من عنقه » . وقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

« من كان فى قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية » . وقال السجاد عليه السلام : « لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب ، وذلك حين أسلم عصباً للنبي - صلى الله عليه وآله - فى حديث السلى الذى ألقى على النبي - صلى الله عليه وآله - » . وقال الصادق عليه السلام : « إن الملائكة كانوا يحسبون أن ابليس منهم ، وكان فى علم الله أنه ليس منهم ، فاستخرج مافى نفسه بالحمية والعصب ، فقال :

« خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١) .

ومنها :

كتمان الحق

والانحراف عنه ، وباعثه إما العصبية أو الجبن ، فهو من نتائج واحدة منهما ، فعلى (الأول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الافراط ، وعلى (الثانى) يكون من رذائلها من جانب التفريط . وربما كان الباعث فى بعض افراده الطمع المالى ، إلا أن الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب ، كما فى نفس الغضب وغيره ، إذ مالم يحصل فى النفس ضعف وفى القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق . ويندرج تحته الميل فى الحكم ، وكتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وتصديق المبطل ، وتكذيب المحق ، وغير ذلك .

والظواهر الدالة على ذمه مطلقاً ، وعلى كل واحد من الأصناف المندرجة تحته كثيرة ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . وعلاج العصبية وكتمان الحق : أن يتذكر - أولاً - ايجابهما لسخط الله ومقته ، وربما تأديا

(١) الأعراف الآية ١٢ . ص ، الآية : ٧٦ .

الى الكفر ، و- ثانياً - فوائد ضدهما ، أعنى الانصاف والاستقامة على الحق . وبعد ذلك يكلف نفسه على اظهار ما هو الحق والعمل به ، ولو بالمشقة الشديدة ، الى ان يصير ذلك عادة له ، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق .

وصل

(الانصاف والاستقامة على الحق)

لما كان ضدهما الانصاف والاستقامة على الحق ، فلنشر الى بعض ما ورد فى مدحهما تحريكا للطالبين الى الأخذ بهما ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الانفاق من الاقتار ، والانصاف من نفسه ، وبذل السلام » . وكان - صلى الله عليه وآله - يقول فى آخر خطبته : « طوبى لمن طاب خلقه ، وطهرت سجيته ، وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، وأنفق الفضل من ماله ، وامسك الفضل من قوله ، وانصف الناس من نفسه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « سيد الأعمال انصاف الناس من نفسك . . . » الى آخره . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه ، فذلك المؤمن حقاً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث خصال من كنّ فيه أو واحدة منهنّ كان فى ظل عرش الله يوم لاظلّ إلا ظله : رجل اعطى الناس عن نفسه ما هو سائلهم . . . » الحديث . وقال أمير المؤمنين عليه السلام فى كلام له : « ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزده الله إلا عزاً » . وقال الصادق عليه السلام : « من يضمن لى أربعة بأربعة ابيات فى الجنة : انفق ولا تخف فقراً ، وافش السلام فى العالم ، واترك المراء وإن

كنت محقاً ، وانصف الناس من نفسك » . وقال ﷺ : « ألا اخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه » ، فذكر ثلاثة اشياء أولها : (انصاف الناس من نفسك) . وقال ﷺ : « من انصف الناس من نفسه رضى به حكماً لغيره » . وقال ﷺ : « ما تدارى اثنان فى أمر قط فأعطى أحد النصف صاحبه فلم يقبل منه إلا أديل منه » . وقال ﷺ : « ثلاثة هم أقرب الخلق الى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرة فى حال غضبه على ان يحيف على من تحت يده ، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة ، ورجل قال بالحق فيما له وعليه » . وقال ـ عليه السلام ـ : « إن لله جنة لا يدخلها إلا ثلاثه ، أحدهم من حكم فى نفسه بالحق » (١) .

ومنها :

القساوة

وهى ملكة عدم التأثر عن تألم ابناء النوع . ولا ريب فى كونه ناشئاً من غلبة السبعية ، واكثر ذمائم الصفات : من الظلم والايذاء ، وعدم اغاثة المظلومين، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه . وضده الرحمة والرقة ، وهو التأثر عن مشاهدة تألم ابناء نوعه ، ويترتب عليه من الصفات المرضية اضداد ما ذكر . وقد ورد به المدح والترغيب فى الأخبار الكثيرة ، كقول النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « يقول الله تعالى : اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى اكنافهم ، فانى جعلت فيهم رحمتى . ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فانى جعلت فيهم سخطى » . وكقول الصادق ﷺ : « اتقوا الله وكونوا اخوة بررة متحابين فى الله متواصلين

---

(١) هذا الحديث رواه فى الكافى فى باب الانصاف والعدل عن الباقر ـ عليه السلام ـ

متراحمين . . . الخ » . وقوله ﷺ : « تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما امركم الله » . وقوله ﷺ : « يحق على المسلمين الاجتهاد فى التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لاهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل : رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من امرهم على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله » . وقد ورد : أن من ترحم على العباد يرحمه الله . والأخبار الواردة فى فضيلة مطلق الرحمة ، وفى فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته : من اعانة المحتاج ، واغاثة المظلوم ، ومواساة الفقير ، والاغتمام بمصائب المؤمنين ، وأمثال ذلك ، أكثر من أن تحصى .

ثم إن ازالة القساوة واكتساب الرحمة فى غاية الإشكال ، إذ القساوة صفة راسخة فى القلب لا يقدر على تركها بسهولة ، فطريق العلاج أن يترك لوازمها وآثارها من الأفعال الظاهرة ، ويواظب على مايترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية ، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الأولى ويحصل مبدأ الثانية .

انتهى الجزء الأول

فهرس الجزء الاول من جامع السعادات